

موقع الاستقامة يقدم لكم

كتاب

الأزهار الرياضية في أئمة وملوك
الإباضية

للشيخ المجاهد سليمان باشا الباروني

الازهار الرياضية

في أئمة وملوك الاباضية

تأليف

سليمان باشا الباروني النفوسي

فهرس المحتويات

6	بسم الله الرحمن الرحيم
6	القسم الثاني من الكتاب
6	في انتقال الامامة من طرابلس الى مدينة تيهرت بالمغرب الاوسط ومبدأ ذلك واسبابه
7	ابتداء تأسيس مدينة تيهرت
28	حالتها الحاضرة
29	ومنها مدينة وهران
30	حالتها الحاضرة
30	ومنها مدينة شلف
30	ومنها مدينة افكان
31	ومنها مدينة غرة
31	(ومنها سوق ابراهيم)
31	ومنها واريفن
31	(ومنها مدينة اوزكى)
31	ومنها مدينة الغدير
32	ومنها مدينة زلاغ
32	ومنها مدينة يلل
32	ومنها مدينة قصر الفلوس
32	(منها مدينة انكاد)
32	ومنها قلعة هواره
33	(ومنها مدينة ملبانة)
33	(حالتها الحاضرة)
38	علماء غير الاباضية
40	مدينة سجماسة
42	عود الى المقصود بالذات
42	(خلافة الامام عبد الرحمن رضي الله عنه)
43	(الاعانة الاولى من أهل المشرق لامام المغرب)
43	(امتحانا واستكشافا لأحواله)
44	(الاعانة الثانية من أهل المشرق لامام المغرب) (عبد الرحمن بن رستم)
46	(دهاء هذا الامام وحسن تصرفه مع اماراة مستقلة)
46	(عن تيهرت بعض ملوكها أباضية)
47	(حمل اروي بنت الامام بولدها ميمون)
49	(خلافة الامام عبد الوهاب رحمه الله)
49	(وكناه المراكشي بأبي الوارث ولم نره لغيره)
50	(خروج ابن فندين عن طاعة الامام)
51	(تدبير مكيدة لقتل الامام)
52	(جواب علماء المشارقة الى المغاربة)
53	(اجتماع شعيب بابن فندين وخروجهما عن الطاعة)
55	عودة الرسل من المشرق وما وقع بعد ذلك من قتل ميمون بن الامام)
56	(الأخذ بثار ميمون)
56	(خروج الواصلية من المعتزلة عن الامام) (وحروبه معهم)
57	طلب الامام الاعانة الحربية من جبل نفوسة لمحاربة الواصلية
59	(المناظرة والمبارزة)
60	(استدعاء المعتزلة أبا العباس للضيافة) (بقصد الغدر به)
62	(حرب أخرى لهذا الامام)
65	(عزم الامام على أداء فريضة الحج) (ومروره بجبل نفوسة)
67.3	(منع نفوسة الامام من الذهاب الى الحج وخبر ذلك)

- 68.....(حكاية ابي عبيدة في نهى الامام رحمهما الله)
- 68.....(محاصرة هذا الامام لمدينة طرابلس)
- 69.....(محاصرة عسكر الامام لمدينة قابس)
- 70.....رجوع الامام الى تيهرت وتعيينه السمح عاملا على الجبل بعده
- 70.....(وفاة السمح رحمه الله وولاية ابنه خلف وما نشأ عنها من الفساد)
- 71.....(جواب الامام رحمه الله الى جبل نفوسة في مسألة خلف)
- 73.....(ولاية أيوب بن العباس رحمه الله على الجبل)
- 75.....(جواب الى امام عمان)
- 76.....(تصحيح قول)
- 78.....(عمال هذا الامام)
- 80.....(خلافة الامام افلح بن عبد الوهاب رحمهما الله)
- 80.....(المحاربة الاولى لأبي عبيدة رحمه الله مع خلف)
- 81.....(المحاربة الثانية لأبي عبيدة رضي الله عنه مع خلف)
- 83.....(ولاية العباس بن أيوب على الجبل بعد ابي عبيدة رحمهما الله)
- 86.....(ليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد)
- 87.....(دهاء هذا الامام) (ممزوج)
- 88.....(أحوال الامام افلح مع الملوك)
- 89.....(بعض رسائل هذا الامام رحمه الله)
- 90.....(شعره)
- 94.....(خبر فرج النفوسي المعروف بنفات الخارج عن الطاعة)
- 94.....(وخبير العلامة سعد بن ابي يونس معه)
- 96.....(جواب الامام افلح رضي الله عنه الى المسلمين في شأن نفات)
- 96.....(الرسالة الثانية للامام افلح الى المسلمين في حق نفات)
- 98.....(الرسالة الثالثة للامام افلح رحمه الله ارسلها الى نفات)
- 98.....(هروب نفات الى المشرق واستنساخه ديوان الامام جابر بن زيد رحمه الله من مكتبة الخليفة ببغداد)
- 101.....(امتحان الشراة من المسلمين للامام افلح رحمه الله بتولية العلامة محكم القضاء)
- 102.....(النصيحة العامة من الامام افلح رحمه الله الى كل من كان تحت لوائه من المسلمين)
- 104.....(عمال هذا الامام رضي الله عنه)
- 105.....(ولاية العلامة ابي ذر أبان رحمه الله على جبل نفوسة)
- 105.....(وفاة هذا الامام وعدد مدته واولاده رحم الله الجميع)
- 106.....(خلافة الامام ابي بكر بن افلح رحمهما الله)
- 106.....(مصاهرة الامام ابي بكر لابن عرفة وما نشأ عنها من الفتن ممزوج)
- 107.....(رجوع ابي اليقظان من بغداد وتحسن احوال الامام بأعماله العالية ممزوج)
- 107.....(مذاكرة رجال الامامة مع الامام في شأن ابن عرفة وتنبيه الامام لذلك)
- 108.....(خبر قتل ابن عرفة ممزوج)
- 109.....(قيام أهل المدينة للأخذ بثار ابن عرفة وحربهم مع الامام ممزوج)
- 110.....(تجنب نفوسة وابي اليقظان لهذه الفتنة ممزوج)
- 110.....(حرب نفوسة وابي اليقظان مع أهل المدينة ممزوج)
- 112.....(خروج الامام واستيلاء ابن مسالة على المدينة)
- 112.....(خلافة الامام ابي اليقظان محمد بن افلح رحمهما الله)
- 113.....(طلب الامام للاعانة الحربية من جبل نفوسة)
- 114.....(رسالة الامام الى جميع رعيته ارشادا ونصحا)
- 115.....(اجتماع الأباضية والمعتزلة للمناظرة)
- 115.....(حكاية العلامة ابي عبيدة الاعرج مع الامام واخباره رحمهما الله)
- 116.....(شدة تعلق نفوسة بهذا الامام)
- 117.....(حكاية القاضي مع الامام وتركه القضاء)
- 118.....(ورع هذا الامام) (قال)
- 119.....(ولاية ابي منصور الياس النفوسي رحمه الله على جبل نفوسة وأخباره)
- 120.....(محاربة ابي منصور رحمه الله مع ابي العباس بن طولون صاحب مصر)

122	(جواب ابي المنصور الى ابن طولون).....
122	(حكاية سجن هذا الامام ببغداد في حياة والده).....
122	(خبر ابي اليقظان مع اخي السلطان المسجون معه).....
123	(عقد الخلافة لرفيق ابي اليقظان وأخباره معه بعد ذلك).....
124	(طلب الخليفة من ابي اليقظان الإقامة ببغداد)
124	(ولاته وعدد اولاده ومدته)
125	(خلافة الامام ابي حاتم يوسف بن محمد رحمه الله)
125	(سعي بعض المفسدين في المروق من طاعة الامام ونفيه اياه وما نشأ عنه)
127	(خروج الامام من المدينة)(قال).....
127	(محاصرة الامام للمدينة).....
127	(مبايعة أهل المدينة للعلامة يعقوب ابن افلح عم الامام).....
128	(حرب الامام مع عمه يعقوب)
128	(عقد صلح بين الامام وعمه)
129	(اجماع اهل المدينة مع عموم المسلمين على خلافة الامام وهروب يعقوب الى طرابلس).....
129	(دخول الامام ابي حاتم المدينة بالاجماع من المسلمين)(ممزوج).....
130	(خبر ابي منصور رحمه الله مع الطيب بن خلف).....
132	(ولاية العلامة أفلح بن العباس رحمهما الله على جبل نفوسة وواقعة (مانو).....
133	(واقعة أخرى لابن الأغلب مع نفوسة)
134	(احوال ارباب المذاهب بتيهت وخطب الجمعة في مدة هذا الامام).....
136	(خطبة التحكيم).....
136	(وفاة الامام وعدد مدته).....
137	(انقراض ملك بني رستم من تيهت واستيلاء الشيعة عليها).....
138	(خبر العلامة يعقوب بن افلح رحمه الله)
138	(بيان بعض من ولي تيهت بعد بني رستم).....
141	(رثاء مدينة تيهت لما خربت)

بسم الله الرحمن الرحيم

القسم الثاني من الكتاب

في انتقال الامامة من طرابلس الى مدينة تيهرت بالمغرب الاوسط ومبدأ ذلك واسبابه.

قد تقدم ان عبد الرحمن بن رستم لما ورد عليه امر الامام ابي الخطاب من طرابلس وهو عامل له بالقيروان جهز جيشا وصار به، ولما وصل (قابس) ادركه خبر وفاة الامام فتفرق عليه الجيش فقامت (قابس) على عاملها فعاد الي القيروان فوجدها قد قامت على وكيله ايضا و وجد عبد الرحمن ابن حبيب ثاراً بها كما مر مفصلاً. -في القسم الاول- ولما وجد الامر كذلك خرج مستخفيا قاصدا المغرب ولم يكن معه شيء الا ما خف من ماله وابنه عبد الوهاب ومملوكه وفرسه وما سارو غير قليل حتى ماتت الفرس فدفنوه كي لا يعلم بموته احد من حزب ابن حبيب فيطمع فيهم ويتبع اثرهم ولما تعب عبد الرحمن من السير لكبر سنه تناوب ابنه عبد الوهاب على حمله على ظهره مع المملوك وقال كل منهما للآخر ، اذا لحقنا من العدو ما دون خمسمائة فارس فلا تضع الشيخ -أي عبد الرحمن- وانا اكفيك مؤنة الدفاع، وظلوا سائرين قاصدين رحاب المغرب واكتافه¹ الواسعة المزدانة² برجال الاباضية اخوانه ومحبي سيرته حيث يعمه الامن ويحيط به العزة والشرف ويشمله الاجلال والاحترام الى ان بلغوا جبل يعرف بسو فجج -وهو على ما وصف به في التواريخ في غاية المنعة وصعوبة المرقى- فتحصن فيه وسمع به وجوه الاباضية وعلماءهم فقصده من كل النواحي حتى اجتمع عنده من طرابلس وجبل نفوسة من العلماء فقط ما يزيد على ستين من اكابر العلماء وأهل الفضل والراي ولما بلغ ابن الاشعث وهو في القيروان -كما مر- خبر هذا الاجتماع ، اشتد به الرعب وداخله الفزع ولم يطب له طعام ولا شراب ولا منام، حتى جهز جيشاً وصار به الى الجبل المذكور لخاصرته قبل ان يعظم ذلك المجتمع، ولما وصله نزل في سفحه³ وحفر خندقا على معسكره⁴ خوفا من هجوم عبد الرحمن ومن معه عليه واقام محاصرا للجبل زمناً مستعملا كل الحيل في دخوله والاستيلاء عليه، ولم يتمكن من ذلك، ولما سئم⁵ الإقامة وتوقع انقلاب الحال عليه وخاف سوء العاقبة ولا سيما بعد ان انتشر داء الحمى والجدرى في عسكره حتى هلك منهم خلق كثير استشار في الامر خواصه فأشار عليه بعض بالارتحال وبعض بالاقامة فأدبراي الاولين وارتحل قائلاً ان سوف جج لا يدخله الا دارع ومدجج⁶ ولم نقف على ما نستدل به على تعيين هذا الجبل واي الجبال هو لتبدل الاسماء بتبدل اللغات مع طول الزمن. فدخل القيروان وتحصن بها واقام عبد الرحمن هنالك حتى اجتمع عليه

¹ - أي جوانبه.

² - أي المتزينة.

³ - سفح الجبل اسفله.

⁴ - موضع اجتماع العساكر.

⁵ - أي مل بتشديد اللام.

⁶ - دارع كلابن وتامر وهو الرجل الذي عليه الدرع بكسر الدال وهي حلة من حديد تلبس حال الحرب.؛ تذكر وتؤنت. والمسدج بتشديد الجيم الاولى هو المتقلد بسلاحه الحديد القوي. قال الحموي في 448 (كانه من الديجوج وهو الظلام كانه يختفي في الظلام، كما يختفي في السلاح) أهـ ولعله بالعكس.

من اهل العلم والصلاح جم غفير وارتحل⁷ الى جهة تاهرت وهي اذ ذاك مدينة قديمة يسكنها وما حولها قبائل من البربر مثل هوار ، ومكناسة، ونفوسة، ولماية، ومزاتة وغيرهم وكلهم اباضية الا النادر ويعدون بمآت الالوف.

قال المؤرخ ابن خلدون: (وقتل ابو الخطاب وطار الخبر بذلك الى عبد الرحمن بن رستم بمكان امارته بالقيروان فاحتمل اهله و ولده ولحق ياباضية المغرب الاوسط من البربر الذين ذكرناهم ونزل على لماية لتقديم حلف⁸ بينه وبينهم وذكر مثل ذلك العلامة الحمي في تاريخه ايضا"ولما وصلهم استبشروا به لما يبلغهم من استقامته وعدله وعلمه ورعه ايام كان عاملا لابي الخطاب على القيروان والتفوا حوله واستظلوا بحمايته ووقفوا عند أوامره ونواهيته بدون بدون ان يدعي فيهم خلافة او يطلب بيعه او ملكا ثم اجتمعوا اليه⁹ وقالوا له لا بد لنا من امامة ظهور بعد تأسيس مدينة حصينة منيعة بعيدة عن مهاجمات العدو¹⁰ تكون مأوى ومقرا لامامتنا¹¹ وملجأ لنا في حربنا وسلمنا فأجابهم عبدالرحمن الى ذلك واستحسن رأيهم.

ابتداء تأسيس مدينة تيهرت

فاختاروا اذا ذاك من اهل العلم والخبرة بالارض جماعة ليرتادوا¹² مكانا جيد الهواء كثير المياه خصب الارض قابلا للعمارة مأمونا من العدو كما طلبوا فطافوا اقطار تلك الجهات الى ان عثروا على المكان الذى بنيت فيه وكان غابة ملتفة بالاشجار يسكنها انواع الوحوش قال العلامة الشماخي رضى الله عنه في تاريخه نقلا من تاريخ ابي زكرياء رحمهما الله ان بقية المسلمين ورؤساء العابدين وكبراء الزاهدين من جماعة المؤمنين اتفقوا على ان يتخيروا موضعا يبنون فيه مدينة تكون حرزا و حصنا للاسلام فأرسلوا

⁷ - الذي يظهر ان الذي صار فيه عبد الرحمن ومن معه من ذلك الجبل الى حد تاهرت كله عامر بالاباضية لا غير او لهم السيادة فيه والا لما امكن له الوصول بدون ان يعرض له عارض مع اشتهاى امره وشدة طلب العدو له، ولم نعلم السبب المرجح لنزاهته الى المغرب دون جبل نفوسة وما حوله العامر بالاباضية مع قربه من وقوتهم اللهم الا ان يكون ذلك الحلف الذي سيأتي ذكره عن ابن خلدون.

⁸ - (الحلف بالكسر العهد بين القوم والصدقة والصديق يحلف لصاحبه ان لا يغدر به)اهـ القاموس. ((فائدة)) قال والاحلاف قوم من ثقيف (بفتح التاء) وفي قريش ستة قبائل: عبد الدار، وكعب، وجهم (بضم ففتح)، وسهم، ومخزوم، وعدي، لانهم لما ارادت بنو عبد مناف اخذ ما في ايدي عبد الدار من الحجابة والسقاية (في المسجد الحرام) وابت عقد كل قوم على امرهم حلفا ((بكسر الحاء)) مؤكدا على ان لا يتخذوا فخرجت عبد مناف جفنة مملوءة طيباً فوضعها لاحلافهم وهم أسد، وزهرة، وتيم، عند الكعبة فغمسوا ايديهم فيها وتعاقدا، وتعاقدت بنو عبد الدار وحلفائهم حلفاً اخر مؤكدا فسموا الاحلاف وقيل لعمر رضى الله عنه احلافي (بياء النسب) لانه عدوي) اهـ ولعل مراد ابن خلدون بالحلف ها هنا مجرد الصداقة والا فلم نعثر في كلام المؤرخين على حصول معاهدة بين عبد الرحمن وقبيلة لماية او غيرها من القبائل قبل توجهه الى جهة تيهرت الا ان يكون ذلك ايام امارته بالقيروان ولم نطلع عليه والله أعلم.

⁹ -الظاهر ان هذا الاجتماع كان قبل ان يحصل تقديم ابي حاتم رحمه الله في جهات طرابلس كما يتبين بالنظر الى تاريخ تأسيس تاهرت وتاريخ ولايته على ما تقدم وما سيأتى .

¹⁰ -يريدون بذلك أن تكون في وسط مواطنهم ومعظم جموعهم وقوتهم ولا تكون قريبة من حدود مملكة قوية من ممالك غيرهم حتى لا يسهل هجوم العدو عليها كطرابلس فانما على البحر وقريبة من حدود مصر ولذلك لم يستقر لهم فيها قرار

¹¹ -اى الامامة التى يضمرون عقدها لعبد الرحمن او غيره في مستقبلهم اما ابو حاتم فلا ذكر له اذ ذاك ولم نقف على نص يوضح حال أباضية طرابلس والجبل وما يلى ذلك في الزمن الذى بين وفاة ابي الخطاب وامامة ابي حاتم رحمهما الله فانها مدة لا يمكن أن تخلو من عمل

مع ما هم عليه من القوة عددا وعدة وسنبحث على ذلك ان شاء الله

¹² - اى ليطلبوا فهو مضارع ارتاد وفي الحديث اذا بال احدكم فليتردد ليله اى فيطلب مكانا ليلا أو منحدرًا .

الرواد¹³ فطافوا اطراف تلك البلاد فاستحسنوا موضع تاهرت فاتفق رأي المسلمين على بناءها فجعلوها لاهلها خراجاً¹⁴ معلوماً يأخذونه من غلتها اهـ (وذلك بعد أن راودهم عبد الرحمن على البيع ولم يقبلوا كما سيأتي عن الحموي) وأمرؤا مناديا فنأدى بأعلى صوته قائلاً: (يا من بها من الوحوش والسباع إن اخرجوا وأرتحلوا فإننا نريد عمارتها ونأزلون بها ولكم آجل ثلاثة أيام - أو ما في معنى هذا الكلام - قال أبو زكريا: وذكروا أنهم رأوها تحمل أولادها في أفواهاها وهي خارجة من تلك الاشجار فرغبهم ذلك فيها وزادهم بصيرة في عمارتها أهـ¹⁵ .

ولم تم الآجل ولم يبق بها من تلك الوحوش شيء، أوقدوا شجرها نارا فأحرقته ولما خمدت النار وتمت تنقية الاشجار¹⁶ وصارت صالحة للعمارة قصدوا إلى اختيار محل ليؤسسوا فيه المسجد الجامع قبل كل شيء فانتخبوا أربعة أماكن ورموا القرعة عليها فجاءت على المكان الذي خصصوه لصلاقتهم أيام إقامتهم في تنقية الأشجار، فشرعوا في تأسيسه وأختطوها بيوتاً وقصوراً وأسواقاً وحمامات، ومساجد، فنادق¹⁷ يحيط بالكل سور¹⁸ محكم وتفننوا تدريجاً في عمارتها وتنظيمها حتى كانت عروس تلك الاقطاب وفخر

¹³ - جمع راند وهو الذي يرسل في طلب الكلاء كما في القاموس والمراد هنا المرسلون في طلب أرض على النعت المذكور.

¹⁴ - أي مقدار معين من المال يدفعه لأرباب الأرض أصحاب البيوت والأسواق والحمامات بقانون متفق عليه في كل شهر أو كل سنة وقد عرّف بعضهم الخراج فقال: الخراج والخرج (يفتح فسكون) بمعنى واحد وهو إن يؤدي اليك العبد خراجه أي غلته والرعية تؤدي الخراج إلى الولاة وأصله من قوله تعالى « أم تسألهم خراجاً » وقرئ جراجاً معناه إن تسألهم أجراً على ما جنت به فاجر ربك وثوابه خير. وأما الخراج الذي وظفه عمر بن الخطاب رضي الله عنه على السواد فأراضي الفئ فأن معناه الغلة ومنه قوله عليه السلام: الخراج بالضمان، قالوا ه غلة العبد يشتريه الرجل فيستغله زماناً ثم يعثر منه على عيب دلّسه البائع ولم يطلعه عليه فله رد العبد على البائع والرجوع عليه بجميع الثمن والغلة التي استغلها المشتري من العبد طيبة له لانه كان في ضمانه ولو هلك، هلك من ماله، وكان عمر رضي الله عنه أمر بمسح السواد ودفعه إلى الفلاحين الذين كانوا فيه على غلة كل سنة ولذلك يسمى خراجاً ثم قيل بعد ذلك قيل للبلاد التي فتحت صلحا و وظف ما صلحوا عليه على أرضهم خراجية، لان تلك الوظيفة اشبهت الخراج الذي لزم الفلاحين وهو الغلة لان جملة معنى الخراج الغلة وفي الحديث إن أبا طيبة لما حجج النبي صلى الله عليه وسلم أمر له بصاعين من طعام وكلم هله فوضعوا عنه من خراجه أي من غلته أهـ.

¹⁵ - ذكر بعض المؤرخين مثل هذه الحكاية في شأن الصحابة لما فتحوا افريقية وأرادوا تأسيس مدينة القيروان ولعل الامام عبد الرحمن أقتدى بهم في تأسيس تاهرت أيضاً ولم نجد من نسب له هذه الكرامة من مؤرخي غيرنا. أما عندنا ففي كل تاريخ والله أعلم.

¹⁶ - ذكر العلامة الشماخي والعلامة أبو زكريا رحمهم الله أنهم وضعوا في أصول تلك الاشجار حيساً (أي معجون ألتخذوه من تمر وأقط وسويق مخلوطين بسمن) فجاءت الخنازير في الليل (وكأنها موجودة بكثرة وتحب هذا المعجون جداً) لما شمت رائحته وصارت تحفر تحت تلك الاصول بخنا وراء ذلك الحيس حتى نزعته كلها، وبالتأمل يظهر أن هذا الأمر يحتاج إلى شيء كثير من السمن ولوازمه لما في المكان من كثرة الشجر، ثم نظر كيف يتأني للخنازير نزع تلك الأصول العظيمة ذات العروق الراسخة المنفرعة في باطن الأرض من أحقاب لا يعلمها الا خالقها التي يكل في قطعها الحديد الحاد. فالله أعلم كيف كان ذلك ولعل هناك أمر آخر سهل نزعها مع الخنازير وأهمله التاريخ أو جعلوا ذلك لما بقي بعد الحرق من أصول الاشجار الرقيقة لكثرتها وأما العظيمة فباشروا إزالتها بأنفسهم وعلى كل حال فلاحظ للنظر مع وجود الاثر إذ ما نقلوا رحمهم الله ذلك ودونوه الا عن يقين وصحة.

¹⁷ - الفنادق جمع فندق وهو لغة الخان أي محل التجارة وفي اصطلاح عصرنا يطلق غالباً على محل كبير ذي بيوت معدة لزول المسافرين به بالآجرة ويختلف باختلاف المدن والبلاد في معداته وترتيباته.

¹⁸ - بقي إلى الآن من هذا السور قطعة تدل على متانته وسيأتي في الأصل كلام عليه.

تلك الديار. وأصبحت كما وصفها المؤرخون من أممها عراق المغرب وأممها بلخ¹⁹ المغرب. وأممها قاعدة

¹⁹ - العراق، وبلخ: من البقاع التي كانت يضرب بها المثل في الحضارة والمدنية وال عمران بالشرق في صدر الاسلام خصوصاً في دولة بني العباس المعاصرة لدولة الرستميين. أما العراق فكائنة في مصب النهرين المباركين نهر دجلة ونهر الفرات ومن مدنه المشهورة مدينة بابل، وسيأتي زيادة كلاماً عليه، ولا نزيد الان تقريراً على ما ذكره الحموي حيث قال في صحيفة 360 من المجلد الثالث هكذا. والعراق أعدل أرض هواء وأصحها مزاجاً وماء فلذلك كان أهل العراق هم أهل العقول الصحيحة والآراء الراجحة والشهوات الخمودة والشمائل الظريفة والبراعة في كل صناعة. (لا تغفل أيها القاري فاننا ما سقنا هذا الكلام هنا الا لتشبيههم تيهرت بالعراق) مع اعتدال الاعضاء وأستواء الاخلاط وسمره اللون وهم الذين أنضجتهم الارحام فلم تخرجهم بين أشقر وأصهب وأبرص كالذي يعتري أرحام نساء الصقالبة من الشقرة ولم تتجاوز أرحام نسائهم في النضج إلى الاحراق كالزنج والنوبة والحبشة الذين حلكت لوهم ونن ريجهم وتفلغل شعرهم وفست آراؤهم وعقولهم فمن عداهم بين أحممر لم ينضج ومجاوز للقدر حتى خرج من الاعتدال قالوا وليس (بالعراق) مشات كمشاتي (الجبالي) ولا مصيف كمصيف (عمان) ولا صواعق كصواعق (نهامة) ولا دماميل كدماميل (الجزيرة) ولا جرب كجرب (الزنج) ولا طواعين كطواعين (الشام) ولا كطيحال (البحرين) ولا كحمى (خيبر) ولا كترلازل (سراف) ولا كحجرات (الاهواز) ولا كأفاعي (سجستان) وثعابين (مصر) إلى أن قال وإقليم بابل موضع التميمية من العقد وواسطة القلادة ومكان اللبنة من المرأة الحسناء واحة من البيضة والنقطة من البركار. قال عبيد الله المفتقر إلى رحمته وهذا الذي ذكرناه عنهم من أدل دليل على أن المراد بالعراق أرض بابل. الا تراه قد أفرد عنه بما خصه به وقال شاعر يذكر العراق

إلى الله أشكو عبرة قد أظلت ونفسا إذا ما عزها الشوق ذلت

تحن إلى أرض العراق ودونها تنائف لو تسري بها الريح ظلت

وأما بلخ فقد قال فيها وبلخ من أجل مدن خراسان واذكرها واكثرها خيراً وأوسعها غلة، تحمل غلتها إلى جميع خراسان وإلى خوارزم أهـ.

ثم نسب إليها جماعة كبيرة من العلماء والفضلاء وبها ذلك البناء الفخيم المسمى (بالنوبهار) وقد قال فيه أيضاً نقلاً عن ابن الأزرقي الكرمانى هكذا (كانت البرامكة أهل شرف على وجه الدهر ببلخ قبل ملوك الطوائف وكان دينهم قبل الاسلام عبادة الاوثان، فوصفت لهم مكة وحال الكعبة بها وما كانت قريش ومن والها من العرب يأتون إليها ويعظمونها فأخذوا بيت النوبهار مضاهية لبيت الله الحرام ونصبوا حوله الاصنام وزينوه بالددياج والحرير وعلقوا عليه الجواهر النفيسة. وتفسير النوبهار البهار الجديد لان (نو) الجديد وكانت سنتهم إذا بنوا بناء حسناً أو عقدوا باباً جديداً أو طاقاً شريفاً كلوه بالريحان ويتوجون ذلك بأول ريحان يطلع في ذلك الوقت، فلما بنوا ذلك البيت جعلوا عليه أول ما يظهر من الريحان وكان البهار فسمي نوبهار لذلك، وكانت الفرس تعظمه وتحج إليه وتقدم له وتلبسه أنواع الثياب وتنصب على أعلى قبته الاعلام وكانوا يسمون قبته الاستن (بضم الهمزة والتاء) وكانت مائة ذراع في مثلها وأرتفاعها فوق اثة ذراع بأروقة مستديرة حوله وكان حول البيت ثلاثمائة وستون مقصورة يسكنها خدامه قوامه وسدنته وكان على كل واحد من سكان تلك المقاصير خدمة يوم لا يعود إلى الخدمة حوالاً كاملاً. ويقال أن الريح ربما حملت الحرير من العلم الذي فوق القبة فنلقاه في ترمذ (بكسر التاء والميم) وبينهما اثنا عشر فرسخاً، وكانوا يسمون السادن الأكبر برمك لتشبيههم البيت بمكة يسمون سادنه بن مكة فكان كل من ولي منهم السدانة برمك وكان ملوك الهند والصين وكابل شاه وغيرهم من الملوك تدين بذلك الدين وتحج إلى هذا البيت وكانت سنتهم إذ هم وافوه أن يسجدوا للصنم الأكبر ويقبلوا يد برمك وجعلوا للبرمك ما حول النوبهار من الارضين سبعة فراسخ في مثلها وجميع أهل ذلك الرسطاق عبيد له يحكم فيهم بما يريد، وصيروا للبيت أوقافاً كثيرة وضياع عظيمة سواء ما يحمل إليه من الهدايا التي تتجاوز الحد وكل ذلك يصل إلى برمك الذي يكون عليه، فلم يزل يليه برمك بعد برمك إلى أن أفتتحت خراسان في أيام عثمان بن عفان وأنتهت السدانة إلى برمك أبي خالد بن برمك فسار إلى عثمان مع رهائن كانوا ضمنوا مالاً عن البلد، ثم أنه رغب في الإسلام فأسلم وسمي عبد الله ورجع إلى أهله وولده وبلده فأنكروا إسلامه وجعلوا بعض ولده مكانه برمك فكتب إليه - نيزك طرخان - أحد الملوك يعظم ما أتاه من الاسلام ويدعوه إلى الرجوع في دين آبائه فأجابته برمك إني انما دخلت في هذا الدين اختياراً له وعلمي بفضلته من غير رهبة ولم أكن لأرجع إلى دين بادي العوار مهنتك الاستار فغضب نيزك وزحف إلى برمك في جمع كثير فكتب إليه برمك قد عرفت

المغرب الاوسط. لما كان بها من الحضارة الاسلامية ورواج سوق المعارف التجارة الواسعة إذ كانت ترد إليها وتصدر منها أنواع البضائع إلى السودان وأقصى المغرب وبلاد الاندلس ومصر والشام والحجاز واليمن وبغداد وغير ذلك من البلاد وكان لها على البحر مراسي متعددة معروفة ترسي بها مراكبها ومدن عامرة ذات اسواق رائجة وأسوار منيعة وحصون مشددة وغير ذلك مما سيأتي في أقوال المؤرخين من أخواننا المالكية والحنفية حتى لا يخطر ببال القارئ إن ما قلناه وسنقله مجرد مبالغة منا أو تمويه لا سند له. وحتى يعلم ذلك الذي جهل الاباضية لقلة بضاعته في العلم وعدم اطلاعه حتى قال ما قال²⁰ انهم قد

حبي للسلامة وأني قد أستنجدت الملوك فأنجدوني فأصرف عني اعنة خيلك والا حملتني على لقائك فانصرف عنه ثم استغره وبيته فقتله وعشرة بنين له ولم يبق له سوى طفل وهو برمك أبو خالد فان أمه هربت به وكان صغيراً إلى بلاد القشمر من بلاد الهند فنشأ هناك وتعلم علم الطب والنجوم وأنواع من الحكمة وهو على دين آبائه ثم أن أهل بلده أصابهم طاعون ووباء فتشاموا بمفارقة دينهم ودخولهم في الاسلام فكتبوا إلى برمك حتى قدم عليهم فأجلسوه في مكان آبائه وتولى النوبهار ثم تزوج برمك بنت ملك الصغانيان فولدت له الحسن وبه كان يكنى وخالدا وعمرا وأختاً (لعله فيه هنا سقط وهو لفظ لهم) يقال لها أم خالد وسليمان بن برمك أمه امرأة من أهل بخارا وكان ابن برمك وأم القاسم من امرأة أخرى بخارية أيضاً. ولما فتح عبد الله بن عامر بن كرز خراسان أنفذ قيس بن الهيثم حتى قدم مدينة بلخ وقدم بين يديه عطاء بن السائب فدخل بلخ وخرب النوبهار وقال بعض الشعراء يذكر النوبهار

أوحش النوبهار من بعد جعفر ولقد كان بالبرامك يعمر

قل ليحيى أين الكهانة والسحر وأين النجوم عن قتل جعفر

أنسيت المقدار أم زاغت الشمس عن الوقت حين قمت تقدر

وقال أبو بكر الصولي حدثنا محمد بن الفضل المذاري (بفتح الميم) عن علي ابن محمد النوفلي قال كن برمك يعمر النوبهار ويقوم به وهو اسم لبنت النار الذي كان ببلخ يعظم قدره بذلك فصار أبوه خالد بن برمك بعده فقال أبو الهول الحميري يمدح الفضل بن الربيع ويهجو الفضل بن يحيى بن خالد البرمكي

فضلان ضمهما اسم وشتت الاختبار

آثار فضل الربيع مساجد ومنار

وفضل يحيى ببلخ آثار النوبهار

وما سواه إذا ما أوترت الآثار

بيت يوحده فيه ويعبد الجبار

وبيت شرك وكفر به تعظم نار

انتهى بحروفه.

²⁰ - مما قاله هذا القائل أن الاباضية شرذمة قليلة لا ذكر لهم ولا شأن لا قديما ولا حديثا فهم أحقر الفرق وأقلها لم تقم لهم قائمة ولا نسب إليهم ملك ولا فخر منذ وجدت الفرق وتعجب تعجبا زائداً (بناء على فكره هذا) لما علم بزيارتي إلى مكان تيهرت كما سيأتي وأستعظم ذلك مني ورأه من العبث وكان ذلك من أكبر الاسباب الداعية لي إلى إبراز فضائل هذه المدينة والبحث في صفحات التواريخ عنها بعد أن مضى عليها مالا يبعد عن ألف سنة وهي خراب، ولقد نبهنا إلى ما لم يكن خاطرا لنا بالبال فنشكره على ذلك ونتمثل به بقول الشاعر الحكيم

وإذا أراد الله نشر فضيلة طويت اتاح لها لسان حسود

لولا اشتعال النار فيما جاورت ما كان يعرف طيب نشر العود

فهو قد نصح من حيث غش وارشد من يث أضل فكان سبباً لإظهار المخبتات وإبراز انجوهرات، وسعى أن تكرر هو شيئا وهو خير لكم، ورب كلمة سوء من سيء قصد بها سوءا جرت منافع.

أخذوا دور ظهورهم ونفوذ كلمتهم في مقدمة الآخذين في عصر الاسلام وشباب العصر القريب من أصحاب مرشد الأنام خاتم الرسالة عليه السلام، وقد ذكر ابن خلدون المغربي المالكي تاريخ إنشائها فقال في صحيفة 112 من المجلد السادس من تاريخه، واجتمعت إليه (أي عبد الرحمن) طوائف البربر الاباضية من لماية ولواته ورجالة ونفزاوة فتول بها (أي بتاهرت) وأختطت مدينتها مائة واربعة واربعين اهـ. وهو موافق لما ذكره الشماخي في سيره²¹ وأبو زكرياء في تاريخه²² والدرجيني في طبقاته²³ والبرادي في جواهره²⁴ رحمهم الله، والله أعلم بالحقائق.

(ذكر أقوال المؤرخين من أفاضل الاشعرية في وصف مدينة تاهرت)

(مع بيان اسم الكتاب أو مؤلفه وعدد الصحيفة، غالباً فيما يكون مهماً تسهياً على من أراد تحقيق ذلك ومراجعته من الأصل)

قال العلامة أبو العباس الدمشقي في تاريخه المطبوع في الهند وقد رسمها بالنون غلطاً إذ ذكرها في باب النون أسم مدينتين متقابلتين بأقصى المغرب كثير في الاشجار والثمار والمياه اهـ.

وقال المؤرخ ابن واضح العباسي الشهير باليعقوبي من علماء الخمسين الأولى من المائة الثالثة للهجرة المعاصر لائمة بني رستم في تاريخه الطبوع في مدينة (ليدن) من بلاد الافرنج سنة 1760 عند ذكره مدن المغرب ما نصه: (والمدينة العظمى مدينة تاهرت جليلة المقدار عظيمة الامر تسمى عراق المغرب²⁵ بها

²¹ - السير تأليف جامع لمناقب كثيرين من علماء وائمة المذهب من المغاربة وبعض من مشاهير المشاركة مع بيان أسمائهم وتواريخهم غالباً. لا نظير له في بابها الا سير نفوسة الكبير الذي أكثر مؤلف هذا من النقل منه وهو من كتب المذهب المعتبرة المفقودة أما هذا فموجود مطبوع ومؤلفه العلامة الكامل الشيخ أحمد الشماخي بن سعيد بن الشيخ عبد الواحد صاحب المزار المشهور تحت قصبة ابن مادي بجبل بني يفرن من جبال نفوسة، توفي رحمه الله سنة 928 وقد ذكر العلامة الشيخ محمد بن زكرياء الباروني رحمه الله أن له فضائل ومناقب همة عزم على جمعها كأنه لم يتيسر له ذلك أو فقد المجموع إذ لم يسمع بوجوده أحد، والله أعلم. والشماخي نسبة إلى شياخ وسيأتي الكلام عليه إن شاء الله.

²² - سير أبي زكرياء تاريخ متوسط فيه كثير مما لم يكن في سير الشماخي وإن كان الثاني أشمل من الأول. ألفه الامام النائر الناظم التقي الشيخ أبو زكرياء يحيى من ذرية الشيخ محمد بن بكر رحمهم الله.

²³ - الطبقات تأليف جليل مشهور يتكلم في أئمة المذهب وعلمائه المشهورين بذكر فضائلهم وبعض أخبارهم الا أنه غير جامع لكل وقد وقفت عليه وأنا صغير لا أعرف قدره، فلم أعرف منه شيئاً ولتعتذر الحصول عليه حال تحرير هذا فإني كثير مما يليق بما نحن بصدد مما يكون نقله منه، مؤلفه العلامة النحرير الشهير بطول الباع في الانشاء والتحرير، من كانت له اليد الطولى في كل الفنون الشيخ أحمد ابن العلامة الكامل الشيخ سعيد الدرجيني رحمهم الله وسيأتي الكلام عليه.

²⁴ - الجواهر كتاب صغير الحجم عظيم الفائدة تم بعض ما أمثله صاحب الطبقات من الاخبار وما هو الا كاسمه العالي وأفخر فله اسم طابق مسماه رحم الله مؤلفه الحق الجليل المتكلم أبا القاسم البرادي المشهور بأبي الفضل.

²⁵ - بشهادة هذا المؤرخ الحق المتقدم على كثيرين من أرباب التاريخ وشهادة من سيأتي كلامهم أيضاً من غيره يعلم القارئ حيف بعض متأخري المؤرخين من أهل مدينة فاس إذ ذكر أن فاس تعرف بعراق المغرب في سابق الزمان ولم يقل هذا أحد من المتقدمين من أهل التاريخ فمن أين جاءه وما هو الا جاحد فضل (تيهت) غاصب حقها وان كنا لا ننكر فضل فاس وشهرتها العظيمة فما أهون التساهل على مثل هذا المؤرخ من المؤرخين في تبديل وتغيير الاخبار تبعاً لأغراضهم وكأنه لم يفكر في آتيان زمن كهذا تنكشف فيه السرائر وتضح

أخلاق²⁶ من الناس تغلب عليها قوماً من الفرس يقال لهم بنو محمد بن أفلح بن عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم الفارسي، وكان عبد الرحمن يتولى افريقية وسار إلى تاهرت فصاروا اباضية ورأس الاباضية فهم رؤوساء اباضية المغرب ويتصلوا بتاهرت بلد عظيم²⁷ ينسب إلى تاهرت في طاعة محمد بن أفلح بن عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم (وسياقي بيان أسم البلاد والمدن كلها) والحصن الذي على ساحل البحر الاعظم²⁸ ترسي به مراكب تاهرت يقال له مرسى فروخ اهـ.

الحفايا ويستوي الماضي والحاضر في الوضوح بقيام الات الطبع لظهار كل مكون من نفيس الكتب العتيقة ذات الشأن والتحقيق في التاريخ التي كانت تحت حجب الخفاء والظن بما على حد قول الامام أبي نصر النفوسي رحمه الله في شأن اليوم الآخر سينكشف السر المغطى وتنجلي غيابات هذا الشك من واضح الخبر ولو تأمل هذا المؤرخ في كلام الشاعر القائل:

ومهما تكن عند أمريء من خليقة وان خالها تخفى عن الناس تعلم
وقولهم إن في الزوايا خبايا لانصف في كلامه وأعطى كل ذي حق حقه ولو في ما هو بين الجمادات وبين العاмер والدامر بقضاء الله، ولعله على رأي القائلين (الدنيا مع الواقف).

²⁶ - الأخلاق جمع خلط (بكسر الخاء) اراد إن من فيها من الناس أصناف شتى مختلطون من بربر وعرب وترك وعجم وسودان وفرنجة ويهود ومشاركة ومغاربة شأن أغلب المدن الكبيرة الجامعة ذات الحضارة والامن والعدل.

²⁷ - كل من يدرك معنى هذه الكلمة وما تقدم وما سيأتي من ألفاظ التعظيم والتفخيم لا ريب يستصغر في جانب تاهرت ما سذكروه من بعض ما ينسب إليها من البلاد ويعلم انه قليل من كثير لم نعلمه وربما كان مخزون في بطون الدفاتر.

²⁸ - ليس المراد البحر المحيط بالقارة الافريقية المشهور بالبحر الاعظم الذي فيه الجزائر الخالدات (وكانت عامرة في قديم الزمان بعض لحكماء المنجمين اما الان فقد أفسدها البحر على مايقال) ويعرف قديما ببحر الظلمات وبالاقيانوس والان بالبحر الاطلانطيقي لانه بعيد عن تيهرت ولم يمتد حكمها اليه لما بينهما من مملكة الادارسة بفاس وغيرها، بل المراد بحرنا هذا الذي نحن على شاطئه المسمى بالبحر الرومي وبالبحر الابيض المتوسط الممتد من البحر المحيط بواسطة بوغاز جبل طارق الكائن بالقرب من شبه جزيرة الاندلس التي بلغت في صدر الاسلام الدرجة القصوى في الحضارة والعلم والان بيد الدولة الاسبانية ومن مدينة طنجة ثغر مملكة الدولة المراكيشية إلى إن ينتهي بأرض الشام وعلى شاطئه هنالك من المدن المشهورة (مدينة بيروت) ومنها ابتداء خط سكة الحديد الحجازية المنشأة بمساعي وعناية أعظم سلاطين الاسلام الان السلطان عبد الحميد الثاني احد ملوك ال عثمان ايده الله بنصره وحفظ ملكهم ملجاء للمسلمين وحصنا للحرمين الشريفين و (مدينة طرابلس) و(مدينة حلب) ويتصل بواسطة بوغاز الاستانة العلية (القسطنطينية) بالبحر الاسود وبقال السويس (الفتحة الجديدة) بالبحر الاحمر ويتسلسل على جانيه ممالك دول كبيرة وامارات متمتزة ومحتلة صغيرة، فعلى جانبه الجنوبي مبتداً من الغرب (حكومة فاس) وهي دولة اسلامية يلقب حاكمها بالسلطان مفقودة منها القوة الحربية الجديدة برأ وبحراً وتتنازعها عوامل الافرنج صباحا ومساء حفظها الله من الوقوع في شبكته، ثم (الجزائر) وهي ولاية محتلة لفرانسا داخلية في ادارتها من حدود سنة 1830 أي 1248 هجرية وفي جنوبها (مدينة وارجلان) و(مدن بني ميزاب) الاباضية الحافلة بأقامة شعائر الدين كما يجب، ثم (تونس) وهي ايلالة متمتزة اسلامية يلقب حاكمها بالباي تحت حماية فرانسا ويتبعها (جزيرة جربة) العامرة بالاباضية ومعهم المالكية، ثم (طرابلس الغرب) وهي ولاية عثمانية اسلامية لا يوجد بها من الاجانب (الافرنج) احد الا في المدينة نفسها وفي بعض موانئها ولاهلها مزيد طاعة وشدة تعلق بالدولة العلية العثمانية وبجنوبها على 3 مراحل من البحر جبال نفوسة الاباضية المشهورة العامرة بهم ومعهم المالكية في مواخاة وملامحة، ثم (مصر) وهي حكومة متمتزة عثمانية اسلامية يلقب حاكمها بالخدوي محتلة بدولة الانكليز ولاهلها ارتباط بالدولة العثمانية لا تحل عراه، وعلى جانبه الشمالي مبتدا من الغرب ايضا دولة اسبانيا ثم دولة فرنسا ثم دولة ايطاليا ثم اليونان وغيرها ثم (الدولة الاسلامية العثمانية) ناشرة لواء الدين محامية حمى الاسلام والمسلمين ايدها الله بنصره المبين ومقر سلطنتها (القسطنطينية) المسمى بدار الخلافة ودار السعادة والاستانة العلية واستانبول، وهذا باب يطول شرحه وليس هذا محله.

ووصف المؤرخ الادريسي المغربي في تاريخه هذا المرسى فقال: (وهو مرى حسن وعليه قرية عامرة. وذكره الملك المؤيد كما سيأتي والذي يشف من كلام هذا الفاضل ابن واضح إن له بتاهرت شغفاً وتعلقاً زائدين اذ كرر ذكرها في كتابه دون غيرها فقال في صحيفة 149 مستطردا الكلام عليه هكذا.

حدثني ابو معبد عبد الرحمن بن محمد بن ميمون بن عبد الوهاب ابن عبد الرحمن بن رستم التاهرتي قال: (تاهرت) مدينة كبيرة اهلة بين جبال واودية ليس لها فضاء بينها وبين البحر المالح مسيرة ثلاثة مراحل في مستوى من الارض وفي بعضها سباح وواد يقال له وادي شلف²⁹ وعليه قرى وعمارة يفيض كما يفيض نيل مصر يزرع عليه القسبر والكتان والسمسم وغير ذلك من الحبوب ويصير إلى جبل يقال له (انقب) ثم يخرج إلى بلد نفرة ثم يصير إلى البحر المالح، وشرب اهل مدينة تاهرت من أنهار وعيون يأتي بعضها من صحراء وبعضها من جبل قلبي يقال له جزول لم يجذب زع ذلك لبلد قط (لكثرة مياهها مطاره) الا أن يصيبه ريح او برد (فهو بلد خصب وخير دائم) وهو متصل بلسوس ويسميه اهل السوس درن ويسمى بتاهرت جزول ويسمى بالزاب اوراس اهـ فليتأمل المنصف في كلام هذا الخقق فانه من اصح ما حرره المؤرخون في هذا الباب لتقدمه على اكثرهم في الزمن اذ كان حاضر البنى رستم فهو لم يكتب الا ما شاهده او نقله عن ثقة أمين . وقال ابو عبد الله الادريسي الشريف في تاريخه المطبوع ببلاد الافرنج في صحيفة 87 واصفاً (تاهرت) القديمة التي أحسن تجديدها وأتقن تمدنها الاسلامي ميمون بن عبد الوهاب اذ كان عاملا لوالده عليها حتى صارت تنسب اليه دون غيره من الرستميين مت نصه .

(ومدينة تاهرت) كانت فيما سلف من الزمان مدينتين كبيرتين احدهما قديمة والاخرى محدثة والقديمة من هاتين المدينتين ذات سور وهى على قمة جبل قليل العلو وبها ناس وجمل من البربر لهم تجارات وبضائع واسواق عامرة وبها مزارع وضياح³⁰ جهة وبها من نتاج الخيل والبراذين كل حسن واما البقر والغنم فكثير بها جدا وكذا السمن والعسل وسائر غلاتها مباركة وبمدينة (تاهرت) مياه متدفقة وعيون جارية تدخل اكثر ديارهم ويتصرفون فيها³¹ ولهم على هذه المياه بساتين واشجار تحمل ضروبا من الفاكهة الحسنة وبالجملة فهى بقعة حسنة انتهى .

²⁹ سيأتي الكلام على شلف.

30 - الضياح جمع ضيعة وهى على ما في القاموس العقار والارض المغلة وما يكون منها عطية لبعض الناس من طرف الملوك يسمى قطعة كما كان يفعل بعض بنى امية وبنى العباس اذ كانوا لا شركاء لهم في بيوت اموال المسلمين يتصرفون فيها على حسب اهوائهم فيعطون الاموال الطائلة لشاعر مدحهم بقصيدة او بيت ولنديم اطربهم في مسامرتهم بحكاية غريبة او قصة مضحكة وليس ذلك مما يفتخر به الاسلام والدين اذا فقد العدل وقد عرفها بعضهم فقال واما القطيعة فلها معنيان احدهما ان يعمد الامام الجائر الامر والطاعة الى قطعة من الارض يفرزها عما يجاورها ويهبها لمن يرى ليعمرها وينتفع بها اما أن يجعلها منازل يسكنها ويسكنها من يشاء واما ان يجعلها مزدراعا ينتفع بما يحصل من غلتها ولا خراج عليه فيها وربما جعل على مزدرعها خراج وهذه حال قطائع المنصور وولده بعده ببغداد في محالها فمن ذلك قطيعة الربيع وقطيعة ام جعفر وقطيعة فلان وقد ذكرت في مواضعها من الكتاب واما القطيعة الاخرى فهى ان يقطع الساطان من يشاء من قواده وغيرهم القرى والنواحي ويقطع عليهم عنها شيئا معلوما يؤدونه في كل عام قل او كثير توفر محصوها او تزر لا مدخل للسلطان معه في اكثر من ذلك اهـ

31 - لم نتحقق كيف كان التصرف في هذه المياه وادخالها البيوت للانتفاع بها والغالب انه كان على طريقة لا تبعد عن الطريقة الموجودة الان في المدن المتمدنة وان خالفتها في الكيفية اذ لا توجد غالبا في لك الوقت انابيب (مواسير) من الحديد كالموجودة الان وربما كانت من الفخار المطلق ولا يقال انها كانت تجرى في الشوارع والأزقة هكذا بدون انتظام لان مدنيته وروقيها لا يسمحان بذلك على ان

وقد نقل هذا الشيخ مقديش السفافسي في تاريخه المطبوع في تونس ببعض تصرف وان لم ينسبه اليه فلا لزوم لنقله وكلما ذكرها ابن خلدون وان كان غير منتصف في جانب الاباضية³² عبر عنها غالبا بقاعدة³³ المغرب فمن ذلك قوله في صحيفة 39 من المجلد الخامس وفتح ابو القاسم (الشيعي سنة 315) بلد مزاتة ومطماطة وهوارة وسائر الاباضية والصفرية ونواحي (تاهرت) قاعدة المغرب الاوسط اهـ وقال السلطان الملك المؤيد في تقويمه المطبوع ببافيس سنة 1840 بصحيفة 124 نقلا عن العزيزي المغربي (تاهرت القديمة) وهي تاهرت عبد الخالق وبينها وبين تاهرت الجديدة مرحلة .

وهي مدينة جلييلة وكانت تسمى قديما عراق المغرب ولها من اعمالها مرسى على البحر يقال له مرسى فروخ ومدينة (تاهرت) الاولى على جبل متوسط وبها منبر وكذلك المحدثه بها منبر³⁴ وهي اعظم من القديمة ولاهلها مياه تحرق دورهم قال ابن سعيد وكان لتيهرت في المملكة الرسومية صيت عظيم وبها كان كرسى ملك الاباضية اهـ ثم رسم لها جدولاً ولا كغيرها بين فيه طولها وعرضها³⁵ واقليمها هكذا

			عرض		طول				
العرفى	الحقيقى	الاقليم	دقائق	درج	دقائق	درج	المنقول	الاسماء	عدد

موقعها فيه بعض ارتفاع حسب التخمين عن العين الموجودة الان المسماة بعين السلطان فبدون صنعة هندسية لا يمكن توزيعه فيها وقد كان بيت بنى رستم مشهورا بالضلوع في العلوم الرياضية فلا يصعب عليهم ذلك وليست هذه الكيفية موجودة ذلك الوقت في تيهرت فقط بل توجد في زواغة مدينة نفوسة سابقا في جهات طرابلس على البحر آثار تدل على انها كانت كذلك ايضا اذ يوجد فيها مجرى نهر كبير آت من ناحية جبال نفوسة الشرقية اخترق اراضى واودية كثيرة حسب ما تدل عليه بعض القطع الموجودة منه الان وهو محصص بكيفية محكمة ذكر الذين رأوا بعض قطع منه انه يشبه مجرى عين زبيدة الموجودة بجهة مكة المكرمة وعلى كل حال فهو عمل دال على القوة والحضارة النامية والله اعلم

32- عدم انصافه هو جحودة او اهماله ذكر ما كان لهم من الاخبار الحسنة وما كان للملكهم الذى شهد به المؤرخون من الصيت في تاريخه الطويل العريض الممدود في مقدمة التواريخ الاسلامية فهو اولى بان يوجد فيه ما ذكره غيره من المؤرخين عن الاباضية ولا نظن به الجهل بأخبارهم لانه ممن نشهد له كما شهد له غيرنا بسعة الاطلاع وكثرة النقل مع انه مغربي على انه قد يشير احيانا اليهم بعض اشارات بدون الاطلاع وكثرة النقل مع انه مغربي على ان قد يشير احيانا اليهم بعض اشارات بدون بسط في الكلام فاهماله اخبارهم وذكره بعضها مفرقا بحيث يصعب جمعها منه لا بد وان يكون الامر في باله يعلمه الله ولعل له عذرا فلا لوم عليه والله اعلم

33 - قاعدة المملكة او الاقليم هي مدينته العظيمة التي يكون فيها كرسى الملك .

34- اراد بالمنبر المسجد الجامع الذى يقيم فيه الامام (الخليفة) او وكيله الجمعة وأما ماسواه من المساجد ففيها كثير كما نص عليها ابن الصغير

35- (طول البلد) هو بعده عن منتهى العمارة من جهة الغرب وهو من الفاظ المنجمين مستنبط من آراء اليونانيين قال الحموى الا ان في هذه النهاية بينهم اختلافا فان بعضهم يبتدىء بالطول من ساحل بحر اوقيانوس الغربي وهو البحر المحيط وبعضهم يبتدىء به من سمت الجزائر الواغلة في البحر المحيط قريبا من مائتي فرسخ تسمى جزائر السعادات والجزائر الخالدات ولهذا ربما يوجد للبلد الواحد في الكتب نوعان من الطول بينهما عشر درج فيحتاج في تمييز ذلك الى فطنة ودربة هذا كله عن ابي الربحان اهـ واما (عرض البلد) فهو بعده عن خط الاستواء نحو الشمال قال الحموى لان البلد والعمارة في هذه الناحية وتحاذيه قوس عظيمة شبيهة به واقفة بين سمت الرأس وبين معدل النهار ويساويه ارتفاع القطب الشمالى فلذلك يعبر به عنه والمخطاط الجنوبي وان ساواه ايضا فانه خفى لا يشعر به وهذا كلام صاحب التفهيم اهـ

						عنهم		
من الغرب الاووسط	من الثالث	* ن	كط لح	ل * ك	كه ك	اطوال بعضهم	تاهرت	19

من اللباب (تاهرت) بفتح التاء المشناه من فوق والـف وهاء وسكون الراء المهملة وفي آخرها تاء ثانية وفي خط ابن سعيد عوض الالف ياء مشناه من تحت وهو الاصح عندى لان ابن سعيد مغربي فاضل ثم قال عن ابن حوقل وتيهـرت مدينة كبيرة خصبة كثيرة الزرع وقد قيل ان كوره تيهـرت من افريقية وهي غربي سطيف³⁶ وهي كانت قاعدة الغرب الاوسط وكان بما مقام بنى رستم ملوك المغرب الاوسط حتى انقضت دولتهم بدولة الخلفاء الفاطميين الذين صاروا ملوك مصر³⁷ وقال في كتاب الاطوال تاهرت العليا طولها وعرضها كما ذكر ثم قال تاهرت السفلى طولها (كو) وعرضها (كط) فدل على ان هناك مكانا آخر يسمى تاهرت كما نقلناه عن العزيزي في الهامش وقال في القانون (وتاهرت) السفلى طولها (يط ن) وعرضها (لديه) قال الادريسي وتيهـرت كانت فيما سلف مدينتين كبيرتين والقديمة على جبل ليس بالعالى ولها سوق اهـ كلام المؤيد وقد نقله برمته صاحب اوضح المسالك فلا حاجة الى نقله . قال صاحب الاستبصار المؤلف سنة 587 المطبوع بالمطبعة الاوسترياقية في مدينة (وين) من بلاد الافرنج سنة 1852 بصحيفة 66 (مدينة تاهرت) وهي مدينة مشهورة قديمة كبيرة عليها سور صخر (أى حجر) ولها قصبة منيعة تسمى المعصومة³⁸ وهي في سفح جبل يسمى قرقل وهي على نهر يأتيها من ناحية المغرب يسمى مينة ولها نهر آخر يجري من عيون تجتمع يسمى تانس³⁹ منه تشرب ارضها وبساتينها وكان لها بساتين كثيرة فيها جميع الثمار وفيها سفرجل يفوق سفرجل جميع البلاد حسنا ومطعما ورائحة وبلد تاهرت شديدة شديدة البرد كثيرة الغيوم والثلج اهـ وقد ذكر ابيات ابن حماد وحكاية السودان وحكاية الحاج وسيأتي كل ذلك في كلام غيره قريبا ان شاء الله .

وأما ابو اسحاق الفارسي المعروف بالكرخي من علماء صدر المائة الرابعة للهجرة فانه اعتبر (تاهرت) قسما عظيما عند تقسيمه المغرب في تاريخه المأخوذ من تاب صور الاقاليم للبلخي المطبوع بمدينة (ليدن) الافرنجية سنة 1870 وهذا نص كلامه بالحرف الواحد قال واما المغرب فهو نصفان يمتدان على بحر الروم نصف من شرقيه ونصف من غريبه فأما الشرقي فهو برقة وافريقية (وتاهرت) وطنجة والسوس وزويلة⁴⁰ وما في اضعاف هذه الاقاليم

36- مدينة من عمل الجزائر مشهورة عامرة بها من الاباضية بنى ميزاب جماعة معتبرة لهم بأنواع التجارة معرفة تامة وفيهم رجال محترمون كما في غيرها من المدن

37- يعنى بهم الشيعة الذين كان ملكهم بالمغرب وامتد الى مصر وهم الذين انشأوا الجامع الازهر المشهور في اقطار الارض بعلمه وبظهورهم انقضت دول الغرب كلها كما سيأتى ان شاء الله

38- في هذا الاسم ما يدل على القوة التي كانت بهذه المدينة وقصبتها فان العصمة لغة المنعة فقد طابق اسمها وصفها .

39- في بعض التواريخ بالنون كما هنا وفي بعضها بالتاء

40- اراد زويلة الغرب الاقصى كما هو واضح لا (زويلة) القريبة من (ودان) في قبلة طرابلس العامره في صدر الاسلام بالإباضية كما

بين في محله

واما الغربي فهو الاندلس اهـ (فيعلم من كلامه هذا أن في عصره من أشهر ما كان من المدن العظيمة بالمغرب (مدينة تاهرت) اذ لم يذكر في التقسيم فاس ولا الجزائر ولا مراكش ولا عنابة ولا غيرها من المدن الكبيرة في هذا العصر وان ذكر بعضها في أثناء سرده البلاد ثم قال وأما ناكورة وحزيرة بنى مزغنا في مدن وقرى فقريبة من (تاهرت) الاعلى ومدينة كورة⁴¹ (تاهرت) اسمها تاهرت وهى مدينة كبيرة خصبة واسعة البرية والزروع والمياه وبها الاباضية وهو الغالبون عليها وسجلماصة⁴² مدينة وسطية من حد (تاهرت) الا انها منقطعة لا يسلك اليها الا فى القفار والرمال الى ان قال ويقال ان كورة (تاهرت) باسرها من افريقية الا انها مفردة بالاسم والعمل فى الدواوين (وقال فى صحيفة 45) وكان ملوك افريقية وبرقة اولاد الأغلب وملوك طنجة اولاد ادريس وبينهم وبين افريقية (تاهرت) الشراة (الاباضية) وهم الغالبون عليها اهـ باختصار قليل . وقال ابو بكر القزوينى فى تاريخه المطبوع ببلاد الافرنج بصحيفة 113 (تاهرت) اسم مدينتين متقابلتين بأقصى المغرب يقال لاحدهما (تاهرت) القديم وللأخرى الحديث وهما كثيرتا الاشجار وافرثا الثمار سفرجلهما يفوق سفرجل الآفاق طعما وحسنا وبهما كثرة الامطار والانداء والضباب وشدة البرد قلما ترى الشمس بها اهـ وذكر ايضا حكاية السودان الآتية وأما المؤرخ ابو عبد الله ياقوت الحموى البغدادى صاحب المعجم المطبوع ببلاد الافرنج فانه اطنب فيها الكلام ووضح ما يقتضيه المقام وأجاد فى ذلك وان كان فيه بعض تكرار لما تقدم اذ قال فى صحيفة 813 من المجلد الاول .

(تاهرت) بفتح وسكون الراء وتاء فوقها نقطتان اسم لمدينتين متقابلتين بأقصى المغرب يقال لاحدهما (تاهرت) القديمة وللأخرى تاهرت الحديثة بينهما وبين مدينة المسيلة⁴³ ست مراحل وهى بين تلمسان وقلعة بنى حماد وهى كثيرة الانداء والضباب والامطار حتى ان الشمس بما قل أن ترى ودخلها اعرابي من أهل اليمن يقال له ابو هلال ثم خرج الى أرض السودان (مع ركب التجار) فأتى عليه يوم له وهيج وحر شديد وسموم فى تلك الرمال فنظر الى الشمس مضحية⁴⁴ راكدة على قمم الرؤس وقد صهرت الناس فقال مشيرا الى الشمس اما والله لئن عززت فى هذا المكان

41- فاس هى قاعدة ملك الدولة المراكشية الان وهى من اشهر وأعظم مدن المغرب الاقصى فى هذا العصر وقد بناها ادريس بن اريس بعد (تيهت) بنحو خمسين سنة اى عام 192 وفى سنة 245 خصصت فاطمة بنت محمد الفهرى الهوارى القيروانى جانباً من المال وكانت غنية وبنت به مسجد القرويين المشهور بفاس ولعلها كانت اباضية لان هواراة اباضية وفى سنة 345 اختط احمد بن سعيد اليفرنى صومعتها (وهو اما صفرى أو اباضى) ذكر ذلك ابن خلدون فى 15 من المجلد ومن مدنها الشهيرة طنجة على البحر وأما مراكش فقد اختطها يوسف بن تاشفين سنة 454 وذلك بعد خراب تيهت بمدة والسلطان يسكن مدة بفاس ومدة بمراك كما يفعل خديوي مصر بينها وبين اسكندرية وأما الجزائر فسيأتى الكلام عليها وأما عنابة ويقال لها (بونة) من قديم كما هو عند الافرنج الآن فمدينة مشهورة قديمة وفيها كما فى الجزائر ومدنها كاة من تجار الاباضية بنى ميزاب رجال هم اليد الطولى فى ضروب التجارة أولو شهامة واتحاد فى الرأى الكورة اسم لكل صقع اى ناحية تشتمل على عدة قرى ولها قصبة اى مدينة ينسب ذلك الصقع اليها كما هنا

42- سيأتى الكلام على سجلماصة مفصلاً لانها من مواطن الاباضية قديماً

43- اختطت المسيلة على قول ابن خلدون فى 82 من الجزء 4 سنة 315 بعد انقراض دولة بنى رستم من تيهت بقليل وذكر الحموى انها كانت تسمى الخمدية اختطها ابو القاسم محمد بن المهدي الشيعى وهو ولى عهد ابيه وأما (قلعة بنى حماد) فمدينة منيعة جدا اختطها حماد بن محمد من آل زيرى بجبل كتامة المعروف بجبل عجيسة سنة 398 على قول ابن خلدون ايضا فى 171 من الجزء 6

44- أى كائنة فى وقت الضحاء وهو عند ارتفاع النهار الاعلى كما قاله المتار ولذلك وصفها بقولة راكدة أى ساكنة وذلك لأن الشمس فى وقت الزوال تظهر للناس غير متحركة أو بطيئة السير بخلاف ما اذا كانت صاعدة فى شروقها أو نازلة فى غروبها فانها تظهر سريعة السير والحال ان سيرها فى الحالات الثلاث واحد وليس هناك صعود ولا هبوط ولا قوف فى الواقع وانما ذلك فى الظاهر فقط

لطالما رأيتك ذليلة بتاهرت وأنشد (ما خلق الرحمن من طرفة أشهى من الشمس بتاهرت) وذكر صاحب جغرافيا أن (تاهرت) في الاقليم الرابع وأن عرضها ثمان وثلاثون درجة وهى مدينة جلييلة وكانت تسمى قديما عراق المغرب ولم تكن في طاعة صاحب افريقية ولا بلغت عساكر المسودة اليها⁴⁵ قط ولا دخلت في سلطان بنى الاغلب وانما كان آخر ما في طاعتهم مدن الزاب⁴⁶ وقال ابو عبيد (مدينة تاهرت) مسورة لها اربعة ابواب باب الصفا وباب المنازل وباب الاندلس وباب المطاحن⁴⁷ وهى في سفح جبل يقال له جزول لها قصبة مشرفة على السوق تسمى المعصومة وهى على نهر يأتيها من جهة القبلة يسمى مينة وهو في قبلتها ونهر آخر يجرى من عيون تجتمع تسمى تاتس (بالضم) ومنه شرب أهلها وارضها وهو في شرقيها وفيها جميع الثمار وسفرجلها يفوق سفرجل الآفاق حسنا وطعما وهى شديدة البرد كثيرة الغيوم والثلج قال بكر بن حماد ابو عبد الرحمن وكان بتاهرت من حفاظ الحديث وثقات اخذين المأمونين سمع بالمشرق ابن مسدد وعمر بن مرزوق وبشر بن حجر وبافريقية ابن سحنون وغيرهم وسكن تاهرت وبها توفي وهو القائل

(ما أخشن البرد وريعانه وأطرف الشمس بتاهرت)

(تبدو من الغيم اذا ما بدت كأنها تنشر من تحت)

(نفرح بالشمس اذا ما بدت كفرح الذمي بالسبت)

(وسياتى زيادة كلام عليه في باب العلماء المنسوبين الى تاهرت)

بالنسبة اليها بل بالنظر الى سكان الارض كافة يصدق عليها في كل دقيقة مثلا انها مشرقة ومغربة وزائلة وهذا امر واضح وقوله صهرت معناه اذابت وذلك لشدة حرارتها ذلك الوقت ومنه قوله تعالى يصهر به مافى بطونهم اى يذاب والله اعلم .

45- لفظ المسودة مذكور بكثرة في سير السماخي رحمه الله وطالما سألت عنه من قبل طلبة عصرنا ولم أجد من يشرح لى معناه وغاية ما يقولونه انه اسم لقبيلة كانت في ذلك الوقت وفاتنى ان أسأل عنه شيخي او والدى حفظهما الله ولتعلق خاطرى به لما أراه لهم فيه من الوقائع الدالة على قوتهم لم أقنع بأنهم قبيلة فقط ولا زلت ابحث حتى وقفت على تفسيره بنى العباس في تاريخ ابن مسكويه في أماكن متعددة منها قوله لما رأى المأمون انكار بنى العباس وغيرهم عليه (وهو منهم) ببغداد حتى اخرجوا (عامله) الحسن بن سهل منها كانه اراد معاكستهم باخراج الخلافة منهم فأصدر اوامره سنة 201 في رمضان بليس الثياب الخضراء بدل الثياب السود التى كانت من شعارهم وبها سموا بالمسودة وأعلن بأنه جعل على بن موسى بن جعفر من ذرية على ولى عهده اهـ المراد منه

46- بهذا يعلم ان ما بين الزاب وبين فاس وسجلماسة كله داخل في دائرة تيهرت وما فيه من المدن والقرى كله تابع لها ما علمناه وما لم نعلمه فالمدن الآتية في كلام العلامة البنا هى بعض من ذلك وانما خصصها بالذكر لشهرتها لا غير والله اعلم

47- ما لطف هذه الاسماء وما أحسن هذا التقسيم الحكم الذى لم يدع للازدحام مجالا اذ خصص لكل شغل من هذه الاشغال الاربعة التى عليها مدار حركات الناس باب فالذين ينقلون انواع الحبوب كالشعير والقمح لاجل الطحن ويردونها دقيقا لهم باب المطاحن والغالب على هؤلاء كثرة القيل والقال والصياح لما أن أكثرهم عادة خدم وممالك وأتباع لاهياء لهم والذين يريدون السفر أو عبور البحر الى الاندلس من التجار وغيرهم لهم باب الاندلس وهم في الغالب اصحاب هم ونزاهة والمشتغلون بالعمل في البساتين لهم باب المنازل والذين يريدون التزهة والرياضة البدنية وتسليية النفس لهم باب الصفا فلا يكدرهم حنين المودعين ولا أنين المفارقين ولا جلجلة المهتئين للمسافرين باب الاندلس ولا تصدعهم عريدة الذاهبين وصيحات الراجعين باب المطاحن ولا تعلوهم غيرة ازدحام السداحلين والخارجين الى المنازل من العملة بحميرهم وبغاهم وجهاهم وأرباب المنازل بخيلهم وبراذينهم باب المنازل وبهذا يعلم ما كان في هذه المدينة من حسن الانتظام والترتيب ولا تخلو من منتزهات والمشهور منها منتزه الامير الآتى ذكره في كلام ابن الصغير

قال ونظر رجل الى توقد الشمس بالحجاز (وهو من أهل تاهرت ذهب حاجا) فقال (مخاطبا للشمس) احرقى ما شئت والله انك بتاهرت لدليلة قال وهذه تاهرت الحديثة وهى على خمسة اميال من تاهرت القديمة وهى حصن ابن بجاعة وهو شرقي الحديثة ويقال انهم (اى عبد الرحمن ومن معه) لما ارادوا بناء (اى تجديد) تاهرت القديمة كانوا يبنون بالنهار فاذا جن الليل واصبحوا وجدوا بنيانهم قد تقدم⁴⁸ فبنوا حينئذ تاهرت السفلى وهى الحديثة وفى قبلتها (قبائل) لواتة وهوارة فى قرارات وفى غربيها زواغة وبجنوبيها مطماطة وزناتة ومكناسة وكان صاحب (أى حاكم) تاهرت (القديمة) ميمون بن عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم بن بهرام وبهرام مولى عثمان بن عفان⁴⁹ وهو بهرام بن بهرام جور بن شابور بن بان كان بن شابور ذى الاكتاف ملك الفرس وكان ميمون هذا رأس الاباضية وامامهم ورأس الصفرية والواصلية وكان يسلم عليه بالخلافة وكان مجمع الواصلية قريبا من تاهرت وكان عددهم نحو ثلاثين الفا فى بيوت كبيوت الاعراب يحملونها وتعاقب مملكة تاهرت بنو ميمون⁵⁰ واخوته الى ان قال ميمنا على اكمل وجه سبب بنيانها وكيفيته هكذا فاجتمعت اليه (يعنى عبد الرحمن) الاباضية واتفقوا على تقديمه وبنيان مدينة تجمعهم فترلوا موقع تاهرت اليوم وهو غيضة اشبة⁵¹ ونزل عبد الرحمن منه موضعا مربعا لا شعراء⁵² فيه فقالت البربر نزل تاهرت وتفسيره الدف لتربيعة⁵³ وادركتهم صلاة الجمعة فصلى بهم هناك فلما فرغ من الصلاة ثارت صيحة شديدة على اسد

48- لم يذكر هذه الحكاية أحد من اصحابنا وهى من الغرائب وانظر ما حكمة الله فى ذلك وهى مما يؤيد القول بوجود الملائكة والجن والا فمن الفاعل لذلك بأمر الله على مذهب المنكرين حيث لا زلزال ولا رجة اذ ذاك هنالك

49- المولى هو المعتق بالفتح ولعله أخذ اسيرا لما فتحت فارس وأعتقه عثمان فسيحان المعز المذل وسيأتى زيادة كلام فى هذا النسب

50- لعله أراد عبد الوهاب بدل ميمون والا فميمون لم يتول الامامة حتى يسلم عليه بالخلافة والذى كان رأسا لمن ذكره من الصفرية والواصلية وغيرهم هو عبد الوهاب وشهادته المؤرخ مع ما تقدم وما سيأتى مما فيه تلقيب بنى رستم بالخلفاء والملوك يعلم بطلان قول بعض المتأخرين من ارباب التاريخ بأن بنى رستم لم يبلغوا درجة الخلافة والملك ولا ندرى ماذا صنع فى تلك المالاين من الناس التى كانت تدين بطاعتهم وتمتع بعدلهم ولا فى تلك العساكر التى كانت تؤلف بمآت الالوف تحت كلمتهم ولوائهم وان يكن جاهلا ذلك فما الحامل له على الدخول فى باب لا يتقنه حتى يبتكر كلاما لم يسبق اليه والواصلية والصفرية فرقان مشهورتان من فرق الاسلام لا وجود لهما الآن بالمغرب وتوجدان بالمشرق كجزيرة العرب وبالزنجبار بكثرة كما توجد فرق الازارقة والنجدية والزيدية والمعتزلة والشيعة وغيرها وبين الكل تنافر دائم كما تنفر كلها من مذعب الاباضية ومذاهب الاشعرية الاربعة نفورا كليا نظرا لتباين المشارب فى بعض المعتقدات الدينية التى تركت الاسلام اشتاتا واحزابا حتى صارت مضعة سهلة للطامعين من الافرنج والامر لله سنة الله التى قد حلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا

51- الغيضة بالفتح محل تجتمع فيه المياه من اودية أو عيون فينبت فيه الشجر وهى لغة ايضا الغابة كما هو مشهور على ألسنة العامة الآن وقوله اشبه بفتح الشين اى ملتفة مشتبكة لكثرتها واجتماعها من أصناف الشجر عظيمة وصغيرة وفي القاموس أشب الشجر كفتح التف قال وفى حديث ابن ام مكتوم بينى وبينك أشب (يفتح الشين) محرقة يريد النخل الملتفة اهـ

52- الشعراء شجر الحمض وهو كل شجر مالح او مر فى طعمه وضرب من الخوخ جمعهما كواحد ومن الارض ذات الشجر او كثيرته ذكر ذلك صاحب القاموس فقله لا شعراء فيه اى لا شجر وانظر حكمة الله اذ جعل بين تلك الاشجار الملتفة والغابة العظيمة هذا الموضع فضاء حتى امكنتهم الاقامة والصلاة فيه الى ان تم شغلهم صنع الله الذى اتقن كل شىء واذا اراد تمام امره لاه اسبابه

53- الذى يؤخذ من هذا الكلام ان اسم تيهرت لم يكن موجودا قبل نزول الامام عبد الرحمن لهذا المكان وقد تقدم انه اسم للقديمة وهو الذى يقرب صحته العقل لما تقدم وما سيأتى وذكر السماخى رحمه الله فى صحيفة 145 انها تسمى ايضا (تاقدمت) ولم نره لغيره الا اننى وقفت فى (الكتبخانة) المصرية الخديوية على الصناديق التى صفت فيها تحت صفائح الزجاج النقود المضروبة بأسماء الملوك والمدن قديمها وحديثها لاطلاع الناس عليها وفوق كل عملة منها ورقة صغيرة توضح مافى ذلك المضروب من التاريخ والاسم وقد رأيت فيها عملة

ظهر في الشعراء فأخذ حيا وأوتى به الى الموضع الذي صلى فيه وقتل فيه⁵⁴ فقال عبد الرحمن ابن رستم هذا بلد لا يفارقه سفك دم ولا حرب ابداً (قال ذلك بعد ان نظر نظرة في النجوم كما ذكره المراكشي في تاريخه وابتدأوا في تلك الساعة وبنوا في ذلك الموضع مسجداً وقطعوا خشبة من تلك الشعراء وهو على ذلك الى الآن (يعنى وقته) وهو مسجد جامعها وكان موضع تاهرت ملكا لقوم مستضعفين من مداسة وصنهاجة فأرادهم عبد الرحمن على البيع فأبوا فوافقهم على أن يؤدوا لهم الخراج من الاسواق ويبيحوا لهم أن يبنوا المساكن فاخططوا وبنوا وسموا الموضع معسكر عبد الرحمن بن رستم الى اليوم⁵⁵ وقال المهدي بين أشير وتاهرت اربع مراحل وهما تاهرتان القديمة والحديثة ويقال للحديثة تاهرت عبد الخالق ومن ملوكها بنو محمد بن أفلح بن عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم وممن ينسب اليها ابو الفضل احمد بن القاسم بن عبد الرحمن بن عبد الله التميمي البزاز التاهرتي روى عن قاسم بن اصبع واي عبد الملك بن ابي ذكيم واي احمد ابن الفضل الدينوري واي بكر محمد بن معاوية القرشي ومحمد بن عيسى بن رفاعة روى عنه ابو عمر بن عبد البر وغيره انتهى معجم وسنذكر بعد هذا الباب جماعة من أهل العلم المنسوبين الى تاهرت ان شاء الله وأما العلامة ابو عبد الله البنا المعروف بالبشارى الحنفى من علماء المائة الرابعة من الهجرة فانه الف تاريخاً سنة 375 وطبع بمدينة ليدن من بلاد الافرنج سنة 1876 قال في اوله هكذا . وتجنبت الكذب والطغيان وتحزرت بالحجج من الطعان ولم أودعه الحجاز والخال ولا سمعت الا قول الثقات من الرجال واعلم اني مع هذه الوثائق والشروط لم اظهره حتى بلغت الاربعين ووطيت جميع الاقاليم وخدمت أهل العلم والدين اهـ وقد ذكر اصطلاح المؤرخين في معنى الامصار وذكر اصطلاحه الذي جرى هو عليه في كتابه فقال واما نحن فجعلنا مصر كل بلد حله السلطان الاعظم وجمعت اليه الدواوين وقلدت فيه الاعمال واضيف اليها مدن الاقليم ثم قال في صحيفة 47 واعلم انا جعلنا الامصار كالمملك والقصبات كالحجاب والمدن كالجند والقرى كالجالية ثم ذكر في صحيفة 48 تاهرت من الامصار فيصدق عليها حينئذ انها بلد سلطان عظيم جمعت اليه الدواوين الى آخره وقال في صحيفة 56 عند ذكر الحجاب لكل مصر هكذا.

لبرقة رمادة طرابلس اجداية الى آخر ما ذكره لها للقيروان صبره صفاقس المهدية سوسة تونس الى آخر ما ذكره لها ايضا ثم قال ولتيهت يممة تاغليسة قلعة ابن الهرب خواره⁵⁶ أجمعه غدير الدروع لمايه منداس سوق ابن جبيلة مطماطة جبل تجان وهران شلف طير الغزة وق ابراهيم رهبايه البطحة الزيتونه تما يعود الخضراء واريغن تنس قصر الفلوس بحرية سوق كرى منجصة اوزكى تيرين سوق بن مبلول ريا تاويلت ابي مغول تامزيت تاويلت لغو افكان

نحاسية صغيرة لا اتقان في نقوشها فوقها ورقة فيها هكذا (تاقدمت 1255) وبجنبها ورقة اخرى فيها اسم الامير عبد القادر الجزائري المشهور القائم على فرنسا بعد دخولها قطر الجزائر وقد بنى بتيهت بعض بناء لما نوى ان يجعلها مركزاً لحكومته ولم يطل امره ولعله ضرب تلك العملة لما كان هناك وهو صاحب علم واطلاع والله اعلم

54- لا معنى للاتيان به حيا الى مكان الصلاة وقتله فيه لما ورد من النهي عن قصد تنجس البقاع المعدة للاجتماع مطلقا وبالاخص المعدة للصلاة والذي رأيته في تاريخ ابن عذارى المغربي فيما اظن ان الاسد خرج عليهم وبعد محاورة بينه وبينهم اتفق قتله في مصالحهم فالقتل هنالك غير مقصود ولكوني اطلعت على هذا الكلام قبل ان يخطر ببالى تحرير شيء من هذا فاتى نقله بالحرف

55- الذي يسمى الآن بالمعسكر مدينة غير تيهت الا انها قريبة منها وسيأتى الكلام عليها

56- أغلب هذه الاسماء بربرية لانها لمواطن البربر ولذلك وقع للمؤرخين اختلاف كثير في رسمها فكتب بعضهم اجداية بالذال المعجمة وبعضهم خراة بالهاء بدل الخاء وبعضهم افكان بياء قبل الفاء وغير ذلك ومارسناه هنا هو الذي اتفق فيه اكثرهم على مارأناه

(وبها نُهر يأتي الى تاهرت) انتهى فهذه ما يقارب اربعين مدينة غير ما سيزيده نسبتها الى تاهرت كنسبة صفاقس وتونس الى القيروان وكنسبة طرابلس واجداية الى برقة بمعنى ان كل واحدة من هذه المدن تعتبر كمرکز ولاية صغيرة او متصرفية كبيرة باصطلاح عصرنا بدليل تقسيمها الى عدة ولايات بعد انقراض امامة بنى رستم منها فافكان وتاهرت نفسها كانت ليعلى بن محمد اليفري، وأشير وأعمالها لزيري بن مناد الصنهاجي والمسيلة واعمالها لجعفر بن علي الاندلسي وباغاية واعمالها لقيصر الصقلي⁵⁷ الى غير ذلك مما ذكره المؤرخون ومنهم ابن خلدون فانه قد ذكر بعض ذلك في صحيفة 46 من المجلد الرابع ولو لم تكن كذلك لما قام بها ملك قاهر كهذا ودام رغما عن تلك الفتن والحروب الواسلية وغيرها وهذا يظهر للقارىء ما كان لتاهرت من اتساع الدائرة وما كان لبنى رستم فيها من عظيم الملك ولا سيما اذا فكر فيما هو تحت نفوذهم قوة او فعلا من سرت الى أرض الجريد وسنين ذلك واذ ذاك لا يستعظم ولا يشك فيما سيتلى عليه من الكلام الآتى منقولاً عن المؤرخين ارباب الاطلاع والتحقيق ومن امعن الفكر في كلام هذا المؤرخ وقاعدته التي أسسها وهي قوله واما نحن فجعلنا المصر الى آخره يظهر له الامر جليا⁵⁸ ثم قال والله دره في انصافه وتقريره الحق كما عرفه ورآه او حققه عن ارباب المعرفة والصدق ما نصه اقليم المغرب هذا اقليم بهي كبير سري كثير المدن والقرى وعجيب الخصائص والرخا به ثغور جليلة وحصون كثيرة ورياض نزهه وبه جزائر عده مثل الاندلس الفاضلة العجيبة (وتاهرت) الطيبة التزييه وطنجة البلدة البعيدة وسجلماصة المختارة الفريدة واصقلية الجزيرة المفيدة الى ان قال فأول كورة من قبل مصر برقة ثم افريقية ثم تاهرت ثم سجلماصة ثم فاس ثم السوس الاقصى ثم جزيرة اصقلية ثم طرب قلمه السابح في لجة معارفه اليقينية واستخرج من مكنون جواهره كل يتيمة نقيه واندفع يسطر على صفحات الطرس ما علمه لهذه المدينة الزهراء من الفضائل والكمالات مترددا في تفضيلها على دمشق الشام وقرطبة الاندلس ذات المآثر الباهرات واليك ما طرزه وحقه ان ينظم بالآل وقل لله رجل انصف وما حاد عن الحق اذ قال (تاهرت) هي اسم القصبة ايضا وهي بلخ المغرب قد احدثت بها الانهار والنفت بها الاشجار وغابت في البساتين ونبتت حولها الأعين وجل بها الاقليم وانتعش فيها الغريب واستطابها اللبيب يفضلوها على دمشق واخطروا

57- ربما يقول قائل ان بعض المؤرخين ذكر بعض هذه امدن في اقليم افريقيا وبعضها في اقليم فاس او سجلماصة مثلا وان بعها انما اسس بعد انقراض دولة بنى رستم فلا يصدق عليها انما دخلت في ملكهم فنقول ان ما ذكره هذا المؤرخ اقرب الى الصحة لقرب عهده ببني رستم بخلاف غيره فان اغلبهم متأخر وأكثر ما حرروه على هذه الجهات تلقوه عن غيرهم بمجرد السماع والنقل على انه يمكن دخول هذا البعض تحت غيرهم في مبدئ ظهور دولتهم قبل اتساع خطتها او في آخرها عند تقهقرها كما سيأتي وما كان من المدن حادثا بعد انقراضها فالمراد بذكرها بيان ان موقعها وما يليه من البلاد كان في طاعتهم وعلى هذا يحمل كلام من خالف هذا المؤرخ من المؤرخين والله اعلم فليحرر

58- وجه ذلك هو أن المصر في اصطلاحه يطلق على المدينة التي بها كرسي المملكة كالأستانة العلية الآن وقد سمى تيهرت مصرا وان الحجاب في اصطلاحه يطلق على مراكز الولايات كطرابلس الآن وكولاية الحجاز وولايات الشام بالنسبة الى الاستانة وقد ذكر تلك المدن كلها من الحجاب لتيهرت فيلزم ان تكون بمقام ولايات في اصطلاح عصرنا وان كان بعضها اكبر من بعض واكثر في العمران كما هو الحال الآن في ولايات كثيرة ولا يقال ان بالنظر الى قربها من بعضها بعض يظهر انما لا تكون كذلك اذ لا يكون في دائرة كل واحدة من الانفس والعمارات ما يخول لها درجة ولاية او متصرفية لأن من نظر الى مديريات مصر والاسكندرية مثلا وتقاربا لا يستبعد ذلك هنا مع وجود تلك الانهار الجارية والعيون السائلة والاوادية الكبيرة والاعداد الكثيرة من القبائل المؤلفة من الالاف والله اعلم

وعلى قرطبة⁵⁹ وما اظنهم اصابوا هو (اقليم تاهرت) بلد كبير كثير الخير رحب رفق طيب رشيق الاسواق غزير الماء

59- أما دمشق فقد سميت باسم بانيها دمشق بن فاني بن مالك بن ارفخشذ ابن سان بن نوح وقيل غير ذلك وقد اقسام سبحانه وتعالى بجبلها في قوله (والتين) قال كعب هو الجبل الذي عليه دمشق والزيتون هو الجبل الذي عليه بيت المقدس وطور سيناء هو الجبل الذي كلم الله فيه موسى عليه السلام والبلد الامين هو مكة وقال الاصمعي جنان الدنيا ثلاث غوطة دمشق ونهر بلخ ونهر الأبله وقد فتحت دمشق سنة 14 من الهجرة في عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه ومما قاله البحترى الشاعر المشهور فيها قوله

(اما دمشق فقد ابدت محاسنها وقد وفي لك مطربها بما وعدا)

(اذا اردت ملأت العين من بلد مستحسن وزمان يشبه البلدا)

(تمسى السحاب على اجبالها فرقا ويصبح النور في صحرائها بددا)

(فلست تبصر الا واكفا خضلا ويانعا خضرا او طائرا غردا)

(كاثما القيط ولي بعد جنته أو الربيع دنا من بعد ما بعدا)

ومما قاله فيها ابو تمام الشاعر

(لولا حدائقها واني لا ارى عرشا هناك ظننتها بلقيسا)

(وأرى الزمان غدا عليك بوجهه جذلان بساما وكان عمبوسا)

(قد نورت تلك البطون وقدست تلك الظهور بقربه تقديسا)

ذكر هذا صاحب مختصر البلدان وقال ولما أراد الوليد بن عبد الملك بناء مسجد دمشق دعا نصارى دمشق فقال انا نريد ان نزيد في مسجدنا كنيسةكم هذه ونعطيك موضع كنيسة حيث شئتم فحذروه ذلك وقالوا انا نجد في كتابنا انه لا يهدمها احد الا وخنق فقال الوليد فانا أول من يهدمها فقام عليها وعليه قباء اصفر فهدمها بيده وهدم الناس معه ثم زاد في المسجد فلما هدمها كتب اليه ملك الروم انك هدمت الكنيسة التي رأى ابوك تركا فان كان حقا ما عملت فقد أخطأ ابوك وان كان باطلا فقد خالفت اباك فلم يعرف الوليد جوابا فاستشار الناس وكتب الى العراق فقال الفرزدق اجبه يا امير المؤمنين بقول الله عز وجل وداوود وسليمان اذ يحكمان في الحرث اذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين ففهمناها سليمان وكلا اتينا حكما وعلما وكتب اليه الوليد بذلك فلم يجبه والوليد ممن زاد في المساجد وبنائها فبنى المسجد الحرام ومسجد المدينة ومسجد قبا ومسجد دمشق واو من حفر المياه في طريق مكة الى الشام واول من عمل البيمارستانات للمرضى وكان في ذلك انه خرج حاجا فمر بمسجد النبي (ص) فدخله فرأى بيتا طاعنا في المسجد شارعا باباه فقال ما بال هذا البيت فقيل هذا بيت علي بن ابي طالب اقره رسول الله (ص) وردم سائر ابواب اصحابه فقال ان رجلا نلعه على منابرنا في كل جمعة نقر باباه طاعنا في مسجد رسول (ص) من بين الابواب اهدم يا غلام فقال روح بن زنباع الجذامي لا تفعل يا امير المؤمنين حتى تقدم الشام ثم تخرج أمرك بتوسيع مساجد الامصار مثل مكة والمدينة وبيت المقدس وتبنى بدمشق مسجدا فيدخل هدم بيت علي بن ابي طالب فيما يوسع من مسجد المدينة فقبل منه وقدم الشام واخذ في بناء مسجد دمشق وانفق عليه خراج المملكة سبع سنين ليكون ذكرا له (وهذا مما لا يجوز الشرع قطعا) وفرغ من المسجد في ثمان سنين فلما حمل اليه حساب نفقات مسجد دمشق على ثمانية عشر بعيرا امر باحراقها قال في كتاب المسالك والممالك انفق على مسجد دمشق خراج الدنيا ثلاث مرات وبلغ ثمن البقل الذي أكله الصناع في مدة ايام العمل ستة الاف دينار وهذا المسجد مقعد عشرين الف رجل وان فيه ستمائة سلسلة ذهب للقناديل قال زيد بن واقد وكلني الوليد على العمال بمسجد دمشق فوجدنا فيه مغارة فعرفنا الوليد ذلك فزل في الليل فاذا هي كنيسة لطيفة ثلاثة اذرع في مثلها واذا فيها صندوق وفيه سقوف مكتوب عليه هذا رأس يحيى بن زكريا فرأيناه فأمر به الوليد أن يجعل تحت عمود معين فجعل تحت العمود المسقط () الرابع الشرقي ويعرف بعمود السكسك قال زيد رأيت رأس يحيى بن زكريا حين وضع تحت العمود والبشرة والشعرة لم تستغرا قالوا فمن عجائب مسجد دمشق ان لو بقى الرجل فيها مائة سنة لكان يرى فيها كل وقت اعجوبة لم يرها قبل وقال كعب لبيسنين في دمشق مسجد يبقى بعد خراب الارض اربعين عاما والمثناة التي بدمشق كانت ناطورا للروم في كنيسة يحيى فلما هدم الوليد الكنائس وادخلها المسجد تركت على حالها وهدم الوليد عشر كنائس واتخذها مسجدا ولما ولي عمر بن عبد العزيز الخلافة قال ارى في مسجد دمشق اموالا انفقت في غير حقها فانا مستدرك ما ادركت منها ورادها الى بيت المال انزع هذا الرخام والفسيفساس وأطينه

جيد الاهل قديم الموضع محكم الرصف عجيب الوصف غير انه متى يقاس المغرب بالشام واين مثل دمشق في الاسلام ولقرطبة اسم وذكر وشأن بها (أي تاهرت) جامعان على ثلثي البلد قد بنيا بالحجارة والجيل قريبان من الاسواق من دروبها المعروفة اربعة درب مجانة درب المعصومة درب حارة الفقير⁶⁰ درب البساتين بقرها مدينة تسمى رها وقد خربت وتنس مسورة على البحر شربهم من نهر وكذلك قصر الفلوس وتاهرت السفلى على واد عظيم ذات اعين وبساتين وافكان مسورة على واد جار ذات بساتين ويلل وجبل توجان على ما ذكرنا سواء وهران بحرية مسورة يقلعون منها الى الاندلس في يوم وليلة⁶¹ ترى منها البرين وهي احد المعابر المشهورة جبل زلاغ مدينة على جبل عال يطل على كورة فاس بناها خلوف بن احمد المعتلى وبقية المدن اكثرهن مسورات ذات بساتين انتهى

وانزع هذه السلاسل واصير بدنها حبالا فاشتد ذلك على اهل دمشق فخرج اشرافها اليه وكان فيهم يزيد بن سمعان وخالد بن عبد الله القشري فقال خالد لهم دعوني والكلام قالوا تكلم فلما دخلوا عليه قال له خالد بلغنا انك همت بمجدنا بكذا وكذا قال نعم قال والله ما ذلك لك قال فلمن ذلك لامك الكافرة وكانت امه نصرانية فقال ان تك كافرة فقد ولدت مؤمنا فاستحي عمر وقال صدقت وورد على عمر رسل الروم فدخلوا مسجد دمشق لينظروا اليها فرفعوا رؤوسهم الى المسجد فنكس رئيس منهم راسه واصفر لونه فقالوا له في ذلك فقال انا كنا معاشر اهل رومة نحدث ان بقاء العرب قليل فلما رأيت ما بنوا علمت ان لهم مدة سيلغونها فأخبر عمر بذلك فقال أرى مسجدكم هذا غيظا على الكفار فترك ما هم به من امر المسجد والمسجد مبنى بالرخام والفسيفساء مسقف بالعاج منقوش بالازورد والذهب واخراب مرصع بالجواهر الثمينة والحجارة العجيبة وبنى معاوية الخضراء بدمشق في زمن عثمان بن عفان وامر على الشام وهو ابن ثمان وثلاثين سنة واستخلف وهو ابن ثمان وخمسين سنة وتوفى لثمان وسبعين سنة وهو اول من اتخذ االخريب والمقاصير والشرط والحرس والحصيان واصفى الاموال وقد انكر قوم بناء الدور والالنية والنفقة والتبذير عليها وهذا طلحة بنى داره بالآجر والقصة وأبوابه صاج وبنى عثمان بن عثمان بالحجارة المنقوشة المطابقة وخشب الصنوبر والساج حمل له من البصرة في البحر ومن عدن في البحر وحمل له القصة من بطن نخل وبنى الزبير اربعة ادور دارا بمصر واخرى بالاسكندرية واخرى بالكوفة واخرى بالبصرة وانفق زيد بن ثابت على داره ثلاثين الف درهم ثم قال ودمشق جبل لبنان وهو الذي يكون عليه العباد (بتشديد الباء) والابدال وعليه من كل الثمر والفواكه وفيه عيون كثيرة عذبة اهـ واما قرطبة بضم اوله وسكون ثانية وضم الطاء المهملة والباء الموحدة فقد قال صاحب المعجم كلمة فيما احسب عجمية رومية ولها في العربية مجال يجوز ان تكون من القرطب وهو العدو الشديد وقال وهي مدينة عظيمة بالاندلس وسط بلادها وكانت سريرا للملكها وقصبتها وبها كانت ملوك بني امية ومعدن الفضلاء ومنبع النبلاء من ذلك الصقع بينها وبين البحر خمسة أيام قال ابن حوقل التاجر الموصلى وكان طرق تلك البلاد في حدود سنة 350 واعلى مدينة بالاندلس قرطبة وليس لها في المغرب شبيه في كثرة الاهل وسعة الرفعة يقال انها كأحد جانبي بغداد وان لم تكن كذلك فهي قريبة منها وهي حصينة بسور من حجارة ولها بابان يشرعان في نفس السور الى طريق الوادى في الرصافة والرصافة مساكن بأعلى البلد متصلة بأسافله من ربهضها وابنتها مشتبكة محيطة من شرقها وشمالها وغربها وجنوبها الى ان قال ومن تشوق اليها القاضي محمد بن ابي عيسى بن يحيى الليثي قاضى الجماعة بقرطبة فقال فيها

(يلم ذكرى من ورقا مغردة على قضيب بذات الجزع مياس)
(رددن شجوا شجوا قلبي الخلي فقل في شجو ذي غربة ناء عن الناس)
(ذكرنه الزمن الماضى بقرطبة بين الاحبة في هو وايناس)
(هجن الصبابة لولا همة شرفت فصيرت قلبه كالجندل القاسى)

60- في كل ما رأيناه من النسخ (القفير) بتقديم القاف على الفاء ولم نعلم له معنى مناسباً للمقام ولعله بتقديم الفاء او بالخاء مكان القاف او بالغين على لغة العامة وعلى هذا تكون على التسمية واضحة وهي وجود مركز للخبراء بذلك ادرب يجتمعون فيه ثم يوزعون في انحاء المدينة بمعرفة رئيسهم كما هو جار الآن بمصر عند كل مغرب

61- في نسخة هكذا (وسيتة على زقاق بحر الاندلس ترى منه البرين الى آخره فيؤخذ من هذا ان سبتة قد اتى عليها وقتها وهي في دائرة حكم تيهرت وفيه تأمل لبعدها عنها جدا وقربا من طنجة والله اعلم

وقد ذكرها شمس الدين ابو طالب الدمشقي باختصار في تاريخه ولم يذكر ما يحتاج الى نقل كما لم يذكر غيرها من المدن الا سردا.

وعدد العلامة ابن فضل الله العمري في مسالك الابصار ممالك المغرب ليفضل عليها ممالك المشرق تعصبا للمشرق فلم يذكر من مزايا المغرب الا ما لم يمكنه انكاره وقال: ويليه اى تونس الغرب الاوسط كان في صدر الاسلام قد اقتطعه بنو رستم اباضية وادعو الخلافة وكان قطب امامتهم مدينة تاهرت واما المؤرخ ابن الصغير العلامة الخطير المالكي الشهير الذى بحث في احوال تاهرت عن النقيز والقطمير فقد نظم في الشاء عليها العقود الحسان ووصف بنى رستم ملوكها الائمة اهل العدل والاحسان بكل وصف جميل وذكر جليل وسيأتى موزعا في الباب الآتي عند ذكر كل امام منهم فانتظره وكل آت قريب والمناسبة هذا المقام تأتي بكلمات منه وان تكررت بعد ذلك ليعلم منه مشربه ويدرك منه مرمى كلامه قال ثم شرعوا (يعني الاباضية بتاهرت) في العمارات والبناء واحياء لموات وغرس البساتين واجراء الانهار واتخاذ الرحي والسمتغلات وغير ذلك واتسعوا في البلد وتفسحوا فيه وأتتهم الوفود والرفاق من كل الامصار واقاصى الاقطار فقل أحد أن يتزل بهم من الغرباء الا استوطن معهم وابتنى بين اظهريهم لما يراه من رخاء البلد وحسن سيرة امامه وعدله في رعيته وأمانة على نفسه وماله حتى لا ترى دارا الا قبل هذه لفلان الكوفي وهذه لفلان البصري وهذه لفلان القروي وهذا مسجد القرويين ومربعتهم وهذا مسجد البصريين وهذا مسجد الكوفيين واستعملت السبل الى بلاد السودان والى جميع البلدان من مشرق ومغرب بالتجارة وضروب الأمتعة الى ان قال في حق الامام افلح وشمخ في ملكه وابتنى القصور واتخذ ابوابا من الحديد وبنى الجفان واطعم فيها الجيعان وعمرت معه ادنيا وكثرت الاموال والمستغلات واتته الرفاق والوفود من كل الامصار والآفاق بأنواع التجارات وتنافس الناس في البنين حتى ابنتى الناس القصور والضياح الى آخر ما سيطرق سمعك غير بعيد ان شاء الله ولا فائدة في التكرار وقال ابن خلدون في 121 من المجلد اسادس فشرعوا (أي الاباضية) في بناء مدينة تاهرت في سفح جبل كزول السياح على تلؤل منداس واختطوها على وادي ميناس النابعة منه عيون بالقبلة وتمر بها وبالبطحاء الى ان تصب في وادي شلف فأسسها عبد الرحمن بن رستم واختطها سنة اربع واربعين ومائة فتمدنت واتسعت خطتها اهـ

وقال ابن حوقل في المسالك المطبوع بليدن سنة 1872 بصحيفة 60 بعد أن وصفها كما تقدم والتجار والتجارة (بتيهرت) المحدثه اكثر ولهم مياه تدخل اكثر دورهم وأشجارهم وبساتين كثيرة وحمامات وخانات وهي احد معادن الدواب والماشية والغنم والبغال والبراذين الفراهيد ويكثر عندهم العسل والسمن وضروب الغلات وأما ابن عذارى المغربي فانه ذكرها في بيانه وخالف في تاريخ تأسيسها كل ما رأيته من التواريخ اذ قال في صحيفة 203 فاجتمع عليه (اي عبد الرحمن) الاباضية وعزموا على بنين مدينة تجمعهم فترلوا بموضع تيهرت وهي غيضة بين ثلاثة انهار فبنوا مسجدا من اربع بلاطات واختط الناس مساكنهم وذلك سنة 161 وكانت في الزمان الخالي مدينة قديمة فاحدثها الآن عبد الرحمن بن رستم وبقي بها الى ان مات سنة 168 هـ وهذا تاريخ في وفاة عبد الرحمن وهو مخالف لما هو مشهور عندنا ولكلام ابن خلدون الآتي وقال ايضا وكانت حول تيهرت بساتين من انواع الثمار كثيرة الاشجار وهي شديدة البرد كثيرة الامطار قيل لبعض الظرفاء من اهلها كم الشتاء عندكم من شهر في السنة قال ثلاثة عشر شهرا اهـ هذا وقد وقفت على ذكرها في كتاب دائرة المعارف ولم يزد على ما سمعته غير بيان المسافة التي بينها وبين وهران باصطلاح هذا العصر وذلك 220 كيلو مترا واستظهر انها هي (تنغرتيا) القديمة التي 23

كانت كرسي اسقفية⁶² في القرن الخامس للميلاد (فهى اذا عريقة في الفخر عظيمة الشأن محط رجال العظماء والرؤساء من رجال الدين من قديم ازمان) وزاد في ابيات ابن حماد المتقدمة بيتا بعد قوله تبدو من الغيم الى آخره والبيت هو هذا

(فتحن في بحر بلا لجة تجرى بنا الريح على سمت)

حمد لله على موافقة الحق

ثم وقفت في اثر هذا على عين ما استظهرته في الحاشية قبل هذا بصحيفة (19) عند الكلام على كيفية توزيع المياه على بيوت تيهرت فحمدت الله على موافقة ذلك الفكر للحق راجيا ان تكون افكارى كلها كذلك ان شاء الله واليك ما كتبه بالحرف حيث قال واما (تیهرت) الحديثة فكانت اكثر تجارة والماء يجرى اليها في اقنية وانايب الى كل البيوت انتهى وبهذا نختم هذا الباب وختامه مسك والحمد لله رب العالمين

62- الاسقفية وظيفة مخصوصة برجال الدين عند النصارى وكرسيها هو المدينة أو القصبه التي يقيم فيها الاسقف والأسقف كلمة عربية وقيل معربة من (ابيسكوبوس) باليونانية ومعناها ناظر او رقيب وكل القاب خدمة الدين عند النصارى هي اما من اصل يوناني كالاسقف والبطريك والشدياق وغيرهم او من اصل سرياني كالقسيس والشماس وغيرها والاسقف بالفرنساوية افك) (وبالانكليزية بشب) وهما من اليونانية ايضا وهو في الكنائس البروتستانتية في اسوج ونروج والداغرك لقب يلقب به خدمة الدين الا انهم لا يعتبرون من رتبة ممتازة عن غيرها من درجات الكنيسة وقد ذهب بعض ابروتستانت الى ان ما ورد في سفر اعمال الرسل (20: 17 و 28) يستفاد منه ان مدلول الاسقف والقسيس واحد واما معلومو كنيسة الرومانية الكاثوليكية ومن وافقهم من معلمي البروتستانت فقد خالفوا في ذلك وقالوا ان الاسقف والقسيس درجتان ممتازتان وكان انتخاب الاسقف منوطا بقسم من الاهالى ولما في ذلك من كثرة التخالف في الراى امؤدى الى العناد غالبا استعملت الوسائل الى ابطال ذلك حتى صار الملوك يعينون بانفسهم اساقفة مملكتهم الا ان الباب لم يطق ذلك وقاوم هذا الطريق بكل عناية حتى جعل الانتخاب مخصوصا بقسيسي الكنائس الاسقفية وقد اختلفت في هذا العهد طرق الانتخاب فبعضهم خصصه بالقسيسين وبعضهم جعله مشتركا بينهم وبين الاهالى وبعضهم خصصه بالملك ورجال دولته وبعضهم اشترط في المنتخب (بالكسر) كونه من أبوين شرعيين بالغا سن الثلاثين مشهورا بالعلم والادب مقبولا عند الحكومة وكونه من أهالى البلد الواقعة فيها الاسقفية ان امكن وعلامات الاسقف في اوربا التاج رمزا الى القوة والعصا رمزا الى فروضه الرعائيه والخاتم رمزا الى اقترانه بالكنيسة وصليب معلق على صدره وكفوف مخصوصة وحذاء لا يغطي الا قسما من اعلى رجليه وقباء مخصوص وذلك كله تمييز له عمن هو من خدمة الدين واما في الكنيسة الشرقية فالعلامات المميزة للاسقف عن القسيس عند الروم (الارثوذكس) والروم الكاثوليك والارمن هي منديل يجعل فوق القلنسوة تحت القاووق وفي الشرق الصليب على الصدر والخاتم في البنصر وثوب يخالف اثواب القسيس ويكون في الغالب احمر وللأسقف دون القسيس حق فحص التأليف الدينية التي تنشر في ابرشته (الدائرة التي يتولاها الاسقف وتكون تحت نظره) فيثبتها او يحكم بفسادها والكثير من البروتستانت سلخوا السلطة عن الاساقفة وصيروهم بمثلة القسيسين ومنهم من ابطال هذا الاسم بالمرّة والبعض منهم ابقاها كما هي عليه بناء على انما نظام الاهى لا يجوز تغييره وهذا في انكلترا والولايات المتحدة والاساقفة من جميع الطوائف النصرانية الا البروتستانت لا يباح لهم الزواج وكذا القسيسون من الكنيسة اللاتينية والرهبان عموما لا يباح لهم الزواج واما القسيسون من غير الكنيسة اللاتينية فيباح لهم الزواج مرة واحدة واذا توفيت نساؤهم منعوا عن الزواج مرة ثانية ووظيفة الاساقفة المقيمين في ممالك الدولة العثمانية هي النظر والحكم في جميع المسائل المتعلقة بالامور الدينية من زواج وطلاق واقامة اوصياء للقصر وولاية الاوقاف والتركات وما اشبه ذلك كذا قيل والله اعلم

(الكلام على المدن المنسوبة الى تيهرت)

تقدم عن العلامة البشارى الحنفى نسبة عدة مدن الى تيهرت وقد تكلم عليها المؤرخون وتتميمها للفائدة نأتى ببعض ما قالوه في بعضها فنقول ان من اشهر تلك المدن في ذلك العهد

مدينة تنس بفتح التاء والنون وهى آخر افريقية مما يلي الغرب بينها وبين مدينة وهران ثمانية ايام ومليانة في جنوبها على ثلاثة ايام وقيل اربعة وبينها وبين تيهرت خمس مراحل اوست نقل ذلك الحموى عن البكري وقال قال ابو عبيد هى مدينة مسورة حصينة داخلها قلعة صغيرة صعبة المرتقى ينفرد بسكانها العمال لخصانتها وبها مسجد جامع واسواق كثيرة وهى على فمر ياتيها من جبال على مسيرة يوم من جهة القبلة ويستدير بها من جهة الشرق ويصب في البحر وتسمى تنس الحديثة وتنس الحديثة اسسها وبنها البحريون من اهل الاندلس منهم الكركدن وابو عائشة والصقر وغيرهم وذلك سنة 262 (في دولة بنى رستم) وسكنها فريقان من أهل الاندلس من اهل البيرة واهل تدمير واصحاب تنس من ولد ابراهيم بن محمد بن سليمان ابن عبد الله بن الحسن بن الحسين بن على بن ابي طالب وكان هؤلاء البحريون من اهل الاندلس يشتون هناك اذا سافروا من الاندلس في مرسى على ساحل البحر فاجتمع اليهم بربر ذلك القطر ورغبوهم في الانتقال الى قلعة تنس وسالوهم ان يتخذوها سوقا ويجعلوها مسكنا ووعدوهم بالعون وحسن المجاورة⁶³ فاجابوهم الى ذلك وانتقلوا الى القلعة وانتقل اليهم من جاورهم من اهل الاندلس فلما دخل عليهم الربيع اعتلوا واستوبؤا الموضع فركب البحريون من أهل الاندلس مراكبهم واطهروا لمن بقى منهم انهم يمتارون لهم ويعودون فحينئذ نزلوا قرية بجاية وتغلبوا عليها ولم يزل الباقون في تنس في تزايد وثروة وعدد ودخل اليهم اهل سوق ابراهيم وكانوا في اربعمائة بيت فوسع لهم اهل تنس في منازلهم وشاركوهم في اموالهم وتعاونوا على البنيان واتخذوا الحصن اذى فيها اليوم ولهم كيل يسمونه الصخرة وهى ثمانية واربعون قادوسا والقادوس ثلاثة امداد بمد النبىء (ص) ورطل اللحم بها سبع وستون اوقية ورطل سائر الاشياء اثنتان وعشرون اوقية ووزن قيراطهم ثلث درهم عدل بوزن قرطبة.

وقال سعد بن اشكل التاهري في علته التى مات منها (تنس)

واصبحت عن دار الاحبة في اسر

نأى النوم عني واضمحلت عرى الصبر

واسلمني مر القضاء من القدر

واصبحت عن تيهرت في دار غربة

يساق اليها كل منتقص العمر

الى تنس ذات النحوس فانها

وطالعه المنحوس صمصامة الدهر

هو الدهر والسياق⁶⁴ والماء حاكم

وياوى اليها الذيب في زمن الحر

بلادها البرغوث يحمل زاجلا

بجيش من السودان يغلب بالوفر

يرجف منها القلب في كل ساعة

63- انظر كيف كانوا يهتمون بالبقاع المهجورة القابلة للعمارة ويستميلون الناس الى الإقامة بها باحسانهم ومعروفهم وحين جوارهم

64- في نسخة السياف بالفاء وله مناسبة للمقام

65- قد بالغ هذان الشاعران فى ذم هذه المدينة الممدوحة عند ارباب التاريخ وقد علمنا السبب الحامل للاول منهما على ذمها فعذرناه اذ لا مصيبة تعادل الداء العضال المفضي بصاحبه الى الهلاك كالذي اصابه ولم نعلم للثاني سببا قويا غير ما يفهم من كلامه من أنه كان سائلا وكأنه لم يقنع بما ناله فيها وقد ورد ان النفس جبلت على حب من احسن اليها وبغض من اساء اليها وسئل جحا فيما يقال عن احسن من الناس فقال هو الذى احسن الي وسئل عن المسيء منهم فقال هو الذى اساء الي وعلى كل حال لا يكون قولهما دليلا على نقصها لان الدم والمدح لا يكونان غالبا الا على حسب الاغراض والطبائع والاحوال والازمان ولا يخل شىء من مخلوقات الله عموما من كمال ونقص وما قصد الانسان الى مدح شىء ما الا ووجد مجالا يسع فوق مراده ولو عمد الى ذم ذلك الشىء عينه من جهة اخرى لا نفتح له اوسع باب في ذلك بدون ان يكذب ان شاء وهذا مما يدل على حدوث الكائنات وافتقارها الى مدبر حكيم وهو الله الذى لا اله الا هو ذو الكمال الذى لا يشوبه نقص ولا يلحقه عدم هذه مصر القاهرة الغنية بشهرتها عن البيان مهبط الفراعنة والجبابرة وعظماء الملوك وبيت الحكم ومعدن الآثار العظيمة والصنائع الغريبة من قديم الزمان قد مدحها الشعراء بما اذا سمعته توهمت انها روضة من رياض الفردوس وذمها آخرون بما اذا تلي عليك ظننت انها حفرة من حفر النار وما قاله فى وصفها واجاد سليم بيك العنحوري الدمشقي من شعراء هذا العصر هذه القصيدة

شوارع مصر

تلك الشوارع عرضها امتارا	ست بست تدهش الانظارا
يجرى الهواء بها رخاء مطلقا	يمحو السقام ويذهب الاكدارا
تزدان بالانوار فوق منائر	فيعود ليل المدلجين نهارا
وعلى الجوانب الف حانوت زهت	بنفائس تدع العقول حيارى
فيها الجواهر كالنجوم وجامها	فلك يزيغ بماؤه الابصارا
فيها لاصناف النسيج زخارف	تسي النساء وتسلب الدينارا
شادت يد الاتقان فى اكنافها	قللا يناطح روقها الاقمارا
من كل صرح باذخ شرفاته	تبدى متى حان الاصيل عذارى
غر اوجوه فواتنا تزرى الدمى	بيضا وسمرا خردا ابكارا
يختلن من فوق العروش بواصما	جدلا وهن من النعيم سكارى
يرمقن ابناء السبيل بأعين	توحي الى اهل الهوى اسرار
حفت بجينات الازاهر قد حوت	دررا وآسا نرجسا وعرا
جمعت لاسباب الهناء ذرائعا	تولى التريل من المنى اوطارا
يمسي ويصبح والنعيم مهاده	حتى لينسى اهله والجارا

ومما ورد في ذمها من اقوال المتقدمين قول الشاعر

مصر دار الفاسقين	تستفز السامعينا
واذا شاهدت شاهد	ت جنونا ومجونا
وصافعا وضراطا	وبغاء وقرونا
وشيوخا ونساء	قد جعلن الفسق دينا
فهى موت الناسكينا	وحياة الهالكينا
وقول الآخر من قصيدة	

مقعد اللوم المصفى والدنس

ايها السائل عن ارض تنس

والندى في اهلها حرف درس

بلدة لا يتزل القطر بها

وهم في نعم بكم خرس

فصحاء انطقفى لا ابدا

يرتحل عن اهلها قبل الفلس

فمتى يلهم بها جاهلها

نجس يجري على ترب نجس

ماؤها من قبح ما خصت به

فاجعل اللعنة دابا لتنس

فمتى تلعن بلادا مرة

ثم قال وقد نسبوا الى تنس ابراهيم بن عبد الرحمن التنسي الاندلسي وسكن مدينة الزهراء⁶⁶ وسمع من ابي وهب بن مسرة الحجازي وابي علي القالي وكان في جامع الزهراء يفتي ومات في صدر شوال سنة (307) انتهى حمى

وشكا التجار بما كساد السوق

قلت منافعها فضج ولائها

شينا سوى الخيلاء والتبريق

ما ان يرى فيها الغريب اذا رأى

بيت بمكة للاله عتيق

قد فضلوا جهلا مقطمهم على

منهم صدى بر ولا صديق

لمصارع لم يبق في اجداثهم

او قال قاتلهم فغير صدوق

ان هم فاعلهم فغير موفق

ومصارع للبغي والتنفيق

شيع الضلال وحزب كل منافق

والقول بالتشبيه بالمخلوق

اخلاق فرعون اللعينة فيهم

من عصبة لدعوت بالتفريق

لولا اعتزال فيهم وترفض

وهكذا الحال في البصرة والكوفة على ما سيأتي وغيرهما وبالجمله فلا شىء في الوجود غيره تعالى الاوله كمال ونقص ومادح وقادح على حق او باطل الا أن الحق يعلو والكمال لله وحده

66- الزهراء مدينة وقيل سراية كما ذكره بعض المؤرخين وهو اقرب لأنهم ذكروا ان طولها الفان وسبعماية ذراع وان عرضها الف وخمسماية ذراع وهى قرية من قرطبة على ستة اميال منها وقيل اربعة وزيادة اختطها عبد الرحمن الناصر بن محمد بن عبد الله ابن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم الاموي وهو يومئذ سلطان تلك الجهات وذلك سنة 325 بعد انقضاء دولة بنى رستم من تيهرت انفق في عمارتها ما تجاوز حد الاسراف وجلب اليها الرخام من الاقطار وآتاه من الهدايا للاعانة على اتمامها من ولاته ومن ملوك الافرنج الجاورين له مالا يحد وصفه وجلب اليها من القسطنطينية حوضا مذهبا كبيرا وجعل فيها حوضا اصخر منه فيه صور حيوانات متعددة كالاسد والغزال والعقاب والثعبان وكل ذلك بالذهب المرصع بالجواهر وكان يدخلها في اثناء العمل كل يوم 6000 صخرة مع مالا يعد من الأجر ويعمل فيها كل يوم الف صانع مع كل صانع (12) اجيرا فالجملة ثلاثة عشر الفا حتى تمت في (16) سنة فكان فيها (4300) سارية و(15) بابا وقدر ما انفق عليها من بيت مال المسلمين بما يقارب ستمائة وخمسين قنطارا فضة خالصة وكانت على ثلاثة اقسام قسم فيه قصر السلطنة وقسم فيه خدمه وقسم فيه منتزهه وعلى سورها (300) برج ولم يغنها ذلك شيئا دخل بها القضاء المبرم فقد دخلها البربر سنة (400) واحرقوها وخربوها ونهبوا ما فيها حتى لم يبق منها الا الرسوم والاطلال وقد ذكرها الشعراء في قصائدهم كثيرا ومن بينهم ابو الوليد بن زيدون القاتل.

والافق طلق ووجه الارض قد راقا

اني ذكرتك بالزهراء مشتاق

كأنما رق لي فاعتل اشفاقا

وللنسيم اعتلال في اصائله

هكذا في النسخة المنقول منها وهي من طبع الافرنج ومصححة باعثناء كامل وأما العلامة الضبي فانه ذكر في تاريخه المطبوع ببلاد الافرنج ايضا انه توفي سنة 387 والفرق بينهما فاحش فليتأمل .

وتكلم عليها الادريسي المالكي المولود في عشرة التسعين من المائة الخامسة في تاريخه فقال ومدينة تنس على مقربة من ضفة البحر الملح على ميلين منه وبعضها على جبل وقد أحاط به السور وبعضها في سهل الارض وهي مدينة قديمة ازلية عليها سور حصين وحضيرة مانعة دائرة بها وشرب اهلها من عين ولها في جهة الشرق واد كثير الماء وشربهم منه في ايام الشتاء والربيع وبها فواكه وخصب واقلاع وحط وبها اقاليم واعمال ومزارع وبها الخنطة ممكنة جدا وسائر الحيوانات موجودة وتخرج منها الى كل الافاق في المراكب وبها من الفواكه كل طريفة ومن السفرجل الطيب المعنق⁶⁷ ما يفوت الوصف في صفته وكبره وحسنه اهـ وذكر في صحيفة 82 ان بينها وبين مدينة تلمسان التي ينتهي عند عملها ملك بني رستم تسع مراحل وقال في كيفية السير فيها هكذا

تخرج من تلمسان (مشرقا) الى قرية العلوين وهي قرية كبيرة عامرة على ضفة نهر ولهم بها جنات ومياه جارية من عيون ومنها الى قرية (بابلوت) مرحلة وهي قرية جليلة كثيرة الاهل والعمارة على نهر ليس به ارجاء وتسقى منه مزارع ومن بابلوت الى قرية (سي) التي على نهر مرغيت مرحلة وهو صغير والعيون بها والمياه تطرد في كل وجهة ومنها الى رحل الصفصاف مرحلة وهو رحل عامر آهل على نهرياتي من (افكان) من جهة المشرق ومن الرحل الى افكان مرحلة⁶⁸ ثم ذكر في صحيفة 88 جملة قبائل منها ورماسين وورشفانة ومغراوة وبنو راشد وزقارة وذكر ان مواطنهم بين تلمسان (وتاهرت) ثم قال وكل هذه القبائل بطون زناتة () وهم اصحاب هذه الفحوص وهم قوم رحالة طواعن ينتجعون من مكان الى مكان غيره لكنهم متحضرون وأكثر زناتة فرسان يركبون الخيل ولهم عادية لاتومن ولهم معرفة بارعة وحذق وكياسة ويد جيدة في علم الكتف اهـ

وقد تعرض لها صاحب كتاب دائرة المعارف فذكر أنها كانت مدينة عظيمة ذات تجارة واسعة مع عرب اسبانيا وأن الماء خرجها في حد ودنيف وعشرين وستمئة وتراجع اليها بعض اهلها ودخلها ابو الربيع الملياني في تلك المدة وهم ساكنون بين الخراب ثم قال ومنذ القرن الثالث عشر (مسحيا) صارت قصبة مملكة صغيرة خرجها خير الدين سنة 1518 (مسيحية) ثم ذكر ما هي عليه وقت تأليف الكتاب من الحالة وهي لا تبعد عما هي عليه الآن⁶⁹.

حالتها الحاضرة

فقال وسنة 1843 (أي في اوائل عشرة الستين بعد الف ومأتين هجرية) دخل (تنس) الفرنسيون وانشأوا الجانب الحديث منها سنة 1848 وهي الآن ذات اسواق جميلة وأبنية بهيجة ومنازل عسكرية ومستشفى وبها قناة

كما حللت من اللبات اطواقا
بتناها حين نام الدهر سواقا

والروض عن مائه الفضي مبتسم
يوم كأيام لذات لنا انصرمت

67- اي له عنق طويل كعنق الكمثرى مثالا.

68- أي ومن افكان الى المعسكر مرحلة ومنها الى جبل فرحان ثم مدينة يبل مرحلة ومنها الى مدينة غرة ثم سوق ابراهيم مرحلة ومنها الى بلدة التين مرحلة ومنها الى تنس مرحلة فهذه تسع مراحل.

69- هذا كله كان في زمن تأليف الكتاب ومن ذلك الوقت الى الآن ما يقرب من خمسين سنة وهي كل يوم في التقدم فلا شك أنها زادت على ذلك كثيرا والله اعلم .

رومانية اصلحت وجر فيها الماء من مسافة (5) كيلو مترات وفيها كثير من العيون منها لكل محل نبع فضلا عن العيون العمومية وهي قصبة دائرة تشتمل على 11 الف نفس من القبائل البربرية و9 آلاف من العرب والمدينة ذات تجارة رائجة يرجي سرعة تقدمها لأن محاصيل ولاية (اوليانفيل)⁷⁰ تنقل اليها وقد بلغت قيمة وارداتها سنة 1854 سبعة وخمسين الف فرنك وصادراتها مليوني فرنك لكن مرفاها يحتاج الى اصلاح وفي ضواحيها معادن نحاس وافرة الركاز تكون لها بما يوما ما ثروة جزيلة وعدد سكانها بلغ سنة 1856 نحو 2600 نفس ويقال ان أهلها القدماء اشتهروا بالسحر وأن منهم كان سحرة مصر أيام فرعون موسى (عليه السلام) اهـ

ومنها مدينة وهران

وهي من تلمسان على ثلاث مراحل تقريبا وقد قال الادريسي فيها هكذا مدينة وهران على مقربة من ضفة البحر وعليها سور تراب متقن وبها اسواق مقدرة وصنائع كثيرة وتجارات نافعة وهي تقابل مدينة المرية من ساحل الاندلس ولها على بابها مرسى صغير لا يستر شيئا (من السفن اذا هاج البحر) ولها على ميلين منها امرسى الكبير وبه ترسي المراكب الكبار والسفن السفرية وهذا المرسى يستر من كل ريح وليس له مثال في مراسي حائط البحر من بلاد البربر وشرب أهلها من واد يجري اليها من البر وعليه بساتين وجنات وبها فواكه ممكنة وأهلها في خصب والعسل بها موجود وكذلك السمن والزبد والبقر والغنم بها رخيصة بالثمن اليسير ومراكب الاندلس اليها مختلفة وفي أهلها دهقنة وعزة نفس ونخوة اهـ وقال البكري البكري (وهران) مدينة حصينة ذات مياه سائحة وارجاء ولها مسجد جامع وبني مدينة وهران محمد بن أبي عون ومحمد بن عبدون وجماعة من الاندلسيين الذين ينتجعون مرسى وهران باتفاق منهم مع نفزة وبني مسقن وهم من أزداجة وكانوا من أصحاب القرشي⁷¹ سنة 290 (في آخر دولة بني رستم) فاستوطنوها (7) أعوام وفي سنة 297 (لما أدبر أمر بني رستم) زحف اليها قبائل كثيرة يطالبون أهلها باسلام بني مسقن⁷² فخرجوا ليلا هارين واستجاروا بأزداجة وتغلبوا على مدينة وهران وخرت واضمرت نارا ثم عاد أهلها اليها بعد سنة 298 بأمر ابي حميد دواس بن صولات () وابتدأوا في بنائها وعادت احسن ماكانت وولى عليهم داوود بن صولات اللهيصي محمد بن ابي عون فلم تزل في عمارة وزيادة الى أن وقع يعلي بن محمد بن صالح اليفري بأزداجة في ذي القعدة من السنة المذكورة فبدد جمعهم وحرق مدينة وهران ثانية وخرها وكذلك بقيت سنين ثم تراجع الناس اليها وينسب اليها ابو القاسم عبد الرحمن ابن عبد الله بن خالد الحمداني الوهراني يروي عن ابي

70- ارليانفيل هي قصبة جهة من عمل الجزائر واقعة على ضفة وادي شلف اليسرى تبعد عن الجزائر بقدر (210) كيلو مترا الى الجنوب الغربي بناها الفرنسيون سنة 1842 وهي مدينة حسنة البناء وأزقتها منتظمة وبها مسرح ويقام بها سوق في يوم الأحد من كل اسبوع ووجدوا فيها آثار كنيسة قديمة منها بلاط مزين بالفسفساء اهـ

71- اراد بالقرشي صاحب الاندلس فان ابن خلدون ذكر أن من رجال الأمويين الذين ملكوا وهران ابن ابي عون هذا ومن معه دخلوها في هذا التاريخ وخطبوا لبني امية الاندلس ولعل هؤلاء جدودها تجديدا ولم ينشئها انشاء كما يوخذ من هنا والا فكيف يذكرها العلامة البنا فيما ذكره لني رستم فتأمل

72- بنو مسقن بطن من يكون أزداجة التي هي بطن من البرانس البربر وقد رسمها بعضهم هكذا (مسكن) بالكاف مكان القاف ولعل القبيلة المعروفة الآن ببني يسقن في وادي ميزاب من هذا البطن وابدل اللسان الميم ياء لطول العهد وقوله باسلام أي بمسالة واتحاد بني مسقن معهم على مطالبة أهل وهران فالضمير في قوله خرجوا يعود الى أهل وهران لا الى بني مسقن معهم على مطالبة أهل وهران فالضمير في قوله خرجوا يعود الى أهل وهران لا الى بني مسقن كما هو ظاهر والله اعلم

بكر احمد بن جعفر القطيعي روى عنه ابن عبد البر وابو محمد بن حزم الحافظ الاندلسي اهـ هذا حالها القديم واما بعد ذلك فقد ذكر الشيخ مقديش ان افرنج الاندلس قد استولوا عليها مرارا واخرجهم منها المسلمون قال وساعة تاريخ الكتاب سنة (1207) سبع ومائتين والى بأيدي المسلمين فتحها الامير محمد باي أحد امراء الجزائر سنة (1205) خمس ومائتين وألف

حالتها الحاضرة

وأما الآن اعنى سنة (1325) فهي بيد الدولة الفرنسية من الافرنج تابعة لولاية الجزائر مستبحرة العمارن متقدمة في التمدن الاوروي بها من السكك الحديدية والانوار الكهربائية والاسلاك التلغرافية والمباني الفخيمة والاسواق التجارية ما بغيرها من المدن الكبيرة وهي احدى الموانى الشهيرة الآن بها من تجار الاباضية بني ميزاب جماعة لهم القدر المعلى في ميادين التجارة والله اعلم

ومنها مدينة شلف

وبينها وبين مدينة يلى مرحلة قال ابن حوقل وهي مدينة ذات سور وحصن ونهر واشجار ومزارع اهـ (ولا منافاة بين هذا وبين ما سياتي من خرابها اذ كل في زمان وقد تكلم على شلف صاحب كتاب المعارف بما هو اوضح اذ قال وشلب ايضا (بالباء) او شليف على لفظ الافرنج نهر بالجزائر يسميه المغاربة وادي شلب وهو أهم أنهر تلك البلاد وتجري القوارب فيه في قسمه الأسفل وهو مؤلف عند أعلاه من جدولين ينحدران من جبل (امور) وبعد اتحادهما يسمى وادي الطويل ويجرى شرقا الى (تاجوين) حيث استولى (دوق أو مال) على معسكر (الامير) عبد القادر سنة 1843 ثم يقطع سهل سرسو ثم ينصب اليه من ضفته اليمنى جداول تجري من جبل الناطور تتألف من 70 نبعاً ثم اذا وصل الى بوغر يسمى باسم شلب ويصب في البحر المتوسط بين (تنس) و(أرسوف) على 13 كيلو مترا من مستغانم الى الشمال الشرقي وينصب اليه قبل قبل وصوله الى البحر جدولان آخران من ضفته اليسرى وطول مجراه (260) كيلو مترا وتلاعه⁷³ عمارات متصلة وكروم وبها من السفرجل كل بديع ولها سوق وحمام وسوقها يجتمع اليها أهل تلك الناحية اهـ

ومنها مدينة افكان

وقد قال فيها الادريس مدينة كانت (في مدة بني رستم) لها ألجاء (تدور بالماء) وحمامات وقصور وفواكه كثيرة وكان عليها سور وتراب لكنه الآن (في أول المائة السادسة) تقدم وبقي أثره وواديها يشقها نصفين ويمضي منها الى (تاهرت) وقال ابن حوقل وافكان مدينة لها أرحية وحمامات وقصور وفواكه وكانت (بعد بني رستم) ليعلى بن محمد ذات سور من تراب في غاية الارتفاع والعرض وواديها يشقها نصفين ومنها الى (تيهرت) بالعرض الى المشرق ثلاث مراحل وافكان على واديها أعمال عريضة وأجنة ومزارع اهـ

ومنها مدينة غزة

وقد قال الإدريسي فيها هي مدينة صغيرة القدر فيها اسواق مشهورة مشهود لها يوم معلوم وبها حمام وديار حسنة ولها مزارع وذكرها ابن حوقل بمثل هذا وقال وهي مدينة صالحة

(ومنها سوق ابراهيم)

وبينها وبين غزة مرحلة واحدة وقد ذكرها ابن حوقل بقوله وهي مدينة ايضا صغيرة فيها حمام وسوق وهي على نهر شلف اهـ قال الصفاقسي ومن سوق ابراهيم الى بدة التين مرحلة وهي بلدة صغيرة حسنة كثيرة شجر التين جدا ويعمل بها من التين شرائح أعظم من الطوب () وبذلك تسمى ويحمل منها الى كثير من الأقطار ومنها الى مدينة تنس مرحلة اهـ

ومنها واريفن

وهي على مرحلة من مدينة تنس في جبال وعرة شاهقة متصلة وعلى مرحلة ايضا من الخضراء وقد قال فيها الصفاقسي قرية كبيرة (لا مدينة) لها كروم وجنات ذوات سوان لزراع البصل والكمون ومعظمها على نهر شلف

(ومنها مدينة اوزكي)

وقد ذكرها المؤرخ البنا المتقدم في مدن تيهرت ثم كررها في مدن فاس فاما ان تكون هذه غير تلك والاسم واحد واما ان يكون التكرار اشارة الى انها تارة تتبع تيهرت وتارة تتبع فاس وعلى كل حال فقد ذكرها المؤرخون كغيرها منهم الإدريسي في نزته قال وأما مدينة اوزكي فانها من بلاد مسوفة ولمطة وهي اول مراقي الصحراء ومنها الى سجلماسة 13 مرحلة ومنها الى نول 7 مراحل وهذه المدينة ليست بالكبيرة لكنها متحضرة واهلها يلبسون مقندرات ثياب الصوف ويسمونهم القداور الى ان قال وتسمى هذه المدينة بالبرية (آزقي) وبالجنارية (قوقدم) ومن اراد الدخول الى بلاد (سلي) وتكرور وغانة من بلاد السودان فلا بد له من هذه المدينة اهـ والظاهر ان هذه بعيدة ومنفصلة عن عمل تيهرت المتصل بها وكأنها كانت مع هذا البعد تابعة لها كما هو واقع في ولايات كثيرة مثل جبل نفوسة ويعبر عنها لأن بالمستعمرات والله اعلم

ومنها مدينة الغدير

قال الحموي بلد أو قرية على نصف يوم من قلعة بني حماد بالمغرب ينسب اليها عبد الله الغديري المؤدب احد العباد اهـ

وقال الإدريسي مدينة حسنة وأهلها بدو ولهم مزارع وأرضون مباركة والحراث بها قائم الذات والاصابة في زروعها موجودة والبركات في معاملاتهم كثيرة وقال صاحب كتاب الاستبصار المؤلف سنة 587 وهي مدينة كبيرة أزلية بين جبال قد احدثت بها ولها نهر يجتمع من العيون في موضع دهن يخرج منه هذا النهر ويسمى نهر سهور ويمشي من هناك الى مدينة المسيلة وهو نهرها ثم قال ويقرب مدينة الغدير فحص عجيسة وهو فحص مدبر كثير الزرع والضرع الا انه شديد البرد والتلج ولقد دخلت هذا الفحص في زمان الصيف فرأيت الجليد يزل فيه بالعدو وفي امثال تلك البلاد (برد عجيسة في الصيف واما في الشتاء لسكرات الموت) اهـ

ومنها مدينة زلاغ

ولم نقف لها على ذكر في كتب التاريخ سوى ما ذكره صاحب الاستبصار حيق فال في (قلعة ابي جندب) وكانت مدينة كبيرة لها أسواق ولها جنات وأشجار وهي كثيرة الزرع والضرع مشحونة بالعمائر متصلة الخارث والمزارع في السهول والجبال منها جبل زالغ (وقد رسمه هكذا) وهو مشرف على مدينة فاس كان فيه حصن بناه المظفر بن ابي عامر اهـ

ومنها مدينة يلل

وهي غير بعيدة عن مدينة غزة قال الادريسي بما عيون ومياه كثيرة وفواكه وزروع وبلادها جيدة الفلاحة وزروعها نامية اهـ أقول وقد استقلت هذه المدينة زمنا عن تيهرت وصارت دار امارة اباضية صغيرة كما سيأتي والله اعلم

ومنها مدينة قصر الفلوس

ولم يذكر المؤرخون عنها فيما رأيناه شيئا اكثر من انها مدينة بالمغرب قريبة من مدينة وهران ومنها مدينة كرا وقد كتبه الحازمي هكذا (كران) وقال حصن على مدينة شلف بالمغرب في بلاد البربر وذكره ابن حوقل وقال هو حصن أزلي يقال له سوق كران وبينه وبين مليانة مرحلة وبينه وبين اشير ثلاث مراحل وكتبه الشيخ مقديش هكذا (كرتاية) وقال وهو حصن قديم له مزارع وأسواق وهو على نهر شلف وله سوق يوم في الجمعة يقصده بشر كثير اهـ وقد ذكره الحموي ورسمه كالاولين والله اعلم

زيادة

ويدخل ايضا في دائرة (تيهert) عدة مدن ذكرها المؤرخون ولم ينبه عليها العلامة البنا لأن من قواعده أن لا يتعرض غالبا الا للمدن الكبيرة المشهورة

(منها مدينة انكاد)

ولها على تيهert ثلاث مراحل الى ناحية تلمسان قال الحموي كانت قديما ذات سور من تراب في غاية الارتفاع والعرض وواديه يشقها نصفين اهـ ومنها مدينة مازونة وهي على حصن فروخ في البر الى الشرق على ستة أميال من البحر قال الادريسي فيها وهي مدينة بين اجبل وهي اسفل خندق ولها اثمار ومزارع وبساتين وأسواق عامرة ومساكن مؤنقة ولسوقها يوم معلوم يجتمع اليه أصناف من البربر بضروب من الفواكه والألبان والسمن والعسل كثير بها وهي من أحسن البلاد صفة وأكثرها فواكه وخصبا اهـ

ومنها قلعة هوارة

وقد ذكرها صاحب الاستبصار على اثر (تيهert) عند ذكره مدن الغرب الاوسط فقال وهي قلعة منيعة في جبل خصب فيه بساتين وثمار وأشجار ومزارع وأعنان وتحتها فحص طوله نحو اربعين ميلا يشق به نهر سيرات ويسقي

أكثر ارضه يسمى ذلك الفحص سيرات باسم النهر ونهر سيرات نهر كبير مشهور يقع في البحر عند مدينة (ازواوا) وهي مدينة قديمة رومية وفحص سيرات يسكنه قبائل كثيرة من البربر مطهرة وغيرهم من

قبائل زناتة وزناتة تشعبت على قبائل كثيرة وبلادهم واسعة الى أن قال وللمغرب الاوسط مدن كثيرة قد ذكرنا اكثرها في البلاد الساحلية وهي كثيرة الخصب والزرع كثيرة الغنم اهـ والمذكور في النخبة انما تسمى (بالبربرية) تاشقذالت وانما على جبل فيه معدن الحديد والزئبق .

(ومنها مدينة مليانة)

ولها على تيهرت ثلاث مراحل وعلى الخضراء مرحلة واحدة وقد ذكرها الادريسي بقوله وهي مدينة قديمة البناء حسنة البقعة كريمة المزارع ولها نهر يسقي اكثر مزارعها وحدائقها وجنائها ولها ارحاء على نهرها المذكور (تدور بقوة الماء) ولاقليمها حظ من سقي نهر شلف وعلى ثلاث مراحل منها وفي جنوبها الجبل المسمى بجبل وانشرش يسكنه قبائل من البربر (اباضية وغيرهم) منها مكناسة واورية وبنو ابي خليل وكنامة ومطماطة وبنو مليلة وبنو ورتجان وبنو ابي خليفة ووصلات وزواوة ونزار ومطغرة ووارترن وبنو ابي بلال وايزكرو وبنو ابي حكيم وهوارة وطول هذا الجبل اربعة ايام وينتهي طرفه الى قرب تاهرت اهـ باختصار وقال صاحب كتاب الاستبصار مدينة مليانة قرية من مدينة اشير () وهي مدينة كبيرة من بنيان الروم جددتها (بعد بني رستم) زيرو بن مناد ايضا وفيها آثار قديمة وهي مدينة حصينة في سفح جبل يسمى زكار وشعار هذا الجبل كله ريجان وتنبعث منه عين خراطة عظيمة تطحن عليها الارحية لقوتها وللمدينة مليانة مياه سائحة وبساتين فيها جميع الفواكه وهي من أخصب بلاد افريقية () وأرخصها اسعارا ومدينة مليانة مشرفة على فحوص واسعة وقرى كبيرة عامرة ومزارع واسعة وحوها قبائل كثيرة من البربر ويشق تلك الفحوص نهر شلف وهو نهر كبير مشهور وعلى نهر شلف مدينة أزلية فيها آثار أولية تسمى شلف واليها ينسب النهر الكبير وهي اليوم خراب والله اعلم وقد ذكرها الحموي ايضا بمثل هذا

حالتها الحاضرة وهي الآن ذات حضارة ومدنية من الأهمية بمكان وفيها من تجار الاباضية بني ميزاب رجال افاضل ومنها مدينة تاجنة وقد ذكرها صاحب المعجم بقوله بفتح الجيم وتشديد النون مدينة صغيرة بافريقية بينها وبين تنس مرحلة وبين سوق ابراهيم مرحلة اهـ ومنها مدينة أشير قال صاحب الاستبصار بناها (أي جددتها) زيرو بن مناد الصنهاجي وتعرف بأشير زيرو () وكانت مدينة قديمة فيها آثار عجيبة وانما بني زيرو سورها وحصنها وعمرها فليس في تلك الاقطار احسن منها وهي بين جبال شامخة محيطة بها وداخل المدينة عينان لا يبلغ لهما غور ولا يدرك لهما قعر من بناء الاوائل والقرب من المدينة بنيان عظيم عجيب يعرف بمحراب سليمان لم ير بنيان اعظم منه ولا احكم فيه من الرخام والاعمدة والنقوش ما يقصر عنه الوصف والله اعلم اهـ اقول وكان تجديد هذا المذكور بعد انقضاء دولة بني رستم وذلك لما ادعى زيرو الامارة سنة 324 وهو جد المعز بن باديس وتملكها بعده بنو حماد وهم بنو عم باديس وقاموا بني عمهم ملوك افريقية المعروفين بآل باديس كما ذكر في المعجم والله اعلم ومنها المعسكر وتعرف اليوم بأم عسكر وبينها وبين تاهرت مرحلة قال الادريسي فيها هكذا والمعسكر قرية عظيمة لها انهار وثمار ومنها الى جبل فرحان مارا مع اسفله الى قرية عين الصفصاف وبها فواكه كثيرة وزروع ونعم دارة مرحلة ومنها الى مدينة يلل مرحلة اهـ

(حالتها الحاضرة)

اقول وهي الآن (سنة 1325) من اشهر مدن الجزائر ذات سور محكم جديد وأسواق حافلة 33

واشجار متنوعة بلغت في المدينة الحديثة ما تضاهي به المدن الشهيرة وبها من تجار الاباضية بني ميزاب جماعة لهم الاسم
اخترم في دوائر التجارة وبها في الغالب مقام قاضي محكمتهم الشرعين الحاكمة على قسم وهران من تلك الجهات ()
وقد زرتها سنة (1316) في اول شهر رجب عند رجوعي من استاذي التحرير قطب الائمة علم الاعلام شيخ
الاسلام والمسلمين احمد بن يوسف الميزابي ومعي جماعة من ادباء وافاضل بني ميزاب وفي يوم الاثنين الموافق 6 من
الشهر زرنا محل سراق الامام يوسف بن محمد بن افلح الذي كان يضربه فيه عند استعراضه العساكر وجمعه الجيوش
ولذلك سميت هذه المدينة بهذا الاسم فيما يقال وهو موضع فيه بعض ارتفاع على ما يليه في مستوى من الارض بعيد
عن المدينة بمقدار 2 كيلو متر وقد نبت فيه سدرية يعقد امامها جماعة بني ميزاب عشية كل خميس غالبا مجلس قرآن
ويوزعون الصدقات على فقراء المدينة الذين يأتون اليهم هنا لك لشهرة ذلك عندهم وأعراب تلك الجهة يعتقدون
فيه البركة رغما عن علمهم بأنه للاباضية ويشهدون له بكرامات متعددة (منها) انهم استسقوا مرارا لقحط أصابهم
فلم يسقوا ولما استسقى فيه بنو ميزاب على الطريق المستون لم يصلوا باب المدينة حتى ابتداء الغيث وكان سيل عظيم
(ومنها) ان اعرابيا رأى والدته في المنام وقالت له لم يبق لكم مكان لاجابة الدعاء الا مقام الامام يوسف (ومنها) ان
صبيها هجر رضاع أمه حتى توقعت هلاكه ولما ذهبت به الى هذا المقام سألت الله شفاه من تلك العلة رضع في الحال
هكذا سمعت من بعضهم والله اعلم بالحقائق وقد رأيت في سور المدينة قبة صغيرة فعجبت من ترك الحكومة اياها ولما
سألت عنها قيل لي ان فيها ضريحاً يقال انه لولي من قدماء الاباضية ولما عازمت الحكومة الفرنسية على هدمه عند
تأسيسها للسور رأيت من كراماته ما صدها عن ذلك فجددت القبة ورفعت السور عليها ولذلك كان بعضها داخل
السور وبعضها خارجه كما هو مشاهد والعهد على المخبر في ذلك وما كتبت الا ما سمعته ولا غرابة فيه والله اعلم
وأحكم هذا ما تكلم عليه المؤرخون من المدن الداخلة في دائرة (تيهت) ايام بني رستم ولم نقف على ذكر لغيرها الا
أن الادريسي ذكر في نزته بعض مدن ومراسي متعددة فيما بين (وهران) وبين (تنس) ولعدم الاطلاع على تواريخ
تأسيسها تركت ذكرها اذ ربما تكون حديثة الوجود ومن تتبع التواريخ رأهم يجعلون (تاهرت) مركزاً وسطاً لتقدير
مسافات البلاد وبيان طرق المدن في الغرب كله فيقولون في المدينة او البلد ولو كانت بعيدة بينها وبين تيهت كذا
وكذا مرحلة او ميلاً مثلاً وكأنها لشهرتها كانت معلومة لكل احد والله اعلم (العلماء المنسوبون الى تيهت) وينسب
اليها من العلماء والأدباء والشعراء والعباد من الاباضية وغير الاباضية الذين اخذوا العلم بها أو نزلوها ايام بني رستم
او بعدها ما نحتاج في حصره الى تطويل .

(علماء الاباضية) أما الاباضية منهم فيعدون بالألف ومن أراد معرفتهم فعليه بتاريخ السماخي رحمه الله اذ هو
حاضرة الاولياء وروضة العلماء وان لم يحصرهم هو ايضا الا انه اتى بأغلب مشاهيرهم وان لم ينبه على ذلك ولم
يخصص له باب ونخص (منهم) بالذكرها هنا ذلك الشيخ الجليل العلامة النبيل ابا يوسف يعقوب ابن سيلوس الطرقي
السدراتي رحمه الله الذي قال فيه العلامة ابو العباس كما في السير العالم الفقيه الفطن النبيه اليقظان الذكي السور
الزكي ذو الجهادين الاكبر والاصغر والاجتهادين المصلي والدفتري كانت قراءته على الائمة بتاهرت قال له ابنه
اوصني فقال له ما أراك تقبل فتردد عليه ثلاثة ايام ولما رأى جده قال له (ونعمت الوصية) لا يكن نديك الناس الى
الخير اوكد من نديك نفسك ولا يكن غيرك اسبق الى الخير منك وكن للناس كالميزان وكالسليل للادران وكالسماء
للماء وكان رحمه الله ذا رأي صائب ونصيحة مخلصة مشهوراً بالمعروف موسوماً بالسخاء يقصده

احتاجون فيسدد أحوالهم ويستشيرهم الحائرون فيحسن دلائلهم وقد ذكر الشماخي رحمه الله أن رجلا من أهل دمر قصده في مجاعة يطلب منه الإعانة ولما رأى أن الكثير ربما يجحف به حيث كان القحط عاما والقليل لا يجديه نفعا أمره أن يذهب إلى السوق ويستفهم عن أرخص شيء فيه ويرجع إليه فذهب وسأل ولما عاد قال له لم أجد أرخص من الأبل فأقرضه أربعة وعشرين دينارا فاشترى بها ثلاثة جمال وأحسن مرعاها إلى أن تحسنت حالتها فباع جملا منها بأمر الشيخ بأربعة وعشرين دينارا دفعها للشيخ وباع آخر واشترى بثمنه ما لزمه من الطعام وغيره وحمله على الثالث ورجع إلى أهله على أحسن حال باحسان الشيخ وتديبره وقد ولي القضاء بمدينة وارجلان فعدل في الحكم وأنصف في الفصل وله مصلي معروف باجابه الدعاء يزار رحمه الله ورضي عنه (ومنه) النقي اورع العلامة أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن الشيخ قاضي الامام أبي القبطان (ومنه) ابنه العلامة أبو محمد عبد الله قاضي الامام أبي حاتم وسيأتي ذكرهما (ومنه) الخطباء الخمسة المشهورون الآتي ذكرهم في كلام ابن الصغير (ومنه) الزاهد المتعفف الشيخ أبو سهل صاحب التأليف الكثيرة باللغة البربرية فإنه كان أفصح أهل زمانه فيها وكان ترجمانا للامام أفلح ثم للامام يوسف ومثله قيل بمرسى الخرز وقيل بمرسى الدجاج بجزائر بني مزغني قال في السير قال أبو العباس الغالب من أحواله إهمال الدمع والتلهف على أنت ليس له رجوع فجعل هجيريه في مرثي الدين وأهله والبكاء عليه بوابل الدمع وطله فدونت الدواوين من كلامه أهـ فكانت اثني عشر كتابا وعظا وتذكيرا وتخويفا وتاريخا لأهل الدعوة احترقت كلها لما أخذت قلعة بني درجين ففقدت كما وقع لكتب أهل المذهب كلها والأمر لله (ومنه) العلامة الشهير بالعدل الشيخ أبو عثمان سعد بن أبي يونس عامل الامام أفلح على قنطرة (ومنه) رفيقه في طلب العلم عن الامام بتيهرت ذلك الفهامة الذكي الذي كان يضرب بحفظه المثل نفثا بن نصر الذي ضل في بدى أمره عن الحق ومال وتاب في آخر عمره على ما يقال وستأتي أخباره مع الامام أن شاء الله

ومن شعرائها النبغاء صاحب القصيدة الآتية القائل فيها

(سقى الله تيهرت المني وسويقة بساكنها غيثا يطيب به المحل)

ومنه الولي الصالح الزاهد معدن العلم والعمل أبو مرداس التبرستي حامل المذهب عن الامام عبد الوهاب رحمهما الله صاحب المناقب والكرامات المشهورة في الكتب

(ومنه) العلامة المشهور بالزهد والورع عيسى بن فرناس الذي ذكر ابن الصغير أنه كان يجلس أمام الامام أبي البقطان (ومنه) العلامة محمود بن بكر وهو من خواص الامام أبي البقطان أيضا وسيأتي كلام ابن الصغير فيه ومنهم المتكلم العظيم الشيخ عبد الله بن اللمطي الذي ذكره ابن الصغير وأثنى عليه وقال الشماخي عند ذكرهما وكان الشيخان (عبد الله بن اللمطي ومحمود بن بكر) غاية في علم الكلام وكانا يردان على الفرق وينقضان مقالات المبتدعة والفا كتبنا في ذلك أهـ ومنهم العلامة أبو عبيدة الأعرج قال فيه الشماخي رحمه الله وكان غاية في العلم والعمل والورع والادب وقال فيه ابن الصغير المالكي كلهم مقرون له بالفضل مسلمون له في الورع إذا اختلفوا في أمر من الفقه أو من الكلام صدروا عن رأيه وقد رأيت أنا هذا الرجل وجلست إليه فما رأيت في أسود الراس اخشع منه أهـ وله معه حكاية طويلة ستأتي ومنهم الفقيه الكامل ابن العفيرة والفقيه البار عبد العزيز بن الأوز الآتي ذكرهما في كلام ابن الصغير

المشكوك فيه وأما الذين لم تتحقق مذهبهم فمنهم ذلك العلامة الأديب صاحب النظم العجيب

والانشاء الغريب المشهور في الشرق والغرب بين أرباب العلم والادب (وهو اما أباضي أو صفري على الغالب) بكر
بن حماد بن سهل بن ابي اسماعيل ازناقي المتقدم الذكر القائل في حق (تيهت)
ما أحشن البرد وريعانه وأطرف الشمس (بتاهت)
وهو القائل مادحا ابا العيش عيسى بن ادريس العلوى حاكم مدينة جراوة المجاورة لتاهرت على ثلاث مراحل
منها

سائل زواغة عن طعان سيوفه ورماحه في العارض المتهلل

وديار نفزة كيف داس حريمها والخييل تمرغ في الوشيح الذبل

غنى مغيلة بالسيوف مذلة وسقى جراوة من نقيع الحنظل

قال ذلك المراكشي في تاريخه وذكر انه ولد ونشأ (بتيهت) ورحل الى الشرق سنة 217 وهو حدث السن (أي
في دولة الامام افلح ولعله ذهب هاربا على ما يؤخذ من ابياته التي قالها يستعطف بها الامام ابا حاتم كما سيأتي فسمع
بالمشرق من العلماء والفقهاء وكان عالما بالحديث وتميز الرجال وشاعرا مفلقا ومدح المعتصم ووصله بصلات جزيلة
 واجتمع بحبيب وصرع ودعل وعلى بن الجهم وغيرهم من شعراء العراق وله ابيات الى المعتصم يحرضه فيها على
دعل وهي

أيهجو امير المؤمنين ورهطه ويمشي على الارض العريضة دعل

أما والذي ارسى تبرا مكانه لقد كادت الدنيا لذاك تزلزل

ولكن أمير المؤمنين بفضله يهم فيعفو او يقول فيفعل

فعاتبه حبيب فيه وقال له قتلته والله يا بكر فقال في قصيدته هذه

وعاتبني فيه حبيب وقال لي لسانك محذور وسمك يقتل

واني وان صرفت في الشعر منطقي لأنصف فيما قلت فيه وأعدل

ولما عاد من المشرق قصد القبروان فوشى به الى صاحبها فهرب وكان معه ابنه عبد الرحمن فاعترضهما في الطريق
بعض اللصوص فجرحوا بكرا وقتلوا ابن وذهب هو في طريقه الى ان وصل (تيهت) كتيبا حزينا يندب ابنه عبد
الرحمن هذا وكانت له فيه مرات كثيرة تسيل الدموع وتجرح الفؤاد لما بها من الالفاظ المؤثرة الدالة على عظيم أسفه
وتلهفه عليه ومنها قوله

(بكيت على الأحبة اذ تولوا ولو أني هلكت بكوا عليا)

فيانسلي بقاؤك كان ذخرا وفقدك قد كوى الاكباد كيا

كفى حزنا بأني منك خلو وأنك ميت وبقيت حيا

ولم اك آيسا فينست لما رميت التراب فوقك من يديا

فليت الخلق اذ خلقوا اطاعوا وليتك لم تكن يا بكر شيا
تسر بأشهر تمضي سراجا وتطوي في لياليهن طيا
فلا تفرح بدنيا ليس تبقى ولا تأسف عليها يا بنيا
فقد قطع البقاء غروب شمش ومطلعها على ياأخيا
وليس أهم يجلوه نهار تدور له الفراقد والثريا
وله في الزهد والمواعظ وذكر الموت وأهواله شعر كثير وهو في قوة التأثير والقبول بمكان ومن ذلك ما رواه عنه
ابن اللباد وهو قوله

لقد جهت نفسي فصدت وأعرضت وقد مرقت نفسي فطال مروقها
فيا أسفي من جنح ليل يقودها وضوء نهار لا يزال يسوقها
لي مشهد لا بد لي من شهوده ومن جرع للموت سوف اذوقها
ستاكلها الديدان في باطن الثرى ويذهب عنها طيها وخلوقها
مواطن للقصاص فيها مظالم تؤدي الى اهل الحقوق حقوقها
سحاب المنايا كل يوم مظلة فقد هطلت حولي ولاح بروقها
وللنفس حاجات تروح وتغتدي ولكن أحاديث الزمان يعوقها
تجهمت خمسا بعد سبعين حجة ودام غروب الشمس لي وشروقها
وأيدي المنايا كل يوم ليلة اذا فتقت لا يستطاع رتوقها
يصبح اقواما على حين غفلة ويأتيك في حين البيات طروقها

ومن كلامه في الاعتبار بالنظر الى القبور والتفكر فيمن مضى من انشبت فيهم المنية اظفارها ما حكاها ابو بكر
اللباد حيث قال دخلت على بكر بن حماد فقال اكتب فأملى على نفسه قوله

زرنا منازل قوم لن يزوروا انا لقي غفلة عما يقاسونا
لو ينطقون لقالوا الزاد ويحكم حل الرحيل فما يرجو المقيمونا
الموت احجف بالدنيا فخرها وفعلنا فعل قوم لايموتونا
فالان فابكوا فقد حق البكاء لكم فالحاملون لعرش الله باكونا
ماذا عسى تنفع ادنيا مجمعها لو كان جمع فيها كثر قارونا
اقول ولعله قال هذا لما حل (بتيهرت) بلده ما حل من قضاء الله كما يفهم من بعض كلامه عند التأمل ومن
كلامه ايضا قوله

لقد جفت الاقلام بالخلق كلهم فمنهم شقي خائب وسعيد
تمر الليالي بالنفوس سريعة ويبدؤ ربي خلقه ويعيد
ارى الخير في الدنيا يقل بكثرة وينقص نقصا والحديث يزيد
فلو كان خيرا قل كالخير كله وأحسب ان الخير منه بعيد
وقال ايضا مذكرا ولقد أحسن وأصاب

قف بالقبور فناد الهامدين بما
 من أعظم بليت منها وأجساد
 قوم تقطعت الاسباب بينهم
 من الوصال وصاروا تحت اطواد
 راحوا جميعا على الاقدام وابتكروا
 فلن يروحوا ولن يعدو لهم عاد
 والله والله لو ردوا ولو نطقوا
 اذا لقالوا التقى من افضل الزاد
 فبرز القوم وامتدت عساكرهم
 كيما يوافوا لميقات وميعاد
 ما بالقلوب حياة عند غفلتها
 والله سبحانه منها بمرصاد
 بينا نرى المرء في هو وفي لعب
 حتى نراه على نعش واعواد
 هذي ابا مالك دنيا منغصة
 فيها حرارات احشاء وأكباد
 وكلنا واقف منها على شفر
 وكلنا ظاعن يحدي به الحادي
 في كل يوم نرى نعشا نشيعه
 فرائح فارق الاحباب او غاد
 الموت يهدم ما بنينه من بدخ
 فما انتظارك يا بكر بن حماد

ذكر هذا صاحب كتاب رياض النفوس

وكان نقله من نسخة عتيقة جدا لا نقط فيها على الاصطلاح القديم مع رداء الخط فلا يفهم الا بالقوة والله اعلم

وقال في احمد بن القاسم بن ادريس حاكم مدينة (كرت) بالمغرب

ان السماحة والمروءة والندى
 جمعوا لاهم من بني القاسم
 واذا تفاخرت القبائل وانتمت
 فافخر بفضل محمد وبفاطم
 ويجعفر الطيار في درج العلا
 وعلى العضب الحسام الصارم
 ابي لمشتاق اليك وانما
 يسمو العقاب اذا سما بقوادم
 فابعث الى بمركب اسمو به
 على أكون عليك اول قادم
 واعلم بأنك لن تنال محبة
 الا ببعض ملابس ودراهم

فبعث اليه بغلة سنية وصلة جزيلة وكان له فيه من مثل هذا كثير على ما قاله صاحب البيان وقد ذكره العلامة
 محقق المعقول والمنقول ابو يعقوب يوسف بن ابراهيم الوارجلاني رحمه الله في سلسلة حديث ساقه في كتابه الدليل
 والبرهان حيث قال وروى عبد الوارث بن سفيان ويعيش بن سعيد قالوا اخبرنا قاسم بن اصغر قال اخبرنا بكر بن
 حماد الخ ولم يتعرض لمذهبه وذكر المراكشي ان وفاته كانت سنة 296 بقلعة ابن حمة بجوفي مدينة تيهرت وهو ابن
 ست وتسعين سنة والله اعلم

علماء غير الاباضية

واما علماء غير الاباضية فينسب منهم الى تاهرت جماعة نذكرها هنا بعض المشهورين منهم نقلنا عن مؤرخي
 افاضل المالكية فنقول (منهم) العلامة زكرياء بن بكر بن احمد الغسالي التاهرتي قال المؤرخ القرظي في تاريخ علماء
 الاندلس عند ذكر الغرباء لما تكلم عليه يعرف بابن الاشج والأشج هو احمد (والده) ويكنى ابا جعفر من أهل تيهرت
 يكنى ابا يحيى دخل الاندلس مع ابيه واخيه سنة 326 الى ان قال قال لي ولدت بتيهرت سنة 310 اهـ
 وذكر انه توفي في رمضان سنة 393 وذكره صاحب بغية الملتبس وخالفه في تاريخ وفاته مخالفة³⁸

فاحشة ان لم يكن تحريف في احدى النسختين قال في صحيفة 279 زكرياء بن بكر بن الاشج التاهري توفي بقرطبة سنة 524 والنسختان من مطبوعات الافرنج فتأمل ومثل هذا يتأكد على طالب الحق ان لا يعول على اقوال المؤرخين فيما يحتاج الى النظر والتدقيق الا بعد امعان الفكر (ومنهم العلامة عبد الله بن حمود بن هلوب بن داوود بن سيمان ذكره المؤرخ ابن بشكوال في الصلة فقال في صحيفة 293 يكنى ابا محمد طنحي فقيه موضعه وأصله من تاهرت اهـ

(ومنهم الأديب ابن هرمة وقد جاء قاصدا الاندلس فسمع بيت شعر لأحد علمائها فترك العبور اليها وبقي بتاهرت كما قاله صاحب البغية (ومنهم) ابو الطيب محمد بن احمد بن ابراهيم بن ابي بردة الشافعي البغدادي قال العلامة الفرزي ووصل ابو الطيب الى الاندلس سنة 361 فأكرمه أمير المؤمنين المستنصر بالله وأمر باجراء التزل له الى ان قال وكان ينسب الى (مذهب) الاعتزال ورفع ذلك الى السلطان فأمر باخراجه من البلد وكان في رجب سنة 373 فصار بتيهرت عند بنت له اهـ (ومنهم) العلامة محمد بن عيسى بن حنين التميمي القاضي نزيل سبتة ذكر العلامة ابن الأبار في معجمه بصحيفة 96 انه انتقل مع ابيه من فاس الى سبتة وأصله من (تاهرت) ويعرف بابن الدقاق ومنهم العلامة عبد الله بن محمد بن عيسى بن حسين التميمي التاهري نزيل سبتة ذكره ابن الأبار في الصلة منسوباً الى تاهرت بصحيفة 526 ومنهم العلامة الحسن بن علي بن طريف ابو علي النحوي نزيل سبتة قال ابن الأبار في المعجم بصحيفة 72 يعرف بالتاهري روى عنه القاضي عياض (ومنهم العلامة قاسم بن عبد الرحمن تلميذ ابن حماد نسبة المؤرخ الضبي الى (تاهرت) وقال في صحيفة (188) من البغية دخل الاندلس وكان من جلساء بكر بن حماد التاهري ومن اخذ عنه قاله ابو محمد بن حزم اهـ وذكر ابن بشكوال في الصلة انه من اهل الحديث (ومنهم) ابنه العلامة ابو الفضل قال ابن بشكوال في الصلة ومن الغرباء احمد بن قاسم بن عبد الرحمن بن عبد الله بن محمد التميمي التاهري البزاز يكنى ابا الفضل الى أن قال مولده يوم الثلاثاء عند انصداع الفجر في اول ربيع الاول سنة 309 وولد (بتاهرت) الى أن قال وكان ابوه محدثا قال ابو الفضل بدأت بطلب العلم سنة 334 وانا ابن 25 سنة ودخلت الاندلس سنة 317 وانا ابن ثمانية اعوام وتوفي في جمادى الآخرة سنة 395 اهـ وذكره الضبي في البغية ايضا وقال توفي سنة 396 فزاد سنة على ابن بشكوال واثنى عليه وقال وقد روي عنه ابو عمران الفاسي موسى بن عيسى بن ابي حاج فقيه القيروان وهو روى عن منذر ابن سعيد القاضي ومنهم ابن الخزاز وقد سافر الى البصرة المدينة المشهورة بالغرب وهي من فاس على اربع مراحل فأعجب بجمال نسائها كما ذكره الحموي نقلا من كتاب المسالك حيث قال ونساء البصرة مخصوصات بالجمال الفائق والحسن الرائق ليس بارض المغرب اجمل منهن قال احمد بن فتح المعروف بابن الخزاز التيهري يمدح ابا العيش عيسى بن ابراهيم بن القاسم

قبح الاله الدهر الا قينة
بصرية في حمرة وبياض
الخمر في لحظاتها والورد في
وجناتها والكشع غير نغاض

في شكل مرجي ونسك مهاجر وعفاف سني وسمت إبا
تبهرت انت خلية وبرقة
لا عذر للحمرء في كلفي بها
عوضت عنك ببصرة فاعتاض
أو تستفيض بأبجر وحياض

وساق المراكشي الحكاية بينها الا انه اتى بدلا من صدر البيت الاول بقوله

ماحاز كل الحسن الاقينة واتى بدلا من عجز البيت الثاني بقوله وجناها هيفاء غير مخاض
وهما ارق والطف من الاولين فيما يظهر ومنهم سعد بن اشكل التيهري القائل فيما تقدم يتشوق الى مدينة تيهرت
مسقط رأسه ويهجو مدينة تنس دار وفاته

واصبحت عن تيهرت في دار غربة واسلمني مر القضاء من القدر
الى اخر الابيات ومنهم العلامة السلفي قال الحموي والولجة ناحية بالمغرب من اعمال تاهرت نسب ايها السلفي
ابو محمد عبد الله بن منصور التاهري قال وكان من الفضلاء في الادب والفقه وله شعر وكتب عني من الحديث كثيرا
اهـ

مدينة سجلماسة

ولما انتهى الكلام بقدر الامكان على تيهرت وما نسب اليها من البلاد وما دخل في دائرتها ابان عمراتها بالاباضية
تحت سيادة بني رستم لزم ان تأتي استطرادا بطرف مما وصف به المؤرخون مدينة سجلماسة قاعدة ملك بني مدرار
التي كان بعض ملوكها اباضية كما سيأتي وكانت عامرة بالاباضية حافلة بعلمائهم يؤمها الادباء ورجال العلم من
اطراف البلاد للاستفادة كما يؤمون تيهرت وقد تكلم عليها المؤرخون فقال المؤرخ الحموي (سجلماسة)
بكسر اوله وثانية وسكون اللام وبعد الالف سين مهملة مدينة في جنوب المغرب في طرف بلاد السودان بينها وبين
فاس عشرة ايام تلقاء الجنوب وهي في منقطع جبل درن وهي في وسط رمال كرمال زروود ويتصل بها من شمالها جدد
من الارض يمر بها نهر كبير يخاض قد غرسوا عليه بساتين ونخيل مد البصر على اربعة فراسخ منها رستاق يقال له
تيومتين على نهرها الجاري فيه من الاعناب الشديدة الحلاوة مالا يحدو فيه ستة عشر نفا من النمر ما بين عجوة ودقل
واكثر اقوات اهل سجلماسة من الثمر وعتهم قليلة ولنسائهم يد صناع في غزل الصوف فهن يعملن منه كل حسن
عجيب بديع من الازر تفوق القصب الذي بمصر يبلغ ثمن الازار خمسة وثلاثين دينارا واكثر كأرفع ما يكون من
القصب الذي بمصر ويعملون منه غفارات يبلغ ثمنها مثل ذلك ويصبغونه بأنواع لأصباغ وبين سجلماسة ودرعه
اربعة ايام واهل هذه المدينة من اغني الناس واكثرهم مالا لأنها على طريق من يريد غانة التي هي معدن الذهب
ولاها جراحة على دخولها وقال الادريسي في التزهة وأما مدينة سجلماسة فمدينة كبيرة كثيرة العامر وهي مقصد
للوارد والصادر كثيرة الشجر والجنات رائقة البقاع والجهات ولا حصن عليها وانما هي قصور وديار وعمارات
متصلة على نهر لها كثير الماء يأتي اليها من جهة المشرق من الصحراء يزيد في الصيف كزيادة النيل سواء ويزدري بمائة
حسبما يزرع فلاحو مصر ولزراعته اصابة كثيرة معلومة وفي بعض الاعوام الكثيرة المياه المتواترة بخروج هذا النهر
ينبت لهم ما حصده في العام السابق من بذر وفي الاكثر من السنين اذا فاض النهر عندهم ثم رجع بذورا على
على تلك الارضين زرعهم ثم حصده عند تناهيه وتركوا جذوره الى العام القادم فينبئ ذلك من غير حاجة الى بذر
زراعة (وحكى) الخوقلي أن البذر بها يكون عاما والحصاد في كل سنة الى تمام سبع سنين لكن تلك الحنطة التي تنبت
من غير بذر تتغير عن حالها حتى تكون بين الحنطة والشعير وتسمى هذه الحنطة (يردن تيزواو) وبها نخل كثير وانواع
من الثمر لا يشبه بعضها بعضا وفيها الرطب المسمى بالبرني وهي خضراء جدا وحلاوتها تفوق كل حلاوة ونواها
صغار في غاية الصغر ولأهل هذه المدينة غلات القطن وغلات الكمون والكروياء والحناء ويتجهز منها
الى سائر بلاد المغرب وغيرها وبناتها حسنة غير أن المخالفين في زماننا هذا أتوا على أكثرها هدمًا وحرقوا⁴⁰

انتي .

وقال العلامة المقدسي (سجلماسة) قصبة جليلة على نهر بمعزل عنها يفرغ في قبليها وهي طولانية نحو القبلة عليها سور من طين وسطها حصن يسمى المعسكر فيه الجامع ودار الامارة شديدة احر والبرد صحيحة الهواء كثيرة الثمار والأعنان والزبيب والفواكه والحبوب والرمال والخيرات كثيرة الغرباء موافقة لهم يقصدونها من كل بلد ومع ذلك نغر فاضل برستانها معادن الذهب والفضة وهم اهل سنة وقوم () جياذ بها علماء وعقلاء لها باب القبلي باب الغربي باب غدير الجزارين باب وقف زناتة وغيرها وهي في رمال اهـ وقال صاحب المسالك ان سجلماسة مدينة عظيمة في جنوبي مدن بر العدو متصلة بالصحراء الكبيرة من اكبر مدن المغرب واشهرها ذكرها في الآفاق وعليها نهر كبير ذات قصور مشيدة وأبنية عالية وأبواب رفيعة صحيحة الهواء لجاورة البيداء الى أن قال وبها نخل كثير ثمره على أصناف يحمل منه الى عامة الغرب ويفضل ثمره ما سواه حتى يضاهي ب ثمر العراق وثمرها يضرب به في المغرب المثل ولها بساتين خضرة نضرة اهـ وكان لها اعمال واسعة ومدن كبيرة مشهورة ذكر العلامة البشاري منها في الحجاب هذه درعة تاد نفوست اثرايلا ويلميس حصن ابن صالح النحاسين حصن السودان هلال امصلى دار الامير حصن برارة الخيامات تازروت اهـ

وقد تكلم عليها المؤرخون فقال الادريسي في درعة (ودرعة) ليست بمدينة يحوطها سور ولا حفير وانما هي قرية متصلة وعمارات متقاربة ومزارع كثيرة يتناول ذلك فيها جمل واخلط من البربر وهي على نهر سجلماسة النازل اليها وعليه يزرعون غلات الحناء والكمون والكروياء والنبيلج ونبات الحناء يكبر بها حتى يكون في قوام الشجر يصعدون اليه ومنها يؤخذ بذره ويتجهز به الى كل الجهات ونبات الحناء لا يوجد بذره الا في هذا الاقليم فقط ولا يوجد بغيره من الاقاليم البتة وأما النبيلج المزروع في درعة فليس طيبه هناك ولكنه يتصرف به في بلاد الغرب لرخصه وربما خلط مع غيره من النبيلج الطيب ويباع معه اهـ

وقال العلامة البنا ودرعة لها رستاق واسع ومنابر على نهر جرار نحو 6 ايام و(عريش) رستاق فيه منابر وسائر المدن محيطة بها في الرمال عامرات ومعادن الفضة بتازروت ومعادن الذهب بين هذه الكورة وبلد السودان وليس في العالم اصفى ولا أوسع منه اهـ وهكذا تكلموا على غيرها من المدن والله اعلم وقد تلقى العلوم بسجلماسة رجال صاروا للدين حياة وللأمة هداة فسارت بذكرهم الركبان وافنخر بوجودهم الزمان ولو لم يكن منهم الا الشيخ العلامة ابو الربيع سليمان بن زرقون النفوسي لأغناها خرا كما خلد لها ذكرها فقد رحل اليها مع العلامة التحرير استاذ ابن الجمع من علماء اباضية الشرق وتجارها العظام ارتحل هذا الاستاذ من المشرق الى المغرب وقصد سجلماسة (قال الشماخي رحمه الله وكانوا يعني أهلها يومئذ من اهل الدعوة اهـ) فأقام بها خير مرشد وأفضل استاذ حتى انتهجت به محافلها وتنورت مجالسها وعمرت بالعلوم ربوعها ثم سار الى رحمة مولاه تاركا من تلامذته علماء راسخين ادباء مهذبين (منهم) ذلك الذكي الماهر الأمير ابو زيد مخلد بن كيداد اليفرنى الذي طغى وتجبر في آخر أمره حتى استوجب براءة المسلمين منه كما سنأتي بحكايته بعد هذا ان شاء الله ذكر هذا صاحب السير رحمه الله نقلا من تاريخ ابي زكرياء رضي الله عنه وقال في صحيفة 279 فحضره (أي الاستاذ ابن الجمع) الموت هناك (أي في سجلماسة) وأوصى بكتبه لأبي الربيع فرجع قسطلية (أي توزر ونفطة وما يليها من بلاد الجريد) واشتهر في العلوم واضطربت قسطلية كلها من اجله واختلف اهل سجلماسة بعد أن خرج من عندهم في مسألة كادوا

يقتتلون عليها فاتفق رأيهم على أن يرسلوا امينين الى ابي الربيع ليعملوا بما ينجيهم به فأدركه الرسولان واجابهم فأخذوا بما قال واصطلحوا اهـ ومن اخذ عنه التفسير والفقه واللغة والفنون كافة غير علم الكلام ذاك الامامان النيران فخر زمانهما وزهرة عصرهما ابو القاسم يزيد بن مخلد وابو خزر يغلى بن زلتاف رحمهما الله وسيأتي خبرهما والله اعلم

عود الى المقصود بالذات

خذنا ولنرجع الى ما كنا بصدده من أمر الامامة بالمغرب وظهورهما فيه فنقول (ثم اجتمع اهل الحل والعقد من العلماء والرؤساء وقالوا قد علم ما حل بنا من الشتات والافتراق بعد وفاة امامينا ومبارحتنا طرابلس وقد اجمعنا على انتخاب مكان غيرها يليق بمنصب الامامة ويكون ملجأ للاسلام واذا رزقنا والله الحمد بهذا المكان وتم تحصينة على حسب المرام وجب نصب امام اذا لا يستقيم امرنا ولا ينتظم شأننا ولا تجتمع كلمتنا الا بامام نرجع اليه في احكامنا ومشكلاتنا وينصف مظلومنا من ظالمنا ويقم فينا ما اوجهه الله ورسوله من حدود الشروع الشريف ويظهر الدين ويؤمن السبل ويحقن الدماء ويعضد قنطرة الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ويعدل في الرعية ويوسع دوائر العلوم فان ذلك كله مما لايسعنا التفريط فيه والتواني اذا كنا والله الفضل في درجة القيام بالامامة ولدينا من القوة عددا وعدة وعلمنا ماهو كاف لحمايتها والذود عن حوضها مع الاعتصام بالله تعالى فتبادلوا الرأي فيما بينهم بقلوب سليمة من داء الغش والنفاق مطهرة من شوائب كدورات الشقاق معطرة بذكي مسك الايمان منورة بأنوار الهداية والتوفيق والاذعان وذلك في القرن الثاني من الهجرة عام 160 ستين وقيل اثنين وستين ومائة .

(خلافة الامام عبد الرحمن رضي الله عنه)

فأستقر رأيهم بعد طول مذاكرة على نصب الامام الولي ناشر لواء العلم والدين عبد الرحمن بن رستم رحمه الله لما رأوه فيه من حميد الخصال ومجيد الاعمال ولعزم المسلمين على تقديمه بطرابلس لولا امتناعه ولرضاء الامام ابي الخطاب رحمه الله عن اذ ولاه قاضيا ثم عاملا كما مر وقد تكلم العلامة المؤرخ ابن الصغير المالكي المغربي في تاريخه على خلفاء بني رستم (بتيهرت) كالاما يروح الأنفس ويشفي الغليل تأتي ببعض ما وقفنا عليه منه مع الأسف على ما فقد ولم نعثر له على خبر كما بحثنا عنه (قال) عند ذكره لهذا الامام الجليل ما نصه (ثم نهضوا اليه بأجمعهم وقالوا يا عبد الرحمن رضيك الامام (ابو الخطاب) في ابتدائنا ونحن الآن نرضى بك ونقدمك على انفسنا فقد علمت انه لا يصلح امرنا الا امام نلجأ اليه في امورنا ونحكم عنده فيما ينوب من اسبابنا فقال لهم فقال لهم ان اعطيتموني عهد الله وميثاقه على الطاعة فيما وافق الحق وطابقه قبلت ذلك منكم فاعطوه عهد الله وميثاقه على ذلك وشرطوا عليه مثل ما شرط عليهم وقدموه على انفسهم والقوا اليه بأيديهم (قال ابن خلدون في 121 من 6 وبايعوه بالخلافة) فسار فيهم سيرة جميلة حمدها أولهم وآهرهم ولم ينقموا عليه في احكامه حكما ولا في سيره سيرة وسارت بذلك الركبان الى كل البلدان وكانت له قصص حكوها عنه لا يمكن ذكرها الا على وجهها وأن أتخرى فيها الصدق ولا احرفها عن معناها ولا ازيد فيها ولا انقص منها اذ النقص والزيادة فيه ليس في شيم ذوي المروآت ولا من اخلاق ذوي الديانات وان كنا للقوم مبغضين وليسرهم كارهين اهـ ثم شرع في بيان تلك القصص حسبما وعدنا أن في عباراته من التطويل وبعض التكرار ما هو معروف من تأليف أغلب المتقدمين فخذها مني أيا القارئ مقتبسة من 42

كلامه بعضا باللفظ وبعضا بالمعنى مشيرا الى ما كان بلفظه خالصا لأمر ما بكلمة (قال) والى ما كان باللفظ تارة وبالمعنى اخرى مع أضافة شىء غنن كلام غيره مما له الامام بالمقام بلفظة (مزوج) تشييطا للنفس بالتفنن في الاسلوب وطلبا للاختصار بطرح امكرر مع كمال التحري والله على ما اقول وكيل .

(قال) لما ولي عبد الرحمن بن رستم ما ولي من امور الناس شمر متزره وأحسن سيرته وجلس في مسجده للارملة والضعيف لا يخاف في الله لومة لائم وطار صيت في اطراف الارض شرقا وغربا حتى اتصل ذلك باخوانهم اهل البصرة وغيرها من بلاد الشرق اهـ فتباشروا وقالوا قد ظهر بالمغرب امام ملاء عدلا وسوف يملك الشرق ويملاء عدلا ايضا فأنشطوا لامدادهم وجدوا لاعانته ورب يوم يأتي يشملكم فيه عدله ويعممكم حكمه ان قدر الله بذلك واراد بكم خيرا

(الاعانة الاولى من أهل المشرق لامام المغرب)

(امتحانا واستكشافا لأحواله)

(مزوج) وعند ذلك دبت فيهم الغيرة وسرى فيهم روح النشاط وتسابقوا الى البر فجمعوا أموالا عظيمة ووجهوها اليه مع نفر من ثقاتهم وقالوا لهم انهمضوا بهذه الاموال حتى تردوا عاصمة امامته فاذا وجدتم الأمر كما نقل البنا من حسن السيرة واقامة العدل بالكتاب والسنة واعلاء كلمة الدين فادفعوها اليه ليستعين بها على ذلك (والا ففرقوها في فقراء المسمينهنالك) فسار القوم على بركة الله الى أن بلغوا مدينة (تيهت) ونزلوا بالمصلى الذي به قبر مصالة اليوم () فأنأخوا جهاهم ووضعوا احمالهم ودخلوا من باب الصفا يسألون عن دار الامام الى ان اهتمدوا اليها (وكانوا يظنون انها على شىء من العظمة كديار ملوك الشرق) ولما وصلوها وجدوها دار زاهد ورع ووجدوا عند الباب غلاما يعجن طينا ويناوله لآخر (هو الامام) يصلح به بعض خلل فيه فسلموا على الغلام وطلبوا منه أن يستأذن لهم على الامام ويخبره بانهم رسل اخوانه المشاركة اليه فرفع الغلام راسه نحو السطح وقد علم ان الامام سمع كلامهم فاشار اليه ان يصبرهم قليلا فصبرهم الى ان نزل وغسل ما كان بيديه من الطين وجدد الوضوء واذن لهم فدخلوا فوجدوا رجلا جالسا على جلد فوق حصير وما في البيت شىء سوى سدة ينام عليها وسيف ورمح وما اشبه ذلك من السلاح الوقى وفرس فسلموا عليه وبلغوه سلام اخوانه فجياهم بأحسن تحية وأمر الغلام فاحضر مائدة عليها قرص سخنة وشىء من سمن وملح فهشم القرص في السمن وقال على اسم الله ادنوا وكلوا فتقدموا واكل معهم اكراما لهم وهضموا لنفسه ثم قال ما وراءكم وما الذي جاء بكم ايها الاخوان فقالوا دعنا نخلو ببعضنا ساعة ثم نكلمك فأخلى لهم المكان وقال بعضهن لبعض يكفيننا عن السؤال عنه ما راينا منه مشاهدة من اصلاحه لداره بنفسه ومن طعامه ولباسه وحلية بيته فما لنا الا ان نسلم له المال ولا نستشير فيه احدا ثم اقبلوا عليه وقالوا له اعزك الله بعثنا اليك اخوانك بثلاثة اجمال من المال تتقوى بها على عملك وتصلح بها بعض شأنك (فتفضل علينا بقبولها) فقال هذه الصلاة قد حضرت ونحن ذاهبون الى المسجد الجامع فعلم المسلمين بما جنتهم به حتى نرى رايبهم فيه فقالوا الأمر في ذلك اليك وخرجوا ولما اتوا المسجد وأدوا الفريضة نادى منادى الامام قاتلا لتذهب العامة وليتخلف من كل قبيلة وجوهها فخرج عامة الناس وبقي الوجهاء وأهل الشورى وعقدوا مجلسا ثم قال للرسل اخبروا اخوانكم بسبب مجيئكم وبما اوتيتهم به ولما اخبروهم استشارهم في امر المال فقالوا الرأى رأيك والأمر أمرك ولكن

وتجعل منه ثلثا في الكراع وثلثا في السلاح وثلثا في فقراء المسلمين وضعفائهم فقال للرسول قد سمعتم رأي اخوانكم فما تقولون فقالوا سمعنا واطعنا واحضروا المال في الحال وما خرجوا من هناك حتى قسم على الوجه المذكور (وبعد ان اقامت الرسل ما اقامت من المدة بين اكرام واحترام توجهت حامدة نلك السيرة شاكرة ذلك الصنيع) وبعد وصولهم المشرق اخبروا اخوانهم بما رأوه مما أدهش عقولهم وحير افكارهم من زهد الامام واستقامته وعدله فازدادوا بذلك فرحا واستبشارا ثم شرع الامام في شراء الكراع والسلاح وقوى بيت مال المسلمين بالذخائر الحربية ومهمات الدفاع الوقئية وتقوى الضعيف وانتعش الفقير وتحسنت الاحوال وسارت الركبان بأخبارهم في الآفاق ودخل الرعب كل من اتصل به خبرهم من الملوك والامراء على اختلاف مراتبهم وانسوا من انفسهم قوة دعتهم الى توسيع نطاق العمران والتمدد في الاقطار لتمهيد البلاد وبسط العدل ونفخ روح الاخوة والاتحاد بين افراد العباد فشرعوا في العمارات والبناء وحياء الموت وغرس البساتين وانواع الاشجار واجراء الانهار وسوقها من مكان الى مكان واتخاذ المطاحن عليها والمستغلات وتفتنوا في الصنائع وتسابقوا في ميادين المعارف وفنون العلم ونصبوا لواء الأمن والهناء وطمحت انظارهم الى اخضاع كل من ناوهم وحاد عن جادة الانصاف من اولى الامارات الارجة عنهم فمهدوا لذلك تامين السبل وتسهيل المواصلات وفتح ابواب التجارة حتى استمالوا الالباب وذلّلوا الصعاب (قال) واتتهم الوفود والرفاق من كل الامصار واقاصى الاقطار فقل احد أن يتزلّم من الغرباء الا استوطن معهم وابتنى بيتا بين اظهرهم لما يراه من رخاء البلد وحسن سيرة امامه وعدله في رعيته وامانه على نفسه وماله حتى لا ترى دارا الا قيل هذه لفلان الكوفي وهذه لفلان البصري وهذه لفلان القروي وهذا مسجد القرويين ومربعتهم وهذا مسجد البصريين وهذا مسجد الكوفيين واستعملت السبل الى بلاد السودان والى جميع البلدان من مشرق ومغرب بالتجارة وضروب الامتعة والعمارة زائدة والناس والتجار من كل الاقطار قابلون اهـ بلفظه.

أقول وله 11 والله اعلم يوجد بالمغرب وخصوصا بجبل نفوسة اماكن وقبائل كثيرة تسمى باسماء اماكن في المشرق ولعلمهم اتوا في ذلك الزمن من المشرق والله اعلم فمن ذلك قبيلة الحمران الاباضية بجبل فساطو القاطنة بقريتهم المسماة بهذا الاسم وفيها مقام ابي نوح المساوي صاحب الكرامات الظاهرة المذكور في تاريخ الشماخي رحمهما الله ومن ذلك الموضع المعروف بجزوى في ظاهر جبل فساطو ايضا ومن ذلك قبيلة طرميسة التي منها الشيخ عيسى الطرميسى العلامة المشهور في السير وهي الان في قرية صغيرة على رأس جبل بين بلدة (جادو) (وتاردية) ومن ذلك الموضع المسمى بجندوبة بناحية ككلة وهو جبل صعب المراقي جدا بجنب جبل يفرن لناحية الشرق يتحصن فيه الفائرون على الملوك في تلك الجهات من قديم ومن ذلك جبل غريان العامر الآن بقبائل مالكية المذهب خرجوا عن مذهب الاباضية ايام عمهم الجهل وانقطعت منهم العلماء والمرشدون وذلك في عصر الشيخ الجليل العلامة اسماعيل بن موسى الجيطالي من ناحية فساطو مؤلف كتاب القناطر وكتاب قواعد الاسلام وغيرهما وكان له معهم في هذا الباب كلام وغير هذا من الاماكن كثير لو تتبعناه لخرجنا عن موضوع كلامنا والله اعلم

(الاعانة الثانية من أهل المشرق لامام المغرب عبد الرحمن بن رستم)

(مزوج) ثم في العام الثالث من رجوع الرسل الى البصرة اجتمعت الاباضية بالمشرق وعنصرهم بالبصرة وراسلوا

من لم يمكنه الاجتماع بهم وقالوا ان اخبار التقدم في الاستقانة عن هذا الامام لا زالت شائعة ومحاسنة

مستفيضة وعدالته ذائعة فهو جدير بأن يكون في المغرب خلفا عن الامام ابي بلال وابي حمزة المختار⁴⁴

بالمشرق فلا تذخروا عنه مالا ولا تحبسوا عنه عطاء وأعينوه بكل ما قدرتم عليه اذ بالمال (مع العلم والعدل) تشد اركان الدولة وبه يوطد عماد الدين وبه تعلق كلمة الاسلام وأهله ولكم في ذلك الشرف العاجل والثواب الآجل .

فما كان غير بعيد حتى اجتمع عشرة أحمال ذهباً فكلوا بتبليغها الرسل الأولين لخبرتهم واطلاعهم على كنه الحال في تلك الاقطار حتى اذا رجعوا اليهم اخبروهم بما رأوه من الفرق بين الخالين فساروا من (مدينة) البصرة في كنف الله وحفظه الى أن وصلوا (مدينة تيهرت) ونزلوا بمزلقهم الاول ودخلوا المدينة فأروا هيئتها قد تبدلت ولاح عليها رونق المدينة والملك وعلت وجوه أهلها سيماء احضارة والرفاهية وبدت من محياهم آثار النعمة والغنى وأزيت المدينة بقصور مشيدة ودور منظمة وأبنية مبهجة وقباب مرتفعة وأسواق مزدهمة ومساجد متعددة بمنارات عالية وحمامات متقنة يحيط بها بساطين متنوعة ومطاحن منتصبة على تلك الانهار الجارية واتخذ أهلها الفرش والستائر المزخرفة واخيل امسومة (وقد مرأها معدنهما) وتنوعت الالبسة وتعددت اللغات والازياء ورأوا ما لم يخطر لهم ببال ولا سمعوه في مجيئهم الاول بحال من الاحوال . وعند ذلك دار في خلداهم قائد الوهم وتسلطن عليهم سوء الظن بحال الامام فتسارعوا الى داره يروا ما تغير من هيئته وحاله فالفوه بأحسن ما عرفوه به قبل ذلك من حسن المقابلة والتواضع والزهدي في الدنيا مع الحزم الكامل في ادارة شؤون الامامة وداره كما هي عليه من قبل فاطمأت خواطرهم بعض الاطمئنان الا أنهم خافوا أن يكون ذلك من ظواهر الامور فلم يخبروه بشيء من شأنهم وخرجوا من عنده ليكتسبوا الحقيقة ممن يظنون فيه الصدق والامانة في القول فلاقوا رجلاً يتقون بهم ويستأنسون اليهم فسالوهم عن الاحوال فأخبروهم بحسنها وبأن الامام على ما هو مشهور به وأكثر من ذلك من حسن السيرة والعد في الاحكام واعلاء شأن الاسلام وأهله ثم اخبروهم بما معهم من المال واستصحبوهم فأشاروا عليهم بتقديمه له وقالوا لهم انا لا نراه يقبله منكم وان قبله لم يصرفه الا في مواضعه الشرعية وفي مستحقه كأول مرة فاتوا الى الامام بعد ذلك وأخبروه بالمال وبحال من خلفوه بالمشرق وما هم عليه من موالاته وولايته والدعاء له فسر بذلك وانشرح صدره ثم سألهم عن احوالهم من حيث الظهور واكتتمان والقوة والضعف والغنى والفقر في العامة (تلك الامور التي تهم كل حاكم سياسي وعامل غيور) فأخبروه بضد ما اراده فاستاء لذلك ثم امرهم بالحضور الى المسجد الجامع ليخبروا احوالهم كأول مرة فحضره ونادى منادى الامام بذهاب العامة وبقاء الوجوه من العلماء وأهل الشورى فكان ذلك كله في الحين وأمرهم باحضار المال واخبار احوالهم فأخبروه وبلغوهم سلام احوالهم ثم استشار جماعته في شأنه فقالوا له الأمر في ذلك اليك فافعل ما شئت فقال اما انا اذ رددتم الامر فيه الي فلا أرى الا رده الى اربابه ليعينوا به ضعفاءهم وفقراءهم وما قبلنا منهم من قبل هذا ما أتوا به الا لما بنا اذ ذاك من الحاجة اليه وأما الآن فكلنا والله الفضل خاصتنا وعامتنا وبيت مالنا في غنى عن الاعانة وهم احق به منا فليفضلوا علينا برده وهم منا مزيد الشكر فوافقوه كلهم على هذا واستصعبته الرسل لما في رده من المشقة والعناء لبعده المسافة فترددوا اليه المرة بعد المرة مع من التمسوا منه المساعدة من أهل الرأي المقربين عنده في قبوله فلم يساعدهم واذا أخوا عليه آلى بايمان مغلظة ان لا يقبل منهم دينار ولا درهما ولما استئسوا من امساكه ولوا به راجعين الى وصلوا البصرة .

(قال) فعظم ذلك عند القوم خطر عبد الرحمن وزاد في قدره ورأوا أنه لو كان طالباً دنيا أو مؤثراً لها لرغب في الاموال فعند ذلك رغب القوم في امامته ورأوا انها فرض عليهم ثم لم تزال الرسل تختلف وتطلع الاخبار والبلد زائدة والعمارة في ذلك كل نامية والسيرة واحدة وقضاته مختارة وبيوت أمواله ممتلئة وأصحاب شرطته

والطائفون قائمون بما يجب وأهل الصدقة على صدقاتهم يخرجون في اوان الطعام فيقبضون اعشارهم ويأتون أهل الشاة والبعر فيقبضون ما يجب على أهل الصدقات لا يظلمون ولا يظلمون فاذا حضر جميع ذلك صرف الطعام الى الفقراء وبيعت الشاة والبعر فاذا صارت أموالا دفع منها الى العمال بقدر ما يستحقون على عملهم ثم نظر في باقي سائر المال فاذا عرف مبلغه أمر باحصاء من في البلد وفيما حول البلد ثم امر باحصاء الفقراء والمساكين فاذا علم عددهم امر باحصاء ما في الاهراء من الطعام ثم أمر بجميع ما بقي من مال الصدقة فاشترى منه اكيسة صوف وجباب صوف وبراً وزيتاً ثم دفع في كل اهل بيت بقدر ذلك ثم ينظر الى ما اجتمع من مال الجزية وخراج الارضين وما اشبه ذلك فيقطع منه لنفسه ولقضاته وأصحاب شرطته والقائمين باموره ما يكفيهم في سنتهم ثم ان فضل فض صرفه في مصالح المسلمين اهـ بلفظه

(دهاء هذا الامام وحسن تصرفه مع اماره مستقلة)

(عن تيهرت بعض ملوكها أباضية)

كان هذا الامام رحمه الله ذا بصيرة وقادة وفكرة نقادة موفقا في أعماله متديرا في حركاته وسكناته مراعيًا كل المراعاة بكل حذق عواقب الامور متحرزا بمبادئها عن أواخرها شأن كل حكيم حنكته التجارب وتواردت عليه عوامل تقلبات الدهر وأحواله حتى انه لما توفي ابو حاتم (الامام قبله) بنواحي طرابلس سنة 155 كما مر وانتقضت نفراوة بعد ذلك في افريقية سنة 161 وولوا عليهم صالح بن نصير (قال ابن خلدون ودعوا الى رأيهم رأي الاباضية) وانهمزوا بعد وقائع متعددة ولم تقم لهم قائمة تروى عبد الرحمن في الامر وتثبت في الرأي فاستنتج ان اسكون والمهادنة اولى بهم واصلح لشأنهم حتى يندمل جرحهم ويلتئم فلهم وتشتد قوتهم وتجتمع قواهم فمال الى الدعة وجنح للسلم راكنا في ذلك الى استجلاب الخواطر واستعمال المجاملة مع المتأخمين لحدوده فكتب صاحب القيروان على ان يكف نفسه عنه ويستقل كل بما لديه وما وليه من حيزه فقبل منه ذلك بكل ارتياح كما ذكره ابن خلدون اذ قال في 113 من (6) ورغب عبد الرحمن بن رستم صاحب تاهرت سنة 171 في موادة صاحب القيروان روح بن حاتم بن قبيصة بن المهلب فوادعه اهـ وما يعد من سياسته وآرائه النافعة مصاهرته لمدرار بن الياس أحد ملوك سجلماسة حتى آل الامر الى ما ستسمعه ايها القارئ ان شاء الله .

(خطبة رئيس الصفرية لأروى كريمة الامام عبد الرحمن رحمه الله وأخبار ذلك)

كانت الصفرية في نواحي سجلماسة في جهوع كثيرة تفوق الحصر غير مستقلين بالامر ثم اجمعوا على تأسيس مدينة سجلماسة فكان ذلك سنة 140 أي قبل تأسيس (تيهرت) بربع سنين ودخل اكثر مكناسة المجاورة لهم في مذهبهم ولما قوي أمرهم وتألفت كمتهم قدموا عليهم بالبيعة عيسى ابن يزيد ثم قتلوه وولوا ابا القاسم سمكو بن واسول وكان اباضيا كما ذكر ابن خلدون في صحيفة 130 ثم مات سنة 167 فولوا ابنه الياس ثم خلعه وولوا اخاه اليسع وهو الذي شيد سور سجلماسة وحصونها وعلى عهده استفحل أمرهم واشتد ملكهم وكان يرى في نفسه العظمة كثرة الجنود والاتباع وله ان يعرف بمدرار فلم ير له كفؤا للمصاهرة غير الامام عبد الرحمن وكانت له ابنة تعرف باروى فخطبها اليسع وبعد أن لأظهر الامام العزة والامتناع مع الحاح الخطيب أجابه الى طلبه وزوجها من مدرار ابنه ولم يصغ للمعترضين والمنكرين عليه مؤملا ان يأتي يوم ما على اولادها ان قدر الله بحملها وهم 46

على مذهبه فيضمهم هو أو خلفه اليه أو تتوثق علائق الوداد بين المملكتين فلا يطرقه منهم طارق سوء ولا يأتيه من قبلهم ما يكدر راحته أو يوجب له قلقا أو خللا في داخلته اذ كان تحت حكمه من الصفرية ما يعد بعشرات الألوف من المقاتلين الموصوفين بالشجاعة والبراعة كما ان بسجلماسة من الاباضية أمثال ذلك من الفرسان الأشداء ولولا حكم القدر بهذه المصاهرة مع قرب الجوار لكانت الحروب بينهم متوالية والفتن متتابعة حيث يطلب كل فريق منهم الانضمام الى امام مذهبه ويظهر التظلم حقا أو باطلا من مخالفة في المذهب الحاكم عليه وهذا أمر طالما سفكت به الدماء انمارا يجعله مريد الخروج عن الطاعة ذريعة يتوصل بها الى غرضه وحسب المعتبر شاهدا ما أجراه الافرنج في عصرنا هذا بجزيرة كريد انقاذا لآخواتهم المسيحيين من احكام المسلمين وما هم الآن في نسجه بمقدونيا ادعاء بهذا الوجه عينه غيرة على بني جلدتهم وحمية دينية لا انصافا وحقا وبأمر هذه المصاهرة التي دبرها الامام كفى شر ذلك كله وكانت العاقبة ما ستره .

(حمل اروى بنت الامام بولدها ميمون)

كان من قدر الله وقضائه ان حصلت الالفه وحسن العشرة والوفاق التام بين الزوجين المتبائنين مذهباً ومشرباً المتباعدين داراً ونسباً (مدراراً وأروى) وحملت أروى ووضعت ولداً سموه ميمونا وكان لزوجهما ولد آخر من البغي اسمه ميمون أيضاً ولما مات والد مدرار تولى هو أمر الصفرية سنة 208 وتلقب بالمنتصر وطالت ولايته فكان مع الرستميين في ولاء ومسالمة بجانب المصاهرة ولشغفه بزوجه أروى مع ما رآه في ابنها ميمون من الكفاءة حدثته نفسه بتسليم أمر مملكته اليه في حياته ولما أحس ابنه ميمون الثاني بذلك أوعز الى رؤساء الصفرية ومقدميهم بذلك فهاجوا وماجوا واضطربت اقوالهم واستعظموا الأمر خوفاً من انضمام ملكهم الى ملك بني رستم ومن سيادة الاباضية عليهم في المملكتين فنار ميمون بمن تبعه من الصفرية على والده ونازعه الملك وكان بينها ما كان من الفتن والمقاتلات الى ان توفي سنة 253 لخمس واربعين من ملكه وأقام ميمون في الامارة الى أن مات سنة 263 وولى ابنه محمد قال ابن خلدون في صحيفة 131 وكان اباضياً وتوفي سنة 270 لثمان من ملكه فولي اليسع بن المنتصر (مدرار) الى ان اقتحم عليه الشيعي سجلماسة سنة 296 وقتله وولى عليها ابراهيم بن غالب المراسي الكنامي وبقي فيها الى أن قامت عليه امراء سجلماسة سنة 298 وقتلوه وولوا عليهم الفتح الاباضي ابن ميمون قال ابن خلدون وبايعوا الفتح بن ميمون الامير بن مدرار ولقبه واول وميمون ليس هو ابن البغي الذي تقدم ذكره اهو فيظهر أنه اراد ميمون بن الرستمية اذ لا ميمون يخر لمدرار غيره قال وكان اباضياً وهلك قريباً من ولايته لرأس المائة الثالثة فولي اخوه احمد واستقام أمره الى أن هجم عليه مصالة بن حيوس من طرف الشيعي فزعه وولى مكانه ابن عمه المعتز فاستبد ومات سنة 321 وولى ابنه المنتصر الى ان ثار عليه كما قال ابن خلدون ابن عمه محمد بن الفتح (الاباضي) بن ميمون (الاباضي) الأمير وتغلب عليه اخاه وذكر ان محمداً هذا رجع في آخر امره أشعرياً وتلقب بالشاكر واتخذ السكة باسمه وكانت تسمى الشاكرية الى أن زحف اليه جوهر الكاتب في جموع كتامة وصنهاجة سنة 347 ففر امامه تاركا ملكه ثم قبض عليه واخذته اسيراً الى القيروان وانقضى ملك بني مدرار الذي علمت ايها القارئ ان بعض موكه صفرية وبعضهم أباضية على ما ذكره مؤرخو غيرهم كما سمعته وأما مؤرخوهم فلم يتعرضوا لهذا الامر قط اذ لا ذكر لذلك في سير الشماخي رحمه الله ولا في الطبقات ولا غيره فاما ان يكونوا قد احدثوا احداثاً

أوجبت البراءة منهم فاهملوا ذكرهم (ولا نظن انهم ارتكبوا من الموبقات اكثر مما اتاه ابو يزيد صاحب⁴⁷

الحمار الآتي خبره وقد ذكره كثيرا) واما أن يكونوا مذكورين في تاريخ نفوسة الكبير وغيره من المكتب القديمة التي لا وجود لها الآن الا بالاسم والله اعلم . والحامل على ذكرهم هاهنا مجرد الافادة للمطالع وبيان ما آل اليه تدبير الامام عبد الرحمن رحمه الله وما نتج عن مصاهرته لمدرار من بث دعوته في هذه العائلة القابضة على زمام ملك الصفرية بدون رمح ولا سنان وهذا لاشك مما يشهد له بطول الباع في القيام بادارة مملكته واخذ الاحتياطات لدفع كل طارئ يطرأ عليها وأمر المصاهرة وقع كثيرا قديما وحديثا من الملوك لغرض التوقي من فتنة قبيلة كبيرة أو سلطان آخر كما وقع للامام عبد الوهاب على ما سيأتي في كلام ابن الصغير ولتميم بن المعز بن باديس الشيعي صاحب افريقية فانه صاهر ببنته الناصر صاحب القلعة سنة 374 على ما ذكره ابن خلدون في صحيفة 160 وانظفت نار الفتنة بينهما بسبب ذلك وفي زماننا هذا يقع بكثرة خصوصا عند الافرنج حتى صار أغلب ملوكهم وامرائهم اقارب لبعضهم بعض .

وبهذا عظم اتحادهم وفتن ما كان بينهم من الخلاف وتناصروا على المسلمين وتحالفوا على محو كلمة الاسلام وأهله الذين لم تربطهم ببعضهم بعض الا كلمة الشهادة وهي رابطة عند التحقيق منحلة لما تهدد به منذ ظهرت من الاختلافات المذهبية والمشاكل الاعتقادية التي صارت اساسا متينا لا تزلزله الازمان والدهور لكل شقاق وتباين بين افراد الجامعة الاسلامية .

ومن طالع التاريخ ورأي الوقائع الماضية التي جرت بين اهل الاسلام من عهد الصحابة بعد الخليفتين ابي بكر وعمر الى ما لا يبعد عن عصرنا هذا رأى بلا ريب ما يربع فؤاده ويكدر صفو راحته وأغلبه ان لم نقل كله متولد من انتحال المذاهب ولو كانت لديهم الآت الحرب الحاضرة برا وبحرا لقضي امر هذا الدين واهله من زمان بعيد . (ولو شاء ربك لجلل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين الا من رحم ربك) فلو فتح امراء الاسلام باب المصاهرة بينهم وسعوا في توحيد المذاهب لأصبحوا وكلمتهم واحدة والحق في ذلك على اعظمهم سلطانا وأشدهم شوكة في هذا العصر امير المؤمنين السلطان عبد الحميد خان فانه لو صاهر الامراء المنفصلين عن دائرة نفوذه وحكمه ببنات وزرائه فضلا عن كريماته لبادروا الى معاضدته وعضوا بنواخذهم على حبل الاتصال بعرشه وأضحوا ولا جهة لهم غير انتظار اشارته وفي ذلك مما يهيم العالم بأسره ويززل دعائم السياسة مالا يخفى على الناقد البصير .

وكان الامام بالمشرق في عاصمة عمان ذلك الوقت الامام الوارث وذكر ابو زكرياء رحمه الله ان في مدة الامام عبد الرحمن توفي امام المذهب الكبير ابو عبيدة مسلم بن ابي كريمة البصري رضي الله عنه والصحيح ما سذكره بعد ان شاء الله .

وكان رحمه الله مشهورا بالعلم معدودا من فحول العلماء الراسخين له تفسير جليل القدر تكلم عليه المؤرخون ولا وجود له الآن وله ديوان خطب نفيسة ذكر العلامة الوارجلاني في رحمه الله أنه رآه وله رسائل متعددة وجوابات كثيرة مفيدة في فنون من العلم بعضها موجود وبعضها مفقود وبالجملية فقد كانت مدة هذا الامام بالمغرب أيام سكون وراحة وعدل لا حرب ولا شقاق وكان محبوبا عند الجميع مهيبا مطاع الاوامر والنواهي .

(وفاته) (قال) فلم تزل أموره كذلك وعلى ذلك والكلمة واحدة والدعوة مجتمعة ولا خارج يخرج عنه ولا طاعن يطعن عليه الى أن اخترمته منيته وانقضت أيام مدته وكت قد وقفت على عدد امارته كم كانت ولكن نسيتها مع مرور الايام وكان قد نشأ له في أيامه ولد يعرف بعبد الوهاب وكان محمود الافعال وكان قد رشحه

للقيام بعده فلما انقضت ايامه صيرت الاباضية اليه الامر بعده اهـ

أقول ولما أيقن رحمه الله بدنو الاجل وانقضاء العمر وأيس من الحياة تأسى بأمر المؤمنين ثاني الخليفين عمر بن الخطاب رضي الله عنه واقتفى أثره اعتناء بشأن الاسلام والمسلمين فجعل الامامة شورى بين سبعة رجال ممن تفرس فيهم الصلاح لتلقيها بما أحرزوه من كمال الاقتدار وبما علمه فيهم من التضلع في العلوم مع التقوى والورع وهم ولده المهام العلامة المقدام عبد الوهاب والعلامة مسعود الاندلسي ذلك الرجل الفاضل البارع في الفقه وغيره الشهير بالورع والعلامة أبو قدامة يزيد بن فندين اليفرني والعلامة عمران بن مروان الاندلسي والعلامة ابو الموفق سعدوس بن عطية والعلامة شكر بن صالح الكتامي والعلامة مصعب بن سدمان .

ولما ختمت أنفاسه رحمه الله وسيقت روحه الطيبة الى حيث اراد بارئها من مواقع التنعم ان شاء الله شيع المسلمون جنازته ودفنوه وولوا وأعينهم تفيض من الدفع حزنا وأفندقم ترجف فرعا وكانت خلافته أحد عشر عاما لا أربعين كما قيل ولا سبعة كما قاله المراكشي وسيأتي وجه ذلك ثم اجتمع اهل الشورى منهم والصالحون للنظر فيمن يولونه الامر بعده ولشدة تحريهم رحمهم الله لم يقصدوا بها أحدا الا وتبرأ منها ودفعها علما بخرج موقفها وبقي الامر كذلك موقوفا نحو شهر كامل لم يثبت لهم فيها قرار وم يستقر لهم رأي الا ان لعامة الناس ميلا زائدا الى اثنين من السبعة المذكورين وهما الامام عبد الوهاب والعلامة مسعود الاندلسي فبعض يريد هذا وبعض يرغب في ذاك ثم مال الكل الى مسعود وقاموا لمبايعته وفي حين ما أدركه الخبر اختفى فرارا من الوقوع فيها واذا لم يجدوه أعرضوا عنه وابتدروا عبد الوهاب لمبايعته ولما سمع مسعود بذلك خرج الى مجتمع الناس ليكون في مقدمة المبايعين منهم وكان فيهم يزيد ابن فندين وقد أدركه من الغيرة ما لم يستطع اخفائه اذ لم يرغب فيه احد ولما رأى انه لاحظ له في الامامة اشتدت في تولية عبد الوهاب رجاء أن يدرك في ظله بعض المناصب العالية وان يقلد مهم الأمور اعتمادا على علاقة النسب التي بينهما لما أنه من أحوال عبد الوهاب فان والدته عبد الوهاب كانت يفرنية الا أن لعلمه هو ومن معه بما انطوت عليه بوطنهم من المقاصد السيئة أيقنوا بأن عبد الوهاب على ما هو معروف به من الشدة في الحق والصلابة في الدين لا يدع لهم مجالا يبلغون به أمانيتهم ولو أدركوا من المترلة عنده ما أدركوا ولما وقف الكل بين يدي عبد الوهاب قام ابن فندين خطيبا فقال انا نقدم لك بيعتنا يا عبد الوهاب على شرط واحد وهو أن لا تقطع أمرا دون اتفاق جماعة معلومة معك عليه راجيا أن يكون هو من المنتخبين في ذلك المجلس (ومثل هذا المطلب ينادي الحزب المسمى بالاحرار من الترك وغيرهم من أهالي الدول ذات الحكم المطلق في هذا الزمان) فوقف مسعود وأجابه قائلا على طريق الإنكار ما سمعنا بهذا وما علمنا أن في الامامة شرطا غير أن يحكم الأمام بكتاب الله وسنة رسوله وآثار الصالحين أهل الحق والصدق ممن تقدم فسكت يزيد تاركا ذكر الشرط وأجمع هو ومن معه من المسلمين على البيعة .

(خلافة الامام عبد الوهاب رحمه الله)

(وكناه المراكشي بأبي الوارث ولم نره لغيره)

فقام مسعود الى الامام عبد الوهاب وبايعه ثم بعده الحاضرون وحملوه الى دار الامامة في موكب حافل غصت به طرق المدينة ومناهجها وهنالك تمت البيعة العامة وامتأ الناس فرحا وسرورا وسكن بعض ما كان بهم من الجزع على والده اذ حل هو في محله ورجوا سعادة مستقبلهم وذلك في صدر عشرة السبعين بعد المائة تقريبا اذ لم 49

نقف على ما يوجب اليقين في ذلك كلما بحثنا غير اننا علمنا أن تولية الامام عبد الرحمن كانت سنة 160 وانه في سنة 171 عاهد صاحب القيروان كما مر غير بعيد وعلمنا أن الامام عبد الوهاب كان راسخ القدم في الإمامة في تلك السنة نفسها أعني سنة 171 أيضا على ما ذكره ابن خلدون حيث قال في صحيفة 194 من الجزء 4 ورغب يعني روحا صاحب القيروان في موادة عبد الوهاب بن رستم وكان من الوهبيّة فوادعه اهـ ولم نعر على ما يحقق وجود عبد الوهاب في الإمامة قبل هذا التاريخ ولا على ما يثبت وجود عبد الرحمن بعده فالموادعتان وقعتا في سنة واحدة كما رأيته فاما أن تكون الاولى وقعت مع عبد الرحمن مباشرة والثانية مع عبد الوهاب بالنيابة عن والده وهذا مما لا معنى له لاختلاف الطالبين لها واما أن يكون عبد الرحمن طلب المعاهدة ووقعت وعلى اثرها توفي فطلب روح تجديدها من عبد الوهاب توقيا منه لما شهر به من علو الهمة والشدة فساعفه عبد الوهاب جزاء لما ساعف به والده من قبل وما جزاء الاحسان الا الاحسان وهذا هو المناسب والله اعلم فليحرر .

فقام رضي الله عنه بالعدل احسن قيام واجرى الامور على احمد وجه وأتقن نظام فظهر ما انطوت عليه خلقه السليمة وانفاسه الكريمة الى عالم الظهور من الآثار الشريفة والمقاصد الخيرية والبسالة الكاملة والانعامات الشاملة وأرسل في أطراف مملكته ودواخلها اوامره الشديدة بامتثال الاوامر واجتناب المناهي الشرعية ورتب العمال والحكام والقضاة ورجال الشرطة في سائر انحاء اتباعه فعمهم عدله وشملهم حكمه ولم ينقم عليه احد شيئا في احكامه وسيرته الى ان حدث خروج ابن فندين عنه

(خروج ابن فندين عن طاعة الامام)

لما رأى ابن فندين ما عليه الامام من الحزم وتنقية ارباب الخبرة والعفة والاستقامة في تعيين الموظفين ولم يبلغ هو ما كان يؤمله من التقديم ونيل بعض المناصب لم يطق صبرا على ذلك وأظهر الانكار على الامام في توليته لبعض من كان يرى أنهم لا ينالون مع وجوده شيئا وقال ان هؤلاء الذين ولاهم الامور ليسوا بأحسن منا سيرة ولا أقوى منا اقتدارا على اشغال الدولة وتدبير امر الرعية بل نحن اولى بالتقديم اذ كنا نحن السبب في اخذ البيعة له وغير هذا من الكلام الذي لم يصب من الناس كافة اذنا صاغية ولم يستمل به قلب أحد ولما علم ان ذلك لا يجدي نفعاً قام مطالباً بالشرط الذي تكلم به اولا (مجلس الشورى باصطلاحنا تقريبا) وتدرج بذلك الى انكار الامامة قائلاً انا قد شرطنا عليه أن لا ينهي أمرا دون موافقة جماعة عليه وهاهو قد استقل برأيه ولم يشارك أحدا في شيء ونبذ الشرط وراءه ظهريا فطاعته غير واجبة علينا لفسخه البيعة بتركه الشرط ثم زاد تدرجا في دركات الشقاق واعلن بفساد البيعة من مبدئها بدعوى ان في المسلمين (الاباضية) من هو أكثر منه فهما وأغزر علما واوسع ادراكا وفكرا فلا يجوز تقديمه ولا البيعة له ما داموا موجودين وطفق ينشر هذه الاقوال في المجامع والمنتديات حتى استمال لفيها من الناس ممن كانوا على شاكلته في المقصد والطبع واكثروا النجوى والاجتماع والدخول الى المدينة والخروج منها الى المنازل والجلال جماعات يتلو بعضها قصدا لاثارة الفتنة وتشويشا لخواطر العامة وارهبا لنفوس رعاي الناس فابلاغهم الامام النهي عن ذلك وحذرهم سوء العاقبة ان لم ينتهوا فقالوا للمرسل اليهم من طرف الامام هذه مدينتنا وتلك منازلنا فان عضينا في الدخول والخروج اليها فليخبرنا الامام بوجه ذلك فاعرض عنهم وتركهم وشأنهم مع مراقبة حركاتهم وسكناتهم بالتدقيق التام بواسطة الامناء (البوليس السري في اصطلاحنا الآن)

(تدبير مكيدة لقتل الامام)

ولما رأى ابن فنين ومن معه خيبة مساعيهم وتحققوا اعدام نجاحها واتيائها بنتيجة تضمن لهم حصول مأمولهم فكروا فيمن تقدمهم من الثائرين على الملوك والخلفاء فوجدوهم لم يظفروا بشيء مما كانوا يحاولونه الا بالقتل فلوروا أعنة افكارهم الى تدبير مكيدة يتوصلون بها الى الفتك بالامام والغدر به ولشدة تحفظه رحمه الله وأخذ الحذر من نفسه بما ارتسم في صحيفة ذهنه مما درسه في وقائع المتقدمين ووقف عليه في اخبارهم من قتل الملوك في الطرقات والغدر بالخلفاء في المساجد حيث كانوا بسطاء الحالة لم يجدوا له سبيلا ثم بعد استعمالهم الجهد في التفكير ضلوا الى مكيدة لو لم يعارضها القدر فذهبت ادراج الرياح وردت عليهم لكنت القاضية على الامام والمصيبة العظيمة على المسلمين .

وذلك ان الامام كان له بيت خصصه لنفسه فيه ما يحتاج اليه من كتبه يخلو فيه للمطالعة والتهجد بالليل على ما يؤخذ من كتب السير فاتفق القوم على ان يجعلوا رجلا بسلاحه في صندوق ذي قفل من داخله ويحملة اثنان منهم ممن لا ريبة فيهم الى الامام ويظهر ان له انهما متنازعان فيه ويطلبان منه حفظه على وجه الامانة حتى يعودوا اليه وكأنهم علموا انه اذ قبله لا يضعه الا في ذلك اخل المخصوص به محافظة على الامانة وحرصا عليها فيخرج صاحبهم من صندوقه في الليل ويقتله اذا علم انه نام فاتفقوا على هذا الرأي وتيقنوا بنجاحه وقاموا لانجازه على نحو ما ذكر فخرجوا صاحبهم بطب ورغبة منه في صندوق مصييته متقلدا سيفه وهو لا يعلم انه وقع في هوة هلاكه واتفقوا معه على انه اذا قتله يذهب الى المنارة ويؤذن فيها ليعموا بتمام مرادهم فيهاجوا المدينة ويحتلوا في ذلك الليل دار الامارة ويتمكنوا من الحصون والنقط الحربية من سور المدينة وغيره مما لاحرس فيه ولما اتوا به الى الامام أجاب طلبهم وأمرهم بحمله الى اخل المخصوص ولاحظ حركاتهم عند حمله فرآى فيهم من الرفق بالصندوق ما دله على أن ما في جوفه انسان وأدرك بفطنته الوقادة في الحال أن المسئلة لا تخلو من مكيدة غريبة فوضعه في المكان وذهبوا مستبشرين فرحين بما توفقوا اليه من الرأي .

فأقبل الامام على الصندوق وتأمل فيه مليا وجسه من جهاته الاربع فلم يجد له قفلا من خارج فازداد يقينا فيما فهمه اولاً ولما جن عليه الليل قضى ما يجب عليه من أمور البيت ثم عكف حسب عادته على مطالعة الكتب جانباً من الليل ولما حان وقت النوم عمد الى زق (قربة) ونفخ فيه حتى أمتألاً هواء وربطه ربطاً خفيفاً بحيث يخرج منه نفس خفيف ذو حس كنفس النائم ووضعها في احدى زوايا البيت وغطاه برداء ابيض ليرى في الظلام وأوقد قنديلا في زاوية أخرى وغطاه بوعاء يحجب ضوءه عن الناظر وتنحى لجانب من البيت لاحياء بقية ليله بالصلاة والاستغفار ولما أحس صاحب الصندوق بعدم وجود القنديل وسكون حركة الامام ظن انه نام ففتح الصندوق برفق وخرج وسيفه في يده ووقف مصغيا الى ان سمع النفس من القربة وتخيل بياض الثوب في تلك الظلمة فظن انهما الامام فحمل عليه حملة الابطال وقدها نصفين وعند ذلك كشف الامام الغطاء عن القنديل فبهت الآخر وأدركه الفشل وسقط في يديه فبادره الامام بسيفه البتار وقده نصفين ايضا وضمه في ثوبه وردده في صندوقه حفرة الخداع وبيت الخيانة واتم بقية ليله بالذكر والصلاة حامدا لربه على ما وفقه اليه من التنبيه هذه المكيدة ولعمري انها لمن أعظم المكائد لو صادفت المرمي وانما لأشبه شيء بحكاية الزباء وهي من اقوى الدلائل على ما كان لهذا الامام من الانتباه والذكاء المفرط ولما أصبح الله بالصباح ولم يقع بالمنارة أذان وقد قضى القوم ليلتهم في سهر تساءلوا فيما بينهم عن صاحبهم⁵¹

وقالوا اما انه لم يفعل شيئا واما ان يكون قد دارت عيه الدائرة وقتل ثم اتفقوا على الذهاب الى الامام لاختد الصندوق بدعوى انهم اصلحوا ولم يبق بينهم في شأنه نزاع ولما اتوه قابلهم بكل بشاشة بحيث لم يفهموا منه مما كان له مع صاحبهم شيئا وهذا لعمر الحق ايضا من الثبات الذي لا يطيقه الا امثال هذا العظيم القلب واذ سألوه رد الصندوق قال لهم هو في مكانه الذي وضعتموه فيه لم يتحول فخذه ولما حملوه وذهبوا به الى مأمنهم وفتحوه وجدوا صاحبهم ملفوفا في ثيابه مخضبا بدمائه وقد صدق عليه قولهم (من حفر حفرة سوء لأخيه المسلم أوقعه الله فيها) وعندئذ توقعوا فتك الامام بهم فخرجوا من المدينة وأعلنوا أنصارهم بالتأهب للحرب وصاروا يردون الى المدينة بالسلاح في جموع مع اظهار الشدة فكرر لهم الامام النهي عن ذلك بواسطة بعض خواص دولته فقالوا ما في امسك السلاح معصية ولا في حمله من باس والمؤمن بسلاحه وان رأى الامام ان في ذلك معصية فليقنعنا بالحجة فتركهم وشأنهم ايضا وأمر أهل المدينة بأخذ الحذر بحمل السلاح مثلهم وبلا استعداد للحرب عند مجرد الاشارة منه فازداد الناس خوفا واشتدت وطأة التائرين واكثروا من التعدي حتى فتحوا مع الامام باب الحرب وكانت وقائع متعددة سفك فيها من الدماء ما اضطر به الامام والمسلمون معه الى طلب الهدنة ووضع اوزار الحرب حقا للدماء الى ان يكتبوا لاقوانهم المشاركة بايضاح القضية وتفصيلها ويعود اليهم الجواب منهم بتخطئة المخطيء وتصويب المصيب من الفريقين ففقع الطرفان بهذا الرأي واذعنوا للسلم وكتبوا الكتب على نحو ما اتفقوا عليه من حكاية الواقع (وبكل اسف لم نعر على شيء من هذه الكتب قط مع طول البحث عنها) ووجهوها مع امناء مخصوصين ليعرضوها على علماء اباضية اشرق ورجاهم بمصر والحجاز واليمن والبصرة وعمان وخراسان وغير ذلك من بلاد الشرق العامرة بهم .

ولما وصل الرسل مصر قصدوا العلامة ابا المعروف شعبيا ومن معه واخبروهم بما كان من وفاة الامام عبد الرحمن ومبايعة عبد الوهاب وخروج ابن فندين وادعائه الشرط في الامامة وغير ذلك مما وقع كله وتوجهوا الى مكة المكرمة وكان بها يومئذ من معتبري علماء الاباضية ورجاهم ذلك العلامة الجليل احدث المشهود له بالورع المقدم في الفتوى والمرجع في الرأي عند المشاركة كافة ابو عمرو الربيع بن حبيب صاحب كتاب المسند في الحديث والعلامة ابو غسان مخلد بن المعمر الغساني والعلامة وائل بن ايوب وغيرهم من رجال العلم والدين فدفعوا لهم الكتب وبينوا لهم مشافهة ما استفهموهم عنه وانتظروا الجواب

(جواب علماء المشاركة الى المغاربة)

فجمع الربيع رحمه الله خيار المسلمين وعلمائهم والوجوه من اهل الفضل والصلاح وطرح الكتب في المجلس وبعد مطالعتها وفهم معانيها وادراك روح القصد منها أجمع رأيهم على رد الجواب بما اقتضته قواعد الشرع العزيز وميزانه اخكم ولم يالوا جهدا في النصيحة وبيان الحق فجازاهم الله عن الاسلام وأهله خيرا وهذا نص ما كتبوه بالحرف الواحد .

(بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على نبينا محمد وآله الطاهرين)

أما بعد فقد بلغنا يا اخواننا ما كان قبلكم وفهمنا ما كاتبتمونا به اما ما كتبتم به من أمر الشرط فليس من سيرة المسلمين ان يجعلوا الشرط في الامامة ان لا يقضي امرا دون جماعة .

ولو صح في الامامة شرط لما اقيم لله حق ولا حد ولعلت الحدود وبطلت الاحكام وضاع الحق على 52

ان الامام اذا قدم اليه سارق فلا يصيب ان يقيم عليه حدا فيقطع يده حتى تحضر الجماعة التي ذكرنا او زنى احد فلا يرحم ولا يجلد حتى تحضر ايضا ولا يجاهد الامام عدوا ولا ينهى عن فساد الا بمحضرة الجماعة المعلومة والجماعة يتعذر اتفاقها فالامامة صحيحة والشرط باطل . واما ما ذكرتم من تولية رجل من المسلمين اذا كان فيهم من هو اعلم منه فذلك جائز اذا كان الثاني من القناعة والفضل بمزلة حسنة فقد ولي ابو بكر الصديق رضي الله عنه وزيد بن ثابت افرض منه وعلي ابن ابي طالب اقضى منه ومعاذ بن جبل اعلم منه وهذا ليس فيه اختلاف لقول رسول الله (ص) افرضكم زيد واقضاكم علي وأقرأكم ابي واعلم أمتي بالحلال والحرام معاذ بن جبل وقوله ((ص) معاذ بن جبل سيد العلماء سيحشر غدا يوم القيامة امام العلماء وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته اهـ

ثم القى العلامة مخلص الكتاب الى العلامة عبد الله بن محمد بن مسلمة وأمره بنقل نسخة منه وحفظها لتكون حجة للمسلمين بعدهم في مثل هذه الحادثة والله أعلم . ارتحال شعيب من مصر الى تيهرت طمعا في الامامة هذا ما كان من أمر الرسل مع علماء الحجاز واما العلامة شعيب المصري فانه لما أخبرته الرسل مع من معه بمصر من العلماء بما صدر من ابن فندين من شق عصا الطاعة ومفارقة الامام هزته شنشنة الطمع في الامام وسولت له نفسه ما لم يكن له اهلا فعزم على التوجه الى (تيهت) ولما سمع من في مصر من عقلاء وعلماء الاباضية ورجاهم وكانوا أهل فضل وورع فهو عن السفر الى المغرب وقالوا له لا يسوغ لك الذهاب الى قطر فيه من الاختلاف والشقاق بين الامام ورعيته ما سمعته ووعيت تفصيله وان كان ولا بد فالزم مكانك حتى تنفجر أزمة هذه الحوادث وينحسم الاشكال ويزول الاختلاف ثم ان شئت الزيارة فاذهب في أمان سالما من التهمة فلم يقنع برأيهم وكأنه أظهر للمأ أنه يريد بذهابه الى المغرب اصلاح ذات الين (وما هو الا من المفسدين) اذ جعل الامامة نصب عينيه ورآى ان حصولها له أقرب اليه من جنيبه وما ذلك الا غرور وغلط وجهل بمقام الأمامة فهي بعيدة عنه بعد ما بين المشرق والمغرب ومصر وتيهت لو تأمل . ثم انه خلا ببعض خواصه وأصدقائه منهم الرجل المعروف بالمتوكل وكشف لهم عن خفي سره واستشارهم فيه وأظهر لهم من وجوه التحسين وضروب الترغيب ما أخذ بمجامع قلوبهم ومناهم بما حملهم على مساعفته وتصويب رأيه . فخرج بهم في الليل من مصر وطفق يمسح الارض مواصلا الليل بالنهار رغبة في دخول تيهت قبل رجوع الرسل من المشرق فبلغها يوم العشرين من خروجه من مصر وقد أضنى السير رواحلهم وكأنها من الهجين الذي يطوي مراحل في يوم ويعرف عند بعض القبائل بالمهري والا فان المسافة بعيد جدا لا تقطع بالسير العادي الا في اضعاف هذه المدة .

وقبل ان يجتمع بأصحابه استأذن على الامام لتقديم الزيارة فأذن له وقابله بما يجب من الاكرام والاحترام اذ كان من مشاهير العلماء ورجال المذهب ولم يخطر له انه انطوى على نية سوء وفساد لما عرف به قبل ذلك من حسن الحال وبعد السلام والسؤال عن الاحوال الشرقية سأله الجواب عن المسئلتين المختلف فيهما ولعلمه بما عليه الامام من غرارة العلم والاطلاع لم يمكنه الا أن يجيب بما هو الحق طبقا لما أجاب به الربيع ومن معه وهو أن الامامة صحيحة والشرط باطل وأن امامة من استكمل أوصاف الامام جائزة ولو كان في المسلمين من هو أعلم منه .

(اجتماع شعيب بابن فندين وخروجهما عن الطاعة)

ثم خرج وذهب الى ابن فندين وأصحابه فأظهروا له الاستبشار بقدمه وبالغوا في اكرامه واحترامه وأكثروا التودد له والخضوع بين يديه حتى طمع في الأمر ورجا نيل ما كان يؤمله الا انه ندم كل الندم⁵³

على ما أجاب به الامام في المستلتي واغراء لابن فندين واستمالة له بالغ في الرضاء عنه وفي تخطئة الامام ووازره على رأيه ورأى جماعته وتداعوا الى الاجتماع خارج المدينة فخرج اليهم كل من كان على رأيهم واجتمعوا بكديّة غير بعيدة عنها واتفقوا على انكار امامة عبد الوهاب والسعي في نزع السلطة من يده وعولوا على الحرب الا انهم لم يجمعوا رأيا على تقديم واحد منهم باسم امام ولو مؤقتا الا ما كان من تقدم ابن فندين في الرأي لا غير ولما لم يدرك شعيب من هذا الحال نتيجة ولم ينل شيئا مما كان يمني به نفسه وأصحابه الذين أتى بهم معه من مصر صدره وخاف أن يكون من المذبذبين لا الى جهة الامام لما ظهر منه من موازنة ابن فندين ولا الى جهة ابن فندين لما صدر منه من الجواب للامام في المستلتي بمحضر من الناس وخاف رجوع الرسل من المشرق بتخطئة ابن فندين وحزبه وهو منه فتقوم عليهم الحجة ويفارقهم كل عاقل ممن استغلوه واتبعهم على غير هدى وبصيرة .

فقال لابن فندين ما الذي تنتظرونه من القوم وقد أظهرتم انكار الامامة وشهت عنكم وما لكم في رسل الا وأنتم قد توليتكم الأمور وصفت لكم الولاية وارتفع النزاع .

فأجابوه الى ذلك وهينوا انفسهم وتفقدوا أسلحتهم وجعلوا ينتظرون غرة الوثوب على المدينة على حين غفلة من أهلها الى أن صادفوا خروج الامام لبعض مآرب بعيدة عن المدينة فزحفوا بجيشهم واثارت الصيحة الى المدينة وكان أفلح فيها عند أخته قد ظفرت له أحد شقي شعر رأسه فقام قبل أن تتم له الشق الآخر وتقلد سيفه وقد اشتد غيظه وزفرت نيران غضبه على الثائرين وكان عظيم البنية قويا واقتفى اثره أهل المدينة مسلحين وتلاقى لدى باهما فوقف افلح على العتبة مدافعا وانسلخت رجله الى العرقوب ولم يشعر بها وصارت الابطال تتوارد عليه وهو يناضل بسيفه متقيا بدرقته الى أن أبادها السيوف ولم يبق بها ما يصلح للتوقي به فاخطف احدى دفتي باب المدينة بيده وصار يتقي بها وكان ممن أثقل كاهله بشدة البأس والقوة من مقابليه ابن فندين نفسه فلولى عنان الطرف اليه وقصده وهو يسوق الناس ميمنة وميسرة وعلى رأسه بيضتان وضربه على قمة رأسه فشقه مع البيضتين نصفين وصوب معه السيف الى أن نشب في الباب فحس افلح عند ذلك زلزلة واضطرابا في يده لم يعهدهما قبل ذلك فظن أن ذلك من صلابة رأس ابن فندين فقال ما أقوى رأسك يا بربري يامشوم ولما خر صريعا ورآه قومه بين القتلى ولوا منهزمين وقد مات منهم بشر لا يقل عن اثني عشر الفا سالت بدمائهم البطاح وتلطخت بها الابواب ولن يؤخر الله نفسا اذا جاء أجلها ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم . فialيت الامام كفى المؤمنين عناء الحرب بتسكين هذا الرجل من أول الأمر ولو بأدنى وظيفة من وظائف الدولة حيث كان قيامه وخروجه انما هو لجرد ذلك على ما صرح به حسبا ما مر ولكن القضاء المبرم غالب وما تشاءون الا أن شاء الله ولما افترق الجيشان قصد جمهور من أهل المدينة الى رد دفعة باهما في مكانه فلم يقدرُوا فقالوا لأفلح هم لترد ما نزعنا فقال ردوا على ذلك الغيظ الذي كان بي اوان نزعته حتى رده والا فأنا الآن كواحد منكم فتعاونوا عليه وردوه كما كان ثم عاد الامام من سفره ووجد القتلى في أماكنها والناس على أثر حرب مهولة في رعب وانزعاج فاستغرب السبب وسأل عنه فأخبر بالواقع فأمر بجمع قتلى الفريقين وصفت صفوفها وصلى على الجميع صلاة الجنائز تطيبا لنفوس بقية أتباع ابن فندين وتأنيسا لهم وتأليفا لقلوبهم ولما وقع البحث عن شعيب وجد قد خرج عقب الهزيمة هاربا الى مدينة طرابلس ولما وصلها أظهر البراءة من الامام والانكار عليه وتعالى في ذلك حتى صار يعترض الحاج ابان التشريق ويعلن بذلك فاتصل خبره بالمشرق فأجمعوا كلهم على البراءة منه ومن ابن فندين وأتباعه الا من تاب وأشد الناس عليهم في البراءة منهم العلامة الربيع رحمه الله

فانه كان يجهر بذلك في مجالسه ويعلن بولاية الامام قاتلا عبد الوهاب امامنا وثقتنا وامام المسلمين أجمعين فانا برآء ممن خالفه أو أنكر عليه شيئا على غير حق واذا قيل له كيف تبرأ من شعيب بدون حدث قال وأي حدث أعظم من براءته من عبد الوهاب أمير المؤمنين وموت ابن فندين انقطعت القلائل وسكنت الحركات وانحسرت جرثومة الفساد وانحاز من بقي من أصحابه الى ربوة خارج المدينة يعلو ظواهرهم الخضوع والمسكنة وفي القلوب حزازات وضغائن لم ينشأ عنها شيء يكدر الراحة .

عودة الرسل من المشرق وما وقع بعد ذلك من قتل ميمون بن الامام

ولما عادت الرسل من المشرق بكتاب الربيع المتقدم ومن معه من المسلمين وفيه مامر من صحة ولاية الامام وبطلان الشرط وغير ذلك فرح المسلمون بموافقتهم الحق وتأكدت أسباب المؤدة بينهم وبين امامهم وازداد هو نشاطا في التقدم في الاصلاحات وبينما الحال كذلك اذا صبح ميمون ابنه قتيلا ممزق اللحم مفرق الاعضاء ممثلا به تمثيلا شنيعا غدر به أصحاب ابن فندين لما كمن في صدورهم من الحقد على الامام بسبب تلك الوقائع المتقدمة ووقعة صاحب الصندوق وكأنهم ارادوا بهذه فداء تلك واذا بلغ الخبر الامام قام مسرعا الى موقع الحادثة ووجد ابنه ميمون الناصية ثمرة فواده على تلك الحال فتسريل ثياب الصبر وأبرز من شهامته عظيم التجلد وكامل الثبات وان كان في نفسه من الكتابة والحزن ما يذيب المهج ويدك الجبال وقال وهو ينظر اليه أي بني اجتمع فيك ثلاثة قتلهم ويل لمن مرت الخيل على كسانه وقولهم ويح من أصيب بليل وقولهم اذا مسست ابن السلطان فامسسه مسا عنيفا ثم أمر به فكفن وشيعت جنازته حسب الواجب وغض طرفه عن الطلب بدمه اذ لم يثبت ذلك على أحد ولم يعول على الظنون وأقوال المحركين وارباب الاغراض وكان شديد التحري في الدماء وحسب القائل بذلك حجة هذه الحادثة التي قل من يتربص امامها التحقيق مع الاقتدار وتوجه التهمة من أول وهلة الى أرباب الجريمة .

وكان لميمون ولد هو من النجابة والذكاء بمكان رفيع فرق جده الامام لحاله وولع به ولوعا زائدا واقامه مقام والده يتسلى به عنه صارفا همته في تدريبه معمرا جل أوقات فراغه في تربيته وتهديب اخلاقه وطبعه على الآداب اللطيفة حتى شب على ذلك وحصل من العلوم النافع منها ولا غرابة اذ كان يغترف من ذلك البحر الزلال كل مارق وطاب من السحر الحلال ويختار النفيس من اللال من معدنها المباح له في الغدو والآصال فما كذب اذا من أظن في المقال ولا ينسب الى الاتيان بالخال ولما حسن ذكره وتأكدت الثقة به وتحلى بمحاسن الصفات ورآى منه جده القدرة على القيام بمعالي الأمور قدمه على جباية الحقوق الشرعية وغيرها من مطالب بيت مال المسلمين فقام بما عهد اليه قيام عاقل حكيم يعامل الرعية بكل رفق وسياسة وصار ينتقل من حي الى حي حتى استخلص مطالبه بطيب نفس لا ازعاج ولا قهر فيها لأحد الى ان بلغ مجتمع بقايا ابن فندين فطالبهم برفق حتى استوفى حقه وقبل ان يرتحل عنهم سمع بعضهم يقول وهو بعينه (يا بن المهديور دمه) فتغافل عنه وأوهم الحاضرين بأنه لم يسمع ذلك أو لم يدرك المراد منه ولم يفه ببنت شفة سياسة ودهاء وتادبا مع جده بعدم الدخول في أمر كهذا قبل استئذانه وها يعد من نتائج تلك التربية وذلك الارشاد فما أحسن العمل بالعلم وم أجي مراعاة الحقوق وجانب الأدب وما أسلم عواقب الثبات وما أشد تأثير الدهاء ونفوذ أعمال السياسة وبعد استيفاء ما كلف بجمعه من الحقوق قفل راجعا يحمله ثيار الغيظ الى

ان وصل (تيهت) وفي الحال دخل على الامام جده وباح له بما حل به وما سمعه من القول فأمره بالصبر

والكتمان وعرفه بما لسفك الدماء في نظر الشرع العزيز من التعظيم وأفهمه بأنه سيأخذ بثار والده متى 55

وجد لذلك سبيلا شرعيا بيينة لا تقبل الشك ولو طالبت المدة وامتد الزمان ان ساعد القدر وكان للعمر مجال يسع ذلك ثم عمد الى البحث على الجاني وثابر على ذلك حتى اتضح جليا بالحجة التي لاريب فيها ان ذلك القائل من القتالين لميمون الممثلين به فأرسل في طلبهم فامتنعوا واحتموا بمن كان معهم من بقايا قوم ابن فنين .

(الأخذ بثار ميمون)

فوجه اليهم حينئذ جيشا يرأسه ابن ميمون المذكور فوافاهم في مواطنهم على مسير أيام من المدينة مستعدين للقائه متحصنين وما كاد يصلهم حتى شتموا لمبارزته وصففوا صفوفهم وأوقدوا نار الحرب والتحم القتال بين الفريقين مدة اظهر فيها ابن ميمون من البسالة سعيا وراء ثار والده ما شتت اعدائهم فولوا الأدبار منهزمين وتركوا من قتالهم ما يكثر عدده وقد قيل ان بعضهم رام حصرهم ولما رأى كثرتهم عمد الى أقل الاسماء استعمالا عندهم وهو هارون فعد من سمي به من القتلى فكانوا ثلاثمائة فانكسرت من هذه الوقعة شوكتهم وتفرق جمعهم وأخلد من بقي منهم الى الطاعة والانقياد فاستراح الامام عند ذلك وعمت الطاعة سائر رعيته الا أن بسبب توالي هذه الوقائع وحصول هذا الافتراق في عصابة هذه النحلة وهو أول افتراق وقع فيها صارت الدولة مظنة للضعف ومرمى لسهام الطاعين والطاغين من سائر الفرق الأخرى الداخلة تحت سيطرة هذا الامام ولوائه .

ولشدته رضي الله عنه مع ذلك في اقامة الحدود المرعية والانتقام من كل من ظهر منه انتهاك حرمة من شعائر الدين المقدسة تضايقت النفوس الميالة الى الهوى وحب اللذات والشهوات انقيادا لقائد الاغراض وطلبا لحل عرى عقدة الاجتماع القاضية بالضغط على النفوس الشريرة والمنع من تنفيذ المقاصد الخبيثة ثار الثائرون من ذوي العصابات القوية والأتباع الكثيرة من رؤساء العشائر والقبائل من اخوانه الاباضية وغيرهم من الفرق الموجودة تحت لوائه كالواصلية من المعتزلة وكالصفورية والازارقة والعجم فنكدر صفو الخواطر وتغير سماء الراحة وكثرت الآراء والاقوال وانتحل البحث في المذاهب وعظم الجدل وفشت المناقشة في المسائل الخلافية بين علماء الفرق وأهمها مسألة الامامة فقام كل فريق يطلب الاختصاص بما ويدعي انه أولى وأحق بها ويقيم على ذلك الحجج ويرتب الأدلة .

فعظم التباغض وظهرت مبادئ الاختلال والفساد ونبع في كل جهة داع للجدال ومناد بالمبارزة والنضال وشتت الغارة في الاطراف ونصبت أعلام الفتن والحروب فسفكت الدماء (بين أهل الاسلام والأمر لله) وقطعت المواصلات من الجهات لعموم البلوى بقطع السبل ونهب الاموال فكان ذلك سببا لنهوض الامام رحمه الله واقتحامه المغارز والوهاد لكبح جماح الطاغين وقطع دابر المفسدين فشمروا عن ساق الحزم وكشف عن ساعد الجمد وجمع العساكر وجهاز الجيوش ووالى الحروب العاتلة وصرف الاموال الطائلة حتى أحمد نيران تلك الفتن وشتت شمل تلك الجموع القوية الطاغية بعد وقائع يشيب لها الشباب وأعظمها خطرا تلك الحروب الواصلية .

(خروج الواصلية من المعتزلة عن الامام) (وحرابه معهم)

كانت الواصلية وهي فرقة من المعتزلة في جموع قوية عددا وعدة بجهات المغرب وهم قوم من البربر أكثرهم من قبائل زناتة هم رئيس في مدينة قريبة من مدينة طنجة وهو الذي بايع ادريس صاحب المغرب الاقصى وكان بنواحي تيهرت منهم فريق لا يقل عن ثلاثين وقيل أربعين الف مقاتل فيهم من مشاهير العلماء وأبطال الحرب وأولى الثروة عدد وافر لا ينكر قدره يفوق الكل رجالا أحدهما عالم غائر اللجة حائز قصبة السبق في ميادين المناظرة 56

ذو علوم جهة ولسان طلق ومنطق بليغ وله في المجادلة أطوار وطرق يعجز دونها فحول العلماء قد أعجب بنفسه فأضحى يزخرف للملا مذهبه ويزين حججه ويطلب مناظرة كل من ينسب الى العلم من علماء غيرهم من الفرق ويفوزه في مواطن متعددة تطاول الى الامام وفتح معه ابواب البحث وجرت بينهما محاورات عديدة كان الامام يعجز فيها عن الجواب . والآخر وهو ابن رئيسهم فتي عرف بالشجاعة وشدة الاقدام والبسالة وشهر بالفروسية والبطش بكل من بارزه حتى صار أشهر من نار على علم في تلك الاقطار .

فاهتدت رجال هذه الفرقة الى تأليف القلوب وبث روح التعارف بين افرادها حتى اتحدت كلمتهم وتوحد رأيهم فقامت تشق عصا الطاعة تأسيساً بأبن فندين وتطلب الاستقلال والخروج عن حكم الامام زاعمة انها في درجة يمكنها ان تحكم فيها نفسها بنفسها وان تقوم بادارة شؤونها وكأنها رأت ان من العار عليها خضوعاً لمخالف لها في المذهب مع وجود رئيس لها يدعى الامارة ولعل هذا الرئيس أغراها على ذلك فتكاتب رؤساؤها على الخروج ومناصبه الامام الحرب وأتوا من اقاصي الأطراف رجالاً وعلى كل ضامر من كل حذب ينسلون حتى اجتمع منهم وممن انضم اليهم ممن يسعى في الارض فساداً من غيرهم قريبا من المدينة جيوش غطت السهل والجبال فناصحهم الامام المرة بعد المرة وخوفهم الوعيد وكرر لهم الارشاد والتنبية ودعاهم الى ترك ما به ضلوا والى الاستسلام والسكون فلم يكن منهم الا العتو والعناد والجهر بانكار امامته ثم بدأوه بالحرب فصار يجهز اليهم العساكر ويسوق الجيوش فتظفر تارة وتنهزم اخرى وفي كلها لم يدرك ذلك الفتي ان الرئيس المعتزلي احدا من الفرسان الا ويقتله ويتولى سلبه حتى تفهقرت أمامه الابطال وطار صيته فهابه كل موسوم بالشدة والبسالة ولما كان الامام لا يقل عن درجة والده في الدهاء ان لم يتجاوزها وعلم انه قد انتقل من حرب قوية (حرب ابن فندين) الى حرب أقوى منها مع قوم هم أشد من الاولين بأساً وأكثرهم قوة وان الاسترسال في ذلك لا بما يؤدي به الى مالا تحمد عقباه دعاهم الى الاتفاق على هدنة الى امد معلوم يكف فيها القتال ويقصر فيها الفساد وينظر فيما هم قائمون لأجله ولعله يهتدي الى ما فيه اصلاح الحال فأجابوه الى ذلك وكف القتال واستراح الناس .

طلب الامام الاعانة الحربية من جبل نفوسة لمحاربة الواصلية

لما انهى الامام عقد الهدنة مع الواصلية صرف همه الى الاستعداد لهم وتهيئة ما يطفىء به جذوة نفاقهم ولما كان جبل نفوسة وما يليه من حيز طرابلس من جملة ولايات مملكته التي تدين بطاعته وتتفانى في رضائه وفيه من أهل النجدة والشجاعة وأبطال الحرب وفحول العلماء ما يعد بالالوف رأى ان يطلب منهم الاعانة على مستقبل حروبه فأرسل الى عامله بالجبل كتابا طلب منه جندا يتألف من اربعمائة نفر مائة منها من خيرة فرسان نفوسة وصناديدهم الممارسين لفنون الحرب الماهرين فيها الموصوفين بشدة الاقدام ومائة من المتبحرين في علم التفسير ومائة من علماء الكلام الواقفين على نزغات الفرق العارفين بطرق الرد على المخالفين ونقض مقالاتهم ومائة من العلماء المتضلعين في مسائل الحلال والحرام .

ولما بلغ أمره المطاع جمع أهل النظر في الأمور وأصحاب الرأي وعرض عليهم كتاب الامام وبعد مذاكرة وتربص في الأمر اتفقوا على توجيه أربعة من خيار رجالهم قد شهبوا في اصنافهم بعلو المتزلة والكمال ليقوم كل واحد منهم مقام مائة ممن طلبهم الامام وهم العلامة المتكلم مهدي النفوسي والعلامة المفسر محمد بن يانس والعلامة الفقيه ابو الحسن الابدائي والفارس الشجاع البطل الشهير العلامة ايوب بن العباس . فأرسل العامل 57

اليهم ولما حضروا عنده اخبرهم باتفاق اخوانهم المسلمين على ارسالهم الى المغرب اجابة لطلب الامام فأجابوا بالسمع والطاعة مسرورين وبعد أن هبتوا انفسهم للسفر وودعهم اخوانهم ودعوا لهم بالفوز ساروا على بركة الله ملحوظين بعنايه محفوظين برعايته .

ولما تجاوزوا حد جبل نفوسة ودخلوا البادية احتاجوا الى من يقوم بخدمتهم فطلب ابن يانس وهو منهم ان يتولى ذلك بنفسه وان يقوم بأمورهم الى أن يصلوا المغرب فامتنعوا وابو نظرا لعلو مقامه ورفعة مكانه عندهم فأخ عليهم في الطلب الى أن ساعفوه وصار كلما نزلوا منزلا هيا لهم مقعدهم ومصلاتهم وربط خيلهم وأحضر لهم الطعام والماء حيث يلزم للشرب أو الوضوء ثم اذا صلوا وناموا قام الى التهجد والصلاة فيفضل راکعاً ساجداً حتى يطلع الفجر فينبههم ويهيئ لهم الخيل وبعد الصلاة جماعة يركبون وكان هذا دأبه ودأبهم وهو صائم النهار قائم الليل فشق عليهم الأمر شفقة عليه فسألوه الرفق بنفسه والتخفيف مما هو عليه اما بترك الصوم واما بترك جانب من السهر والقيام بالليل فأبى الا التماضى وأبوا الا التخفيف ولما لم يمثل قالوا له اما أن تترك السهر وأما أن ننظر غيرك لخدمتنا وأما قيامك بخدمتنا بالنهار مع الصوم والقيام بالليل الى الصباح فلا نرضاه منك بعد هذا اليوم وان لنفسك عليك حقاً فحافظها ولما لم يجد ملجأً مما ألزمه به قال لهم اني رضيت بحكمكم الا اني أستأذنكم في صلاة ركعتين كل ليلة مع البقاء على خدمتكم فرضوا بذلك وأذنوا له . وفي الليلة امقابلة قام بعد أن ناموا ليصلي ركعتين فقرأ في الاولى النصف الاول من القرآن وفي الثانية النصف الثاني وما سلم حتى طلع الفجر فقفنوا له فازدادوا اشتغالا وقالوا قد نهيئناك عن طريق فسلكت أشد منه فانك كنت تستريح في كل ركعتين برهة من الزمن لقراءة التحيات فصرت تقف من العشاء الى الفجر الى ما كنت عليه اولاً فانه أخف مشقة وقد رضينا بك خادماً . فرجع الى ذلك ولم يسأم رحمه الله ولم يقطع عادته طال الليل أم قصر صحا الجو أم مطر الى أن وصلوا تيهرت ومما يحكي عنه انه قام حسب عادته في ليلة ذات برد شديد ورياح عاصفة ومطر قوي فانتبه احد رفقاته فرآه واقفا يصلي والريح تعبث بطرف كسائه كالعلم فقال ان كان لا يدخل الجنة الا من كان مثلك يابن يانس ستصيبك فيها الوحشة فلله دره من مجاهد صابر مخلص جامع بين خدمتي الظاهر والباطن رحمه الله رحمة واسعة هذا ما كان من أمر هؤلاء . وأما الامام فانه بقي في انتظار جيش نفوسة منذ أرسل الكتاب الى الجبل ونذر أن يعتق من يبشره من ممالكه بوصوله يتربقون ويقفون على قارعة طريق الشرق ويستخبرون من القادمين أخبارهم وكان له مملوك أعرج لا يقدر على الخروج فلازم احدى شرافات السور ناظراً نحو طريق الشرقيين غير غافل عن الممالك الواقفين هناك الى أن رأهم يوماً يتسابقون الى المدينة فأدركهم ما تسابقوا اليه ليشرحوا بوصول الوفد فتزل ودخل على الامام قبل أن يصلوا وأخبره فوفاه بما وعد من العتق ولما وصل الآخرون ليلغوه الخبر قال لهم (فاز بما الأعرج) فارسلها مثلاً وهو اول من قالها ثم وصل النفوسيون واذا علم انهم أربعة لا غير وقع في نفسه ما وقع من اتهام نفوسة بالتقصير في اعانته اذ طلب اربعمئة وقيل أربعة آلاف وجاءه أربعة رجال فقط .

فأمر بانزالهم في دار الضيافة وبعد استراحهم اجتمع بهم وأظهر لهم السرور التام بقدمهم وان كان في نفسه من الانكسار ما كان . وبعد أن أخبروه بوظائفهم وبما كلفهم به اخوانهم وتعهدوا لهم بالوفاء به طابت نفسه وقال لمهدي اصغ الي حتى أعرض عليك ما جرى بيني وبين المعتزلي من المحاورات لتكون على بصيرة من الأمر وتعلم مقدار معرفته فأصغى اليه وصار يسرد له الحديث وكلما رأى خطأ في كلام المعتزلي قال ها هنا حاد عن جادة

الصواب وسفسط وكان من الصواب ان تحييه يا أمير المؤمنين بكذا وكذا فأطلع الامام عند ذلك على جميع خطأ المعتزلي في كلامه وأدرك حيلته في السؤال والجواب فازداد بذلك سرورا ورجا بلوغ القصد وهم بالأمر بالمصاداة في القبائل للاجتماع وفتح باب المناظرة اولا ثم المبارزة فقالوا له دعنا أياما نستريح فيها وتستريح دوابنا فقد أضناها السفر ولحقها التعب فترك الامام ما هم به والنفوس من الفريقين في اشتياق الى رؤية النفوسيين اذ كان لجيئهم صدى أطبق الاقطار . وفي بعض تلك الايام تغيب مهدي عن رفقائه من الصبح ولم يأثم الا في الليل فغلط في عجين كان في وعاء ينجب عشائه فأكله وبعد أن أتمه قال لهم أرى ان عشاءكم لم ينضج كثيرا واذ تحقق غلظه قال أي احمد الله على ثلاث خصال لم أرها لغيري أقضي اربي من كل طعام صادفته ولا يلحقني ضرر منه وأقل شيء من النوم يكفيني ولا يضرنني السهر ولو توالى ولا أخاف باذن الله مخالفا ان يضحض حجتي الا أن داهنت في دين الله (لا سامح الله) ثم قال لهم قد أفحمت في هذا اليوم تسعين عالما من المخالفين واسترحت منهم والحمد لله ولما قرب انتاء مدة استراحتهم تقدم ايوب الى الامام وقال له ان جوادي قد أضعفه السير وأدركه الحفاء وأخاف أن لا يقوم بحاجتي عند مبارزة فارس المعتزلة فاختر لي غيره من خيل بيت المال فأمره الامام وقال له أن يدخل الحبل ويختار ما أعجبه منها فدخل وكلما رأى جوادا حسن الصورة قوي البنية قبض على ناصيته بيده وجذبه اليه فلا يثبت ويكاد يقع على ركبتيه فيتركه وينتقل لغيره وهكذا حتى أتى عليها كلها ولم يجد فيها ما يناسبه فقال علي بجوادي فأوتي به اليه وفعل به كما فعل بغيره فرآه لم يتزحزح عن مكانه وارسى أرجله في الارض ثابتة كأنها ضربت بمسامير فقال البركة في البرذون فأرسلها مثلا وأخذته وعالجه بالهن والرمل الخمس حتى زال ما به من أثر التعب .

(المناظرة والمبارزة)

وبعد أن انتهت مدة استراحتهم دعا الامام المعتزلة الى الطاعة فأبوا فنأدى مناديه بالحضور الى المناظرة والمبارزة فهرعت من الفريقين أمة كالجراد المنتشر شاكاة السلاح في خيول تدك حوافرها الجبال ورجال تذيب لامة حربها مهيج الابطال أزعج ضجيجها الثقيل وسد نفع غبار حركتها ما بين الخافقين في يوم بلغت فيه أرواح الفريقين الحناجر وخطب فيه خطباء الرخم والسباع على المنابر وزلت فيه عند الامتحان أقدام الطاغين ورفعت فيه رايات النصر لاهل الحق المبين وكان القائم بأمر المناظرة في هذا اليوم المشهود من الاربعة المذكورين ذلك العلامة المقدم السميع الهمام خائض لجج الفنون على الاطلاق حائز قصبات السبق في ميادين السباق الشيخ مهدي النفوسي بعد أن عرضها على العلامة ابن يانس وقال له تقدم أنت ولست بأعلم مني .

وكان المعتزلي داخله الرعب أو قصد الخيانة فقال لمهدي ما لنا ولا بداء عوراتنا للناس وكلانا ممن شهر في قومه ونال الصيت البعيد فهل لتتعاهد على أن يستر كل منا صاحبه سواء حاججتني أم حاججتك ولا يعلم أحد بمن كانت له الغلبة على صاحبه فأجاب مهدي لذلك وقد أدرك انها مكيدة منه وقال لأصحابه أي قد عاهدته على الستر وعدم التكلم ولكن اذا نزع القلنسوة من رأسي ووضعتها تحت ركبتي فادركوا اني قد فزت عليه وظفرت بالقضية . ولما خرجا الى ما بين الصفوف ومع كل منهما خواصه من العلماء كان الامام معهم فتناظرا في المسائل الخلافية وأطلا في ذلك ودخلا ابوابا وفنونا صعب على الحاضرين فهمها حتى كان الكلام بينهما كصفق الحجر لا يدرك أحد من الحاضرين معنى له على ما قيل ثم عجز المعتزلي وسلم .

فترع مهدي قلنسوته كما وعد به أصحابه فكبروا لما رأوا ذلك تكبيرة رجل واحد بلغ صداها عنان⁵⁹

السماء فبهت المعتزلي وقال غدرت يا مهدي وخالفت العهد وما هكذا كان الوعد بيننا وقاما والفخر يصاحب هذا والقهر يوازر ذاك فبرز على أثر ذلك فارس المعتزلة وابن رئيسهم في هيئة مرهبة شاك السلاح على جواد سابق وهو يزأر كالأسد ويرمح كالعقاب ويظهر للناس من أنواع فروسيته ما جعلهم في غرابة وعجب .

فخرج أيوب من بين الصفوف يقود جواده مع سكينه وهدو الى أن تراى للفريقين وكانت العيون شاخصة لرؤيته مصوبة السهام نحوه من كل الاطراف لما يبلغهم من أخباره في الفروسية وشهرته ولما اراد الركوب وكلهم ينظرون تجاهل فركب من جهة اليمين خلافا لما هو المتعارف عند الناس من الركوب من جهة الشمال . فضحك المستعجلون من المعتزلة الذين لا علم لهم بمكائد رجال الحرب واستبشروا وضمنوا الفوز لصاحبهم الا والده فانه أدرك ذلك في الحال وقال متأوها وقلبه يرجف ولسانه يتلجلجل هيئات هيئات الآن حل أجل ولدي اذ جاء قاتله بلا شك . فساله بعض الناس عن ذلك فقال لم تروا كيف تدلي ايه فره ولا يفعل الفرس ذلك الا مع الفارس الحاذق .

وبعد أن استوى مهدي على ظهر جواده قذف حربته في الهواء كما هي عادته حتى كادت تغيب وكانت تزن ثمانية عشر رطلا وهياً لها رمحه فجاءت فيه مستوية متمكنة لا تحتاج الى تركيب وذلك أول ما القى به الفرع في قلوب الناظرين فاستعظموه وهالهم أمره ثم جال في ذلك المضمار جولان الأسد الضائر وأقبل وأدبر مع المعتزلي على جواد كالعقاب الطائر . (مكر مفر مقبل مدبر معا كجلمود صخر حطه السيل من على) حتى رأى منه الاقربان من فنون الاحتيال وغريب طرق الفروسية في التزل وبديع الخداع في الاقوال والافعال ما قذف في قلوبهم الرعب وصددهم عن القتال . وما كان غير ساعة حتى التقم فارس المعتزلة وابن رئيسهم التقام عصا موسى سحر سحرة فرعون وجندل به الارض مع ذلك الجواد المستأسد وذلك السلاح المكنون فتحمست المعتزلة وزحفت الى القتال فتسعرت نار الحرب بين الفريقين برهة من الزمن حتى فيها الوطيس وأشدت الخطب وعظم المصاب وكان أفلح بن الامام وأيوب يجزان الهام ويشتان الصفوف ميمنة وميسرة الى أن سقط في أيدي القوم ورأوا أنهم قد ضلوا وضربت عليهم الدلة وباءوا بغضب من الله وولوا الادبار منهزمين وقد مات منهم خلق كثير حسبوا منه ما قتله افلح وما قتله ايوب فوجوا لايوب قتيلا زائدا على أفلح وكان كلا منهما استقل بجهة والا فكيف يصح تمييز ذلك خصوصا في يوم كذلك اليوم المزدهم والله أعلم .

وكان أيوب قد أحس في اثناء ال ضرب بزلزلة شديدة في ذراعه فاخبر بما بعد ذلك وقال اني قد ضربت شيئا صلبا لا أدري ما هو ولا أظنه آدميا فتصفحوا القتلى فوجدوا بينها عمودا قائما ولما جسوه بأيديهم وقع الى الارض نصفين فعلموا أنه هو الذي أخبر به ايوب وقد ضربه وهو يظن أنه رجل وكان لسيفه مقدار شبر لاحد له مما يلي مقبضة لكي لا يضره ان جعله على عاتقه اذا سئم من حمله أو تعب من الضرب به وبعد استسلام المعتزلة واقرارهم بالطاعة التامة لم يبق لهم طمع ولا رجاء في القيام بعد هذه الحادثة .

فعاد الامام الى عرش خلافته يكتنفه الظفر ويتوجه الفخر وقد ناله من الجدل ما حمله على نشر الشاء الفاخر والذكر العاطر على ذلك الوفد النفوسي المنصور .

(استدعاء المعتزلة أبا العباس للضيافة) (بقصد الغدر به)

ثم بعد ذلك بيومين على ما قيل أرسل وجوه المعتزلة الى أبي العباس يدعونه للضيافة فمنعه خواص

المسلمين وحذروه الغدر به فأبى الا اجابة دعوتهم والمسير اليهم ولما وصلهم رحبوا به وأظهروا له من أنواع التجميل ما ظنوا أنه أغتر به ولدى اجتماعهم وتبادل الرأى في كيفية غدره وقتله رأوا أنه لا يمكنهم ذلك وهو في اللحظة لما علموه من شدة باسه وأجمعوا اخيرا على أن يكثروا له من الاطعمة اجالبة للنوم حتى اذا نام قتلوه فقدموا له عند العشاء قصعة طعام عليها عجل صغير برمته وقربة من اللبن الحامض وكان رحمه الله عظيم البنية جدا كثير الاكل فاستوفى الطعام أكلًا وانتقى العظام عظما وشرب ذلك اللبن كله اظهارا للقوة امامهم اذ فهم مرادهم من ذلك ثم استوى في وسط الحص مترعا وأخذ في تلاوة القرآن العظيم حتى طلع الفجر فصلى الصبح بوضوء العشاء اذ لم ينتقض لا بنوم ولا بحدث وكأنه ما أكله من الطعام واللحم وما شربه من اللبن لم يكن شيئا مذكورا ولما طلعت الشمس طلب جواده ليذهب فأحضره وقد أبهرهم ما رأوه منه في تلك الليلة وقالوا له ان فتيان الحي طلبوا منك ان تعلمهم شيئا من الفروسية ومما عندك من فنون الحرب فقال أجل وليحضرُوا فركبوا خيلهم وبأيديهم قضبان ليعلمهم كيفية العمل بها عوضا عن السيوف وكان فيهم رجل مشهور عندهم بالاقدام والقوة تعهد لهم بقتله وبينما هم في أثناء التعلم أخذ الرجل في الاحتيال لضربه ففطن له وتغلغل عنه حتى في ذلك الوقت بلا جدال .

وهؤلاء الأربعة فضائل ومآثر كثيرة وكرامات ذكر الشماخي رحمه الله بعضا منها فلترجع هناك.

ومما يوتر بالذكر من كرامات العلامة مهدي في هذا السفر ما ذكره الشماخي من أنهم ضربوا أخبيتهم في الطريق أثناء رجوعهم من (تيهرت) لخر أصابهم وكان مهدي خارج الاخبية فسمعهم يتمنون أمورا خطرت لهم فقال أحدهم لا أتمنى في هذا الحر الا لبنا صافيا باردا وقال آخر ما منى الا شربة من ماء (أيندل) وهي عين بقرب الجزيرة المعروفة بقرب (مدينة شروس) ولم أقف على ما تمناه الثالث ولما سمع ذلك منهم دخل اليهم وسألهم عهد الله وميثاقه على كتمان ما سيطلعهم عليه من السر فاعطوه العهد على ذلك فحل وكاء قربة لهم فيها شرايهم وصب منها لمن تمنى لبن لبنا خالصا ولمن تمنى اماء ماء لا يشك في انه من عين (أيندل) وصب للثالث ما تمناه أيضا فحمدوا الله على نيل مطالبهم وشكروا فضل مهدي وزادوا في توقيره لما رأوه من الكرمه على يديه وجدوا السير الى وصولوا الجبل وقد خلفوا الامام بتيهرت راضيا مستريح البال لا حرب ولا شقاق ولا نفاق الى أن تنوسي الأمر بمرور الزمان وبلغ الامن منتهاه وحدث من لم يحضر تلك الوقائع من حديثي السن وقربي العهد بالدخول في زمرة امعدودين من الرجال وأولى الثروة فببت في قلوبهم بذر النفاق وسري فيهم سم الخيانة فكانوا سببا لحصول وقائع وحروب اخرى هملت الامام ودولته مشاق التجهيزات والخسائر القوية في الاموال والرجال وقد ذكرها ابن الصغير المالكي مفصلة على وجه لم يذكره غيره من المؤرخين فخذها على سبيل الاجمال طبقا للقاعدة المتقدمة هم به فاتقى ضربته والتفت اليه فصرعه الى الارض ميتا ومال عن يمينه فقتل ثمانية ثم عن شماله فقتل مثلها وصاح بنساء الحي وهن يرقبن ويكيبن فقال أزيد أم يكفيكن وترك الكل في نحيب وعويل وتوجه راجعا من حيث أتى فمر بواد فيه سباع قل من يتجاوزوه وينجو سالما ولما أحسوا به تسارعوا اليه فشمر لهم عن ساعده وقطع ارجلهم وتركهم يزحفون وجاز على بعض أحياء البربر فقال لهم من أراد اللحم المكروه فليذهب الى اوادي الفلاني ولما جاء الى الامام ورفقته أخبرهم بما جرى فحمدوا له السلامة وشكروا الله على نجاته وخلاصه من هذه امكيدة ذكر هذه الحكاية كما سمعتها كل من العلامة الشماخي والعلامة ابي زكرياء رحمهما الله والظاهر ان في كلامهما اختصارا مجحفا بما يقتضيه المقام من الايضاح والا ففي بعضها عندي نظر فان استدعاء المعتزلة ابا العباس بعد يومين من تلك الحرب العظيمة مع ما حصل منه فيها مما يستبعد

العقل جدا ثم اجابته دعوتهم وذهابه اليهم بدون رفقة كما يفهم من كلام الشيخين أشد بعدا اللهم الا ان تكون الحكاية واقعة قبل اعلان الحرب رسميا لا بعدها أو كان الذين دعوه لا دخل لهم في هذه الحرب وانه استصحب معه رفقة وأهمل الشيخان ذكرها والله أعلم بالحقيقة وكان يقول لا أعلم أن لي مقابلا يبارزني فيما بين مصر وفاس وبعد أن قضوا وطهرهم من (تيهرت) في أيام وليالي قطعوها بين احترام وتعظيم ونالوا حسن التوجه من الامام وتزودوا بالدعاء من أكابر العلماء وأفاضل الصالحين والاولياء عطفوا اعنتهم نحو وطنهم ومقر عزهم موطن الفخر والعلاء اذ ذاك ذلك الطود الشامخ عالي القمم والهمم مرتفع الرأس والنفوس (جبل نفوسة) سيد جبال الغرب ومجمع الفحول من الرجال ومنيع علوم المعقول والمنقول .

(حرب أخرى لهذا الامام)

(مزوج) جرت عادة قبائل البربر وغيرهم من سدراته ومزاته وغيرهما من أهل البوادي أن يرتحلوا من أوطانهم اتي يجتمعون فيها من بلاد الزاب وغيره من الجهات في زمن الربيع الى حوالي (تيهرت) وما يليها من الأودية والجبال والغابات لما فيها من العشب والاتساع مع الأمن ولما يجري لرؤسائهم عادة من الاكرام والضيافات والاحسان من أقاربهم وأحبابهم الذين هم بالمدينة ومن وجوها وتجارها مع مشاركتهم في الرأي فيما يختص بمصالح الاسلام والامام ولا داء حق النزاور في الله وصلة الرحم .

ولما دار في الخواطرها جس الفساد وسرى سم النفاق في صدور أهل البغي والعناد من أهل المدينة كان الارتحال من قضاء الله في سنة من اسنين (ولم يعين ابن الصغير تاريخ تلك السنة) خارقا للعادة فجاء من كل قبيلة وفرقة خلق لا يحصى حتى امتلأت المدينة برؤساء تلك العشائر فوجد ارباب الفساد ومن قصد اشفاق من رجال المدينة فرصة لبث وسائل البغضاء وبذر نافع السم في الدسم فاستمالوا القوم على حين غفلة من انفسهم وناجوههم بالطعن في ولاة الامام وقضاته وأصحاب شرطته وقالوا لهم قد ساقكم الله الينا وأنتم أكرم الاضياف يسمع لكم القول ويقل منكم النصح وقد تعين عليكم الدخول الى الامام لتسألوه عزل هؤلاء الولاة وتبديلهم بغيرهم ممن يحمد الناس سيرتهم (ولا يخفى على العالم الخبير ما عليه غالب أهل البوادي من جهل السياسة الحضرية وعدم ادراك حيل ومقاصد أهل الحضرة شأن سائر ارباب البادية) فآثر ذلك في نفوسهم وظنوا أن ذلك من النصيحة في الدين بمكان كبير به ينال المرء عظيم الدرجات عند ربه . فاجتمعوا واستأذنوا على الامام فاذن لهم ولما دخلوا تلقاهم حسب عادته بكل بشاشة وقابلهم أحسن مقابلة وبعد تبادل عبارات التحية قام متكلمهم فحمد الله وأثنى عليه وقال . ان رعيتك يا أمير المؤمنين قد ضجت من قاضيك وصاحب بيت مالك والقائم بشرطتك وقد جئناك نطلب منك أن تستبدل لهم بغيرهم ممن يرضونه من خيارهم وبذلك تحوز رضاءهم وتفوز برضاء مولاك .

فأظهر الامام الارتياح لهذا الطلب وقال لهم جزاكم الله من وفد خيرا فقد افتقدتم من الاسلام ما يفتقده من كان مثلكم وما أناذا قد فوضت لكم الأمر في ذك فبينوا لي من ترونيه صالحا لذلك لأقدمه .

فدعوا له وأثنوا عليه بخير اذ ساعفهم فيما اقترحوه عليه وانصرفوا فدخل على الامام بعدهم وجوه رجال دولته وقواده وأهل الاصلاح من جماعة المسلمين وقالوا له ما بال اخواننا أتوك اليوم بأجمعهم وأخلت لهم المجلس وحجبت غيرهم ولعلمهم أشاروا بخير ودلوا على صلاح .

فذكر لهم ما قالوه مفصلا وما أجابهم به فاغتموا وقالوا له قد أسأت الى نفسك والى جميع اخوانك⁶²

المسلمين ورجالك فقال وكيف ذلك وقد قالوا خيرا وما سالوا شططا . فقالوا لو كان ذلك منهم لقصد الاصلاح والنصيحة في الله هان الامر ولحسن المال ولكنهم سالوك عزل من ارادوا من رجالك بدون سبب ليحرفوا بعد ذلك قائلين ان المسلمين قد نعموا عليه أشياء أخرى فاتركها فان اجبتهم الى ذلك شكروك وأن أبيت خلعتك ثم لا تأمن وان أجبتهم الى كل ما سألوه ان يقولوا لك ان المسلمين لم يجتمعوا عليك في ابتداء أمرك فاردد اليهم أمرهم حتى يجتمعوا عليك ويكون ذلك زيادة في شرفك .

وعلى كل حال فسؤالهم هذا هو عين الفساد وأس الاضطهاد .

فأمعن الامام النظر وقدح زناد الفكر في الكلامين الى أن أدرك سر الطلب وما كمن فيه من المكائد فقال وما الرأي الآن وقد تقدم مني لهم من الجواب ما سمعتموه ولا يجمل بمثلي الرجوع فيما قال فقال له ان الامر في ذلك سهل قال وكيف ذلك قالوا اذا رجعوا اليك غدا لانجاز الوعد فقل لهم ان لنا ولكم اخوانا لا غنى لنا عن مشاركتهم في الرأي في أمر عظيم كهذا لما فيه من العزل والتولية فيجب حضورهم معنا ثم أجمع بيننا وبينهم فنكفيك مؤنة الجواب ان شاء الله .

وفي الغد دخل القوم على الامام في الوقت المعين لهم لاتمام ما وعدهم به وبعد تمكن كل من مجلسه سال مقدمهم من الامام الوفاء بالوعد فقال رضي الله عنه اني على ما عاهدتكم به من قبل ولكني أرى من القبيح بي وبكم أن نستأثر بمثل هذا الامر دون اخواننا لما فيه من تغيير قلوبهم وكسر خواطيرهم الموجبين لشتات الرأي والاختلاف فقالوا صدقت وأصبحت فأحضرهم ولا نراهم الا موافقين لنا فأمر بهم فحضرُوا في الحال وقال لاؤلئك اخبروا اخوانكم بما به أشرتُم وبما لأجله اجتمعتم فينبوا لهم عند ذلك ما دار بينهم وبين الامام من الكلام فقالوا لهم جزاكم الله عن الاسلام وأهله خيرا على هذا الاهتمام الا اننا نطلب منكم بيان على هذا الطلب والداعي اليه اذ لا يخفي على كل عاقل مثلكم ان العزل بدون سبب بين وجرحه واضحة لا يمكن ان يصدر من الامام لما قد ينشأ عن ذلك من المضار فأبرزوا ان علمتم شيئا يوجب ذلك حتى يجعله الامام حجة عليهم جبرا للخواطير وأما العزل بمجرد سعي الساعة فلا نرى انكم تطلبونه مع ما أنتم عليه من الدراية والعقل فلم يكن منهم الا أن قالوا هذا رأي حادث وأمر مبرم وما هكذا كان اتفاقنا مع الامام بالامس .

ثم خرجوا ممتلئين غيظا حالفين على أن لا يدخلوا في أمر دون عزل من سالوا عزله أو محاكمة الامام فشاع خبرهم بين قبائلهم وأنضم اليهم لفيف من الناس ومن كان على رأيهم وظهرت المناقشات في ذلك وفشا الخلاف واتسع خرقه فاستشار الامام رجال دولته ومن تجب مراجعته من ذوي الرأي والعلم فاشاروا عليه بالقضاء المواعظ اليهم واعلامهم بخرج موقفهم وانذارهم بسوء عاقبة ما انتحلوه من الشقاق ان لم ينتهوا عما يقولون ثم ان أصروا وأبوا الا العناد والعتو في الارض كانوا بغاة فيجب على الامام والمسلمين ردعهم وقتالهم (عملا بقوله تعالى فان بغت احداهما على الاخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء الى أمر الله .).

فعمل الامام بمقتضى هذه الاشارة ولم ير منهم الا الاعراض والعناد والسعي في اثاره الفتنة فشمز لاقاعهم بالسيف .

فلما رأى ذلك عبد الوهاب ومن معه برز اليهم فما كان الا كلمح البصر الا وجميعهم صرعى الا من شذ وولوا ولم يتبعوا لهم موليا ولا أجهزوا لهم على جريح ثم انصرف عبد الوهاب قافلا بمن معه وولت القبائل

الداعية الى مواضعها واستملاك الأمر لعبد الوهاب وبقيت حزازات في النفوس في قلوب عشائر من قتل ثم أشد أمر عبد الوهاب وقوي وانتقل من حال الامامة الى الملك اهـ.

(تزوج الامام من قبيلة لواتة وحرب بني مسالة معه لذلك) (ممزوج)

لا يخفى أن القبائل الكثيرة العدد قلما تخلو في الغالب من رؤساء متعددين متفاوتين في كثرة الاتباع والمنسبين اليهم وقد كانت القبائل القاطنة بازاء (تاهرت) على هذا المنوال فكانت في هواره تلك القبيلة اطويلة العريضة من الاباضية رؤساء مقدمون يقال لهم الاوس ويعرفون ببني مسالة فتقرب رئيسهم لرئيس قبيلة لواتة (وقيل لغيرها من قبائل البربر الكبيرة) بقصد مصاهرته في ابنة كانت له توصلا الى تعزيز جانبه بضم تلك القبيلة اليه .

ولما أحس من له بصيرة وعلم بحقيقة ذلك أشار على الامام بالمبادرة الى تلافي الامر بأن يخطب البنت ويتزوجها أو يسعى في تزويجها من يامن شره اضعافا لشوكة ذلك الرئيس وابعادا له من الالتحام بقبيلة البنت وانضمام القبيلتين بطريق المصاهرة اتقاء من حصول الاتحاد على الفساد والتعصب (وهكذا شأن الملوك في سياستهم حتى الآن فانهم يخافون من حصول الوفاق بين القبائل ولا يطمنون لكل من رأوا له اتباعا من الرؤساء وأصحاب الطرائق لما ينشأ عن ذلك غالبا من الفتن وظهور التأثيرين حسبما قضت به التجربة وشهدت به التواريخ بما دون فيها من الوقائع .

واذ ذاك خطب الامام البنت وتزوجها ولما بلغ خبر ذلك الى الرئيس الأوسي غضب وآلى أن لا يساكن الامام في مدينته وارتحل منها الى واد ينسب الى هواره على بعد نحو عشرة اميال من المدينة وهنا لك انضمت اليه عشيرته ومن غضب لغضبه ممن ضاقت بهم سبل الحق وقيدتهم خطة العدل وراموا الزيف عن جادة الاستقامة ولما صار في جموع كبيرة أعلن الخلاف .

ولم تزل السعاة بين الفريقين رائحة وغادية الى أن أوقدت نارا لحرب وبدأت بالغارات فأصاب اول غارة هواره ولدا لبقال على نهر هناك يعرف بنهر ابي سعد الله فقتلوه وتركوه ولم يغيروا من حاله ولا من ماله شيئا وثارت الصيحة الى المدينة فابتدر الناس الغلام فأصابوه ولا روح له ولما لم يجدوا فيه تغييرا حاروا في الامر ثم صاروا يبحثون في متاعه الى أن فقدوا خاتما كان في أصبعه .

فكبروا وقالوا هؤلاء قد استحلوا الاموال والسلب اهـ فحل للمسلمين وامامهم قتالهم فحملوا قتيلاهم وواروه التراب وأخذ الامام في التهيء للحرب والخروج اليهم فاجتمع له من العسكر خيلا ورجلا ما ملأ البقاع واجتمع للاخرين من الجموع ما لم يجتمع لئلهم .

(قال) حتى عدوا في خيلهم من لون واحد الف فرس أبلق وخرج عبد الوهاب بعساكره من المدينة في جموع لا يعلم عددها الا الله واتصل خروج عبد الوهاب ببني أوس . فجمعت جموعها وعبت كتابتها على نهر يقال له اسلان قالوا وكان عبد الوهاب قد أصابته ريح فأمر راحلته فرحلت وجعل عليها محمل وجعل عديله رجلا من نفوسة وقائد راحلته رجلا من نفوسة وكان القائد ربما عجل ويقال له رويدا رويدا قال فيقال له ويحك انما قيل رويدا فيقول هو ذاك فلم يزل يسير حتى تراى العسكران اهـ .

(ممزوج) فرتب الامام قواده وصفوفه وجالت الخيل في ميدان الحرب ميمنة وميسرة وتنازلت الابطال من الصفيين والتحم القتال فسد غباره ما بين الخافقين وكلما نظر الامام ذات اليمين وذات الشمال والقلب رى فارسا فاق الاقران ودوخ الكتائب فيقول من الفارس فيقال له هو ابنك افلح فقال معجبا به قد استحق⁶⁴

افلح الامامة (فاتها انما تنال بامثال هذا الاقتدار لا بغيره) .

فكان أول يوم عقدت له فيه الامامة قال فلم يزل الناس يقتتلون لا يولي بعضهم لبعض الدبر الى أن سال وادي سلى ذلك اليوم دما اهـ .

(ممزوج) ولما رأى الامام صبر الفريقين وعدم تزحزح العدو عن موقعه والسيوف تحز الهام ولبرقها لمعان في سحب تلك السهام اشتد غضبه وزاد في الثقل ونادى يادينار زم الخطام وتقدم بنا ففزع زميله النفوسي وخف فرجح الامام به ولما شعر بذلك قال ما بال المحمل فقيل له قد خف زميلك النفوسي (وقد يكبو الجواد والا فان لنفوسه البات في الحرب) فقال ثقلوه بحجر ولا زال دينار يتقدم والامام يتنقل والنفوسي يخف فيزيدون معه حجرا الى أن هزم العدو ورجع الامام يحف رايته النصر والظفر فاقبل على ابنه أفلح وقربه اليه ورشحه للامامة .

(قال) وانقطع له (أي لافلح) المنقطعون ودارت الحوائج اليه والعطاء من تحت يده اهـ وصار الامام بعد ذلك في راحة ودولته في تقدم الى ان كان كما وصفه بعد ذلك .

(قال) وكان عبد الوهاب هذا ملكا ضخما وسلطانا قاهرا قد اجتمع له من أمر الاباضية وغيرهم مالم يجتمع لأباضي قبله ودان له منهم مالم يدن لغيره واجتمع له من الجيوش والحفدة ما لم يجتمع لأحد حتى انه لقد حكى لي جماعة من الناس انه لقد بلغت بجمته الى أن حاصر مدينة طرابلس وملك المغرب بأسره الى المدينة يقال لها تلمسان اهـ.

ومدينة تلمسان الآن من اعمال الجزائر وهي نهاية حكمها مما يلي مملكة فاس فيها من الأبنية العجيبة والصنائع المهمة ما يستحق الذكر وأهلها اولو رفاهية ونظافة غير بعيدين في ذلك عن سكان مدينة تونس ذات الأدب والعلم والحضارة في المغرب بهذا العصر ولهم في التجارة غربا وشرقا حسن اقتدار وقد استبحرت في العمران بعد استيلاء الدولة الافرنجية (فرنسا) عليها تبعا للجزائر وغت تجارتها بما جرى فيها من تسهيل طرق المواصلات والنقل كغيرها من مدن الجزائر وتونس التي لا تبعد كلها في الوضع والشكل والترتيب عن بعضها بعض اذ كان نافخ روح العمران والحضارة العصرية وبث الصنائع على اختلاف أنواعها وفنونها في الكل دولة واحدة .

(عزم الامام على أداء فريضة الحج) (ومروره بجبل نفوسة)

ولما رأى الامام رحمه الله من سائر اتباع دولته كمال الانقياد واستيلاء الامن والعافية على البلاد وانقطاع دواعي الفساد وجرثومة العتو والعناد حن متشوقا الى زيارة ضريح أفضل الخلق على الاطلاق نور الوجود ونبراس اليوم المشهود سيدنا محمد (ص) وعلى آله الابرار والى تلك الديار المقدسة الطاهرة . وقد علم من نفسه رحمه الله انه ممن تعين في حقه القيام بأداء فريضة الحج المعظم لما لديه مما أتاه من فضله من الثروة اواسعة اذ كان رحمه الله قبل تحمله أعباء الامامة من أعظم أولي الأموال الوافرة في عصره فكانت تجارته في أشهر المدن والجهات كالسودان والحجاز واليمن والبصرة وغيرها من مدن الشرق حتى قال شاهدا على نفسه بالغنى شكرا لله تعالى وتحدثا بالنعمة ما معناه (لو لم أكن الا أنا وابن جبري وابن زلغين لأغنينا بيت مال المسلمين بما علينا من الحقوق الشرعية) فهو ذو ذهب وفضة . وابن جبري فلاح عظيم كانت زكاته في السنة آلاف حمل من البر والشعير وقيل ان أندر زرعته يرى من مسافة أيام كاجبل وابن زلغين ذو ابل وغنم له من ذلك ما يعد بمآت الالوف ذكر المؤرخون ان له من صنف الحمير

وبعد أن أبرأ ذمته من التبعات وقضى ما عليه من المطالب دينا ودنيا امتطى متن جواده مستصحبا معه (زوجته) وتوجه الى الحجاز مع البر في جمع كبير فمر على جبل دمر وأقام فيه أياما اعترفوا له فيها بالامامة وقدموا له البيعة مباشرة واستعمل عليهم عاملا يعرف بمردار . وله هناك مسجد كبير ومصلى مشهور به في موضع يقال له (تالالت) فيه رخامة كان يستند تساوى رأسه عند قعوده وقد ذكر صاحب السير رحمه الله وهو من علماء آخر المائة التاسعة انما في وقته تساوى صدر الواقف وكأنه رحمه الله كابنه افلح عظيم البنية وله في وادي تصاوين بجهة افريقية مصلى ايضا أصلح خرابة العلامة الشماخي رحمه الله باعانة مجاوريه من العرب كما حكاها في سيره أثابه الله .

ثم سار الامام من جبل دمر الى أن دخل حدود جبل نفوسة وبينما هو يسير بين المنازل والقرى الغربية اذ أدركه المطر وأشدت البرد وكان ذلك بالقرب من قرية (ويغو) الكائنة فوق جبل مدينة (سروس) وهي قرية جميلة المنظر تدل اطلالها ورسومها العتيقة على اتقان صنعة بنائها . فقصد الامام دار العلامة مهدي فيها فوجدها دار رجل زاهد عابد لا غطاء ولا وطاء وقد حصل للامام ومن معه من البرد والمطر تعب كبير .

وكان الشيخ فرج بن خالة مهدي رجلا مترفا متحضرا ذا بسطة في المال وكثيرا ما عاتب مهديا على غلوه في التقشف والاعراض عن الدنيا وكأنه يميل الى استحسان أمثال قولهم (لا يستقيم الدين الا بالدنيا وقول الشاعر .

مأحسن الدين والدنيا اذا اجتماعا وأقبح الجهل والافلاس بالرجل

فيعكس مهدي عليه القضية ويعاتبه على اشتغاله بالدنيا وتعلقه بأسباب جمعها تعلقا زائدا حتى انما اجتماعا ذات مرة بتيهت بين يدي الامام قبل قدومه الى الجبل فشكا له كل منهما صاحبه فقال مهدي ان ابن خالتي هذا يا أمير المؤمنين قد اشتغل بدنياء حتى كاد يضر بآخرته وقال فرج ان مهديا هذا ابن خالتي وقد اشتغل بآخرته حتى احجف بدنياء وطالما نهيته عن ذلك ولم يقبل فمن المصيب منا يا أمير المؤمنين فسكت الامام ولم يرد لهما جوابا الى ان كان قدومه هذا الى الجبل بعد سنتين متعددة وبينما هو بدار مهدي على ما وصفناه من عدم توفر أسباب راحته من مشقة السفر والمطر اذ أقبل ابن خالته من غيبته فطلب منه نقل الامام ومن معه اليه فساعفه وفي الحال حضرت الخدم وهيا لهم ولدواهم ما يكفيهم من اخلات وخصص لكل واحد منهم فراشا ووسادة وغطاء وبدلة ثياب نظيفة طاهرة ونشر أثوابهم المبلولة بالمطر وقدم لكل واحد كانوا من الجمر أمامه وأحضر لهم في الحال ما كفاهم من أنواع الطعام الفاخر وأكرم دواهم بما لزم من العلف والشعير وبسط عليهم مما لديه من الخير ما جعلهم في راحة تامة .

واذ ذاك تذكر الامام الحكاية المتقدمة فدعا مهديا وقال له قد حاجك ابن خالتك يا مهدي (لأن للدنيا في اقامة الدين يدا طولى) وقد تعجب القوم من استحضار فرج في أقرب وقت على حين غفلة تلك الكوائن كلها ويقال انما محابس فخار كان أعدها للغرس . وكأنهم كانوا يستعملونها على نحو ما يستعملها الناس اليوم في المدن . وهذا دليل على أنهم كانوا أهل اعتناء وعمل للدين والدنيا لا أهل بطالة وكسل على حد قول حكيم زمانه وامام أوانه العلامة ابي نصر الملوшائي النفوسي رحمه الله

احب فتى ماضي العزائم حازما ولدنيا وأخرى عاملا بالتشمر

وأما أخو النومات لا مرحبا به ولا بالجثوم الراكد المتدثر

وبعد أن قضى الامام في قرية (ويغو) اياما استراح فيها من تعب السفر ارتحل الى بلدة (ميري) وهي قرية متوسطة بقرب حصن بني زمور المشهور في التواريخ ولبدة ابي يحيى التردتي وبلدة ابي الشعثاء السنتوي مستجابي

الدعاء الشهيرين في جبل نفوسة بالعلم والورع والكرامات الباهرة وتعرف تلك الناحية في زماننا هذا بناحية الرجبان لعمرائها بمدخراتها وجلاء نفوسيتها منها بعرب يسمون بهذا الاسم يتمذهبون بمذهب الامام مالك وهي تابعة في الحكم الآن لحاكم فساطوا المقيم في بلدتنا (جادو) المسماة باسم مدينة جادو المشهورة في التواريخ التي خربتها قبائل العرب عند ضعف نفوسيتها ولا تبعد عنها الا بمقدار نصف ميل تقريبا .

(منع نفوسة الامام من الذهاب الى الحج وخبر ذلك)

ولما فشا خبر توجه الامام الى الحج اجتمع العلماء وأصحاب الرأي من نفوسة وغيرهم واتفقوا على منعه والتعرض له خوفا من غدر ملوك الشرق (بني العباس) به ومن قبضهم عليه لان الملك في تلك الاقطار لهم ولائهم كانوا منه في رعب شديد .

فاستأذنوا عليه فأذن لهم ولما دخلوا وأخذوا مجالسهم قام متكلمهم وقال انك قد تقلدت يا أمير المؤمنين أمور المسلمين أمور المسلمين فأحسن السيرة وقمت بالعدل ولا يخفك ما للملوك الشرق نحوك من الحقد وخبت النية وانا لنخاف أن يقبضوا عليك أو يغروا أحدا على قتلك فتعظم مصيبتنا وتضيع الحقوق وتتعطل الاحكام . ولذلك اجمع اخوانك المسلمون الرأي على أن يشيروا عليك بالاستخارة في ترك ذلك والرجوع اخذا بالرخصة (لانه ورد أن الله يحب أن تؤخذ رخصه) وما كلفت به من أمر الامامة ومصالح الاسلام والمسلمين واقامة العدل شيء عظيم عند الله تعالى .

وبعد أن أثنى عليهم بما أظهروه من الاهتمام بالدين بين لهم شدة تعلق قلبه بزيارة تلك البقاع المقدسة وانه لا يمكنه الرجوع الا بقول معتمد ظاهر الحجة من أكابر علماء المذهب وكأنه لم يطمئن الى الاخذ بقول علماء الغرب بانفراده وبما علمه هو وأراد تقويته بقول علماء المشرق وكان المرجع في الفتوى لاصحابنا في المشرق اذ ذاك العلامة احدث الربيع بن حبيب والعلامة ابن عباد رضي الله عنهما فارسل الامام اليهما رسولا بكتاب من عنده يستفتيهما في ذلك وبقي في انتظار الرسول الى أن عاد بالجواب فكان من جواب الربيع جواز اعطاء الاجرة لمن يحج عنه حيث كان مشغولا بأمر المسلمين والاسلام مع خوفه على نفسه من ملوك الشرق وكان من جواب ابن عباد سقوط فرض الحج بالكلية عمن بهذه الصفة (وبكل أسف لم نعثر على كلا مهما حتى ننقله بعينه) فأخذ الامام احتياطا بقول الربيع واستأجر رجلا من بلدة (تمزدا) بفتح التاء والميم وسكون الزاي وهي من احدى القرى الكبيرة في ناحية جبل فاطو عامرة الآن بالاباضية وفيها قليل من العرب المالكية وبعد أن توجه الأجير الى الحج أقام الامام بقرية (ميري) وكانها من أشهر بلاد الجبل في ذلك العهد ولذلك اختارها لاقامته أو فعل ذلك لانها جاءت وسطا بين طرفي الجبل وبني فيها مسجده المشهور الآن بمسجد سيدي عبد الوهاب وقد تقدم بعضه لخراب البلدة بجلاء أهلها وتفرقهم في البلاد بتسلط العرب عليهم بالغارة عند قتلهم وفي هذا الوقت يضغ عرب الرجبان في وسطه وفيما يليه من الارض مما يعد من حريمه زرعهم تأمينا له من السرقة كما هي العادة في كثير من القرى والبوادي لما يشاهدونه لتلك المساجد بالعوائد وأشدهم تمسكا بذلك أهل البوادي والقرى الصغيرة والتي لا علم فيها حتى أنهم قد يعدون العادة من الدين وان كانت في الواقع معصية فتراهم يهتكون الحرمه توصلا الى الاحترام فيدخلون دواجم الى المسجد فتبول فيه وتروث ليضعوا فيه زرعهم حماية له باعتقاد البركة فيه وقد زرت هذا المسجد مرارا فوجدته في غاية

الاتساع والكبر وما بقي فيه من البناء الاول وانقاضه يدل على ما كان فيه من حسن الترتيب و الصنعة⁶⁷

طالما عمره هذا الامام بمجالس الذكر العظيم وأضاء فيه الليالي الطوال بالعبادة والقاء الدروس على اختلاف فنونها ويقال ان غالب دروسه في السبع سنين التي أقامها هناك في مسائل الصلاة خاصة ولم يتمها .

وبالجملة فقد نشر في تلك المدة من درر البيان وجواهر التبيان ما اهتدى به كل جاهل واستضاء به كل مظلّم وتنبه به كل غافل من علوم زاهره ومواعظ زاجره وأحاديث فاخره عطفّت عليه الالباب وأخضعت له الرقاب فاتسعت حلقة مجلسه المهيب وانتظم في سلك عقدها العلماء الراسخون وأمها من الفقهاء والعلماء والادباء والعباد وأهل الصلاح من نفوسة وغيرهم من يتلج ذكرهم الصدور ويمأ حديث مفاخرهم ومزاياهم الدفاتر والسطور فرحم الله الكل ورضي عنهم .

(حكاية ابي عبيدة في نهى الامام رحمهما الله)

ومما دون في التاريخ ان خيل الامام ودوايه أفسدت بعض المزروعات والاشجار المجاورة لمرعاها بتهاون الرعاة واهمالها فبلغ الخبر ابا عبيدة عبد الحميد الجاوي ذلك الرجل الباسل علامة عصره وكان شديد الشكيمة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عالي الهمة بعيد الجاه لا يخاف في الله لومة لا ثم ذا علم غزير وورع زائد وزهد فائق وفصاحة بالغة فأتى الى الامام مستأذنا فأذن له ولما دخل وسلم كما يلزم قال وهو قابض على سيفه مخاطبا للامام يا أمير المؤمنين قد آذيت الضعفاء والفقراء واليتامى بخيلك لاهمال رعاتك فكفها عن المضرة والا حال بيننا وبينك هذا (يعني السيف) فأطرق الامام لحظة من الزمن مفكرا وقال ان كان ابو عبيدة في شيء من هذا القطر فهو هذا فقال له الحاضرون الامر كذلك فقال صدق المشائخ الذين زارونا بتيهت وأعجبنا حالهم وسالناهم عن خلفوه في الجبل اذ قالوا تركنا من هو خير منا وهو أبو عبيدة ثم قرب مكانه منه وشرف منزله ورسخت محبته عنده حتى اختاره بعد ذلك لامارة الجبل كما سيأتي . ذكر الحكاية كل مؤرخينا وفيما ذكروه اختصارا محجف بما يقتضيه المقام بل في كلامهم ما يوهم ان الحكاية وقعت بعد وصول الامام الى قرية ميري واقامته فيها وهو أمر يستبعده العقل جدا فان ابا عبيدة مع جلالة قدره وشهرته لا يمكن ان يجهله الامام حتى يستفهم عنه بل لا يمكن أن يعرف أحدا قبله فالمناسب أن يقال أن القضية وقعت حال مسير الامام بين قرى الجبل قبل وصوله ناحية فساطو وقبل اجتماعه برجال تلك الجهة أو يقال ان أبا عبيدة كان مسافرا في بعض جهات بعيدة ولم يأت الا بعد وصول الامام واقامته والله أعلم بالواقع وعلى كل حال فالمسئلة دليل قاطع على ما كان لرجال الأباضية من قلة المبالاة في الدين وما كان لائمتهم من الخضوع للحق وقبول المرائد من اربابها والمكافأة عليها بزيادة الاحترام والاعتبار والرضاء التام وفي ذلك من الترغيب في ابداء النصائح ما لا يخفي رضي الله عن الجميع .

(محاصرة هذا الامام لمدينة طرابلس)

كانت قبيلة هواره من البربر كثيرة الافخاذ واسعة الاطراف ذات جموع كثيرة رجالا وفرسانا تحيط منازلها بطرابلس احاطة السوار بالمعصم وكلها أباضية المذهب والآن كلها مالكية وكانت كلها او غالبها خاضعة لعامل بني الأغلب بطرابلس ثم وقع بينهما خلاف كبير (لم يذكر المؤرخون سببه) أدى الى وقوع شقاق فخرج اليها الجند من طرابلس الى وادي الرمل ولما التقى الجمعان وانتشبت الحرب ولى الجند منهزما الى المدينة فاتبعته جنود هواره اليها وحاصروها قال ابن خلدون عند الكلام على ذلك في الجزء (6) هكذا .

ثم ثارت هواراة من بعد ذلك على ابراهيم بن الأغلب سنة 196 وحصروا طرابلس وافتتحوها وخربوها وتولى كبر ذلك عياض ووهب اهـ ولاذكر لهُذين الرجلين في كتب الاباضية أصحابنا ولعلمها في غير اولاية عندهم ولما ضاق الحال بالجند خرج هارباً الى ابراهيم بن الاغلب بافريقية وكان بمدينة القيروان واليا لهارون الرشيد ثم لابنه الامين .

ولما بلغه بعد أن لاقى من الخسارة في الاموال والرجال شيئا كثيرا وجه الى طرابلس ابنه عبد الله في ثلاثة عشر الف فارس وعدد وافر من الرجال وجدد القتال مع هواراة حتى كاد يأخذ بثاره منهم فاستعانوا بالامام عبد الوهاب ولما لم يمكنه الا تلبية دعوتهم للعلاقة المذهبية ولما في اغائة المظلوم للقادر من الثواب الجزيل جهز من الجبل جيشا جرارا وسار به حتى نزل على المدينة وحاصرها محاصرة شديدة مدة من الزمن لم يبينها المؤرخون فسد عبد الله باب زناته وصار يقاتل من باب هواراة وفي أثناء ذلك استشهد العلامة الشيخ مهدي النفوسي المتكلم الجليل الذي تقدم انه هب الى تيهوت في مقام مائة عالم وذلك انه انفرد عن العسكر على شاطئ البحر ورأوه من المدينة فسبحوا اليه وقتلوه وأخذوا رأسه وعلقوه على السور فان قالوا له انهزم اصحابك الاباضية عيس وانقبض وان قالوا له انهزم الجند تبسم وانبسط نقل ذلك الشماخي وغيره رحمهم الله (وان لله خرق العوائد فلا غرابة) وقد صعب موته على الامام والمسلمين كثيرا واستعظموا مصيبته وان كان القضاء لا يرد وكل حي خلق للموت الا ان لموت مثله في مثل ذلك الوقت الذي هم في حاجة فيه الى أمثاله وقع عظيم .

وحيث ان المدينة حصينة جدا وسورها في غاية المنعة صعب على الامام افتتاحها فصار يجمع رجاله لتدبير الوسائل المعينة على ذلك كل ليلة وكلما دبر بالليل رأيا وجده بالنهار فاشيا في العسكر فيؤخر عن حور مجلسه في الليلة المقبلة من يتهمه بافشاء السر وصار يفعل ذلك كل ليلة الى أن بقي هو ووزيره ذلك السياسي الكبير المدبر الخطير العاقل الشهير باصابة الرأي والصدق في الاقوال والافعال (مزور بن عمران) فقال عند ذلك لا أحاصر مدينة كهذه في المنعة برجل واحد وفي ذلك الوقت أرسل اليه عبد الله رسولا يطلب منه الصلح لما بلغته وفاة والده ابراهيم بالقيروان فأجاب الامام طلبه وخفف وطأة الحصار وأبرم معه عهدا على أن تكون المدينة والبحر لعبد الله وما كان خارج المدينة كله الى نهاية ارض سرت للامام فدخلت هواراة كلها ومن معها من القبائل في دائرة حكم الامام وولى على الكل عمالا من عنده وعاد بعساكره راجعا الى الجبل وقد نودى بالآمان في العسكرين وفتحت أبواب المدينة وعادت المعاملة بين الناس الى مجراها واستقل كل بما خصصته له تلك المعاهدة . والظاهر ان حركة هواراة وتشبثها بمخالفة بني الأغلب انما كانت والله أعلم لغرض خاص وهو التوصل الى الانضمام الى دولة بني رستم الحاكمة على جبل نفوسة الموافقة لها في المذهب وزادها في ذلك حضور الامام بالجبل طمعا في اعانته أياها كما وقع وهو المفهوم من كلام ابن خلدون حيث قال وحجي هواراة بعبد الوهاب بن رستم من مكان امارتهم بتاهرت فجاءهم واجتمعوا اليه مع قبائل نفوسة وحاصروا ابا العباس الخ وان كان الصحيح أن اصل مجيء الامان من تيهوت الى الجبل كان لاجل الحج كما مر لا بطلب من هواراة كما قال والله اعلم .

(محاصرة عسكر الامام لمدينة قابس)

ولما توجه الامام من طرابلس الى الجبل أرسل من طرفه قطفان بن سلمة الزواغي في عسكر الى البلاد الغربية من طرابلس فرتب فيها العمال ولما وصل مدينة قابس امتنع عامل بني الأغلب فيها من الدخول⁶⁹

في الطاعة والتسليم فشدد قطفان الحصار على المدينة الى أن استولى عليها وهي مدينة مستحرة العمران ذات نخل وافر وأنهار جارية مشهورة بين مدن الغرب في ذلك العصر ثم انتقل منها الى ما يليها من القرى والجبال كمطامطة ووزنفة الى جبال دمر التي هي في حكم الامام من قبل ذلك والى جزيرة جربة فاستولى على الكل ورتب فيها العمال

رجوع الامام الى تيهرت وتعيينه السمع عاملا على الجبل بعده

وبعد أن أطمأن الامام على ما استولى عليه في رحلته هذه ورتب كل ما يلزم ترتيبه مما يعود على الرعية بالراحة والامن في هذه الولاية الطرابلسية التي تحد شرقا بأرض سرت وغربا بجبال مطامطة ودمر وعاد اليه اجير من الحج عزم على العود الى تيهرت ولما شاع خبر ذلك اجتمع اليه أهل الفضل والصلاح من نفوسة وغيرهم وسألوه أن يولي عليهم واليا قبل سفره يسندون اليه امورهم ويقوم فيهم العدل ويقبض حقوق بيت مال المسلمين ويرسلها اليه .

فخبرهم في بعض وزرائه فابوا الا وزيره السمع بن ابي الخطاب عبد الأعلى الامام الأول بطرابلس وكان الامام ضنينا به محبا له لما رآه منه من النصح لدولته مع سداد الرأي وحسن السياسة فصعب عليه فراقه ولما لم يجد مخلصا من توليته لشدة رغبتهم فيه أجاب طلبهم وقال (قد علمتم يا معشر المسلمين ان السمع وزيري وأخص الناس بي وأحبهم الى وأنصحهم لدولتي وبذلك لا أصبر لا على فراقه وقد آثرتكم على نفسي تميما لرغبتكم فيها ان اذا قد وليته عليكم فاحسنوا الطاعة له والانقياد لأوامره ما سار فيكم بسيرة المسلمين ولم يجد عن جادة العدل والانصاف ولم يرتكب ما يؤذن بسخط الرب وبمخالفتنا) وقد ذكر العلامة الشماخي رحمه الله في السير أن من كان مع الامام من الفرس والاتباع تزوجوا أيام اقامتهم معه في الجبل باماء بني زموور خوف العنت ولما أرادوا الرجوع معه أيضا الى تيهرت رفعوا ما ولدن منهم من الاولاد أمامهم على الخيل فجاء ابو عبيدة رحمه الله وأنزلهم عن السروج قاتلا خذوا عبيدكم يا بني زموور (لأن ولد الأمة ملك لسيدها) ثم ودعهم الامام وودعوه بأعين سائلة وقد حل بهم من الأسف والحسرة بفراقه وفراق مجالسه العلمية ما جعلهم في حيرة وزاده محبة في قلوبهم فأحسن السيرة فيهم بعده واليهم السمع وعدل في الاحكام وساس الرعية بأقوم سياسة ورتب العمال والقضاة ورجال الشرطة من امناء الاهالي في النقط المهمة ومراكز العمران وفق مرغوب أمامه بحيث لم ينكروا عليه شيئا في مدة ولايته كلها لا يخرج عن رأي الامام ولا يخالف له أمرا الى أن أدركته منيته والمسلمون والامام في رضا عنه .

(وفاة السمع رحمه الله وولاية ابنه خلف وما نشأ عنها من الفساد)

ولما حضرت السمع الوفاة اجتمع اليه أهل الرأي من المسلمين وقالوا له أوصنا بما بدالك يرحمك الله وانصحننا فاننا مطيعون لامرك وقابلون لنصيحتك اذ لم تقصر من قبل هذا في كل ما يجلب لنا الخير دينا ودنيا وانا نقدم لك على ذلك الشكر ونسأل الله تعالى أن يكافئك بما هو أهله .

فقال لهم أوصيكم بتقوى الله تعالى واتباع ما أمركم به الشرع الشريف وبطاعة امامكم عبد الوهاب وتأيبه ونصرته مادام مستقيما على الحق الذي مضى عليه السلف الصالح من المسلمين .

ثم سار الى رحمة تعالى ماسوفا عليه يندبه كل من عرف سيرته وأطلع على أحكامه وقد بلغ من الناس موته مبلغا عظيما وبعد تشييع جنازته ودفنه اجتمعوا للنظر فيما يصلح أمرهم ويحفظ جامعتهم الى أن عرفوا الامام 70

بوفاته ويأتيهم الامر منه بتعيين غيره .

ولدى المذاكرة بادرت العامة ومن لا نظر لهم في عواقب الامور الى نصب ابنه خلف مكانه ظنا منهم ان ذلك أَرْضَى لأمير المؤمنين وأوفق لرأيه لما فيه من احياء أثر السمع وجبر خاطر عائلته وتكوين مصيبتهم وأنكر الخاصة ذلك كأبي الحسن أيوب بن العباس وأبي المنيب اسماعيل بن درار الغدامسي وغيرهما وقالوا لا يجوز لنا أن نقدم احدا قبل أن نستأذن ولي الامر في ذلك فتعللت العامة ومن رغب في تقديم خلف ببعد المسافة قائلين نقدمه موقتا ونعرف الامام فان رضي به رضينا به وذلك ما كنا نبغي وال عين لنا غيره قبلنا وتركنا هذا فسكت من انكر ذلك طلبا للسلامة وفرارا من التفرق وتشعب الآراء ووصولها الى درجة المراء ثم كتبوا كتابا الى الامام بينوا له فيه وفاة السمع وتقديم بعض الناس ابن خلف وانكار بعضهم ذلك وقالوا له الامر موقوف الى أن يأتي كتابك فان رضيت به وقبلناه وان أخرته أخرناه وأرسلوه الى الامام مع رسول مخصوص ولما بلغ الامام تأسف واغتم وتحسر تحسرا لا مزيد عليه لوفاة وزيره السمع وأجابهم عن كتابهم بهذا الجواب .

(جواب الامام رحمه الله الى جبل نفوسة في مسألة خلف)

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله من أمير المؤمنين عبد الوهاب الى جماعة المسلمين بحيز طرابلس أما بعد فأني آمركم بتقوى الله واتباع ما امركم به واجتناب ما نهاكم عنه وقد بلغني ما كتبتم به الي من وفاة السمع واستخلاف بعض الناس خلفا ورد أهل الخير ذلك.

فان من ولي خلفا من غير رضا امامه فقد أخطأ سيرة المسلمين ومن ابي توليته فقد أصاب فاذا اتاكم كتابي هذا فليرجع كل عامل استعمله منكم السمع الى عمالته التي ولي عليها الا خلف بن السمع فحتى يأتيه امري وتوبوا الى ربكم وراجعوا التوبة لعلكم تفلحون اهـ.

ودفعه للرسول فأتي به الى طرابلس ولما فتحوه في الجبل ووجدوا فيه تخطيطا من نصب خلفا والرضا عمن أنكر ذلك استعظم الذين قدموه الامر وأنفوا من ابطال الامام عملهم وقد ذاق خلف في تلك المدة حلاوة الحكم وتلذذ بطلاوة الأمر والنهي ففض بنواجزه عليها وحث أصحابه على التمسك بما فعلوه وأن يكرروا الكتابة الى الامام في تنفيذ ما كان منهم من تقديمه .

وكأني به وقد وعدهم بالوظائف ومناهم بأمان جعلتهم أشد الناس حرصا على الطلب كما فعل ابن فندين وشعيب فكتبوا عند ذلك الى الامام كتابا آخر في ذلك وأرسلوه ولما وصل الامام استشعر من القوم الدخول في دور العناد وأحس بوقوع التفرق فتربص في الجواب وتفكر في سد هذه الثلمة مليا ولا ريب في انه لا محيص له من احد أمرين خطيرين فاما أن يجيبهم الى ما طلبوه فيعدون ذلك عجزا عن معاكستهم ويستفحل أمرهم وتنكسر شوكة الآخرين وربما يعود خلف الى التسلط عليهم اذا استبد بالرأي واستقل (والناس أتباع لمن غلب) واما أن يصددهم عن طلبهم ويعين غيره فيتمو غيظهم ويتضاعف شرهم ويفسدون في الارض ويجعلون ذلك ذريعة الى طلب الاستقلال متى وجدوا فرصة بمساعدة أولي الفساد وعلى كلا الحالين فالأمر مشكل .

ثم جزم بعد اقدام واحجام على طريقة اكتشاف بها الحقيقة ووقف على نوايا خلف وحزبه وذلك انه كتب باسم

خلف كتابين أحدهما فيه عزله وأمره بتقوى الله تعالى واعتزال أمور المسلمين والتوبة مما صدر منه من

الخطاء وحرم عليه فيه اخذ صدقات الناس واثنيهما فيه توليته وكتب كتابا ثالثا الى من ائتمنهم من⁷¹

وجهاء المسلمين بحيز طرابلس امرهم فيه بأن يعطوا خلف كتاب عزله اولا فان قبل وسلم الأمر ولم يعاند سلموا له الكتاب الثاني الذي فيه أمر ولايته وفوضوا له الأمر وان أبي ترك الامور والتسليم واستكبر تركوه وغيه وعرفوه بذلك ليبدى لهم فيه رأيه .

ولما وصلت الكتب الى من وجهت اليهم بطرابلس امتثلوا الأمر فسلموا خلف الكتاب الأول ولما وجد فيه عزله أبي واستكبر وأصر على مباشرة الأمور غير مكترث بعزل الامام رضي المسلمون أم كرهوا وساعده على ذلك جماعته واختل نظام الحكم عند ذلك ثم ان جماعته كتبوا كتابا الى العلامة ابي سفيان محبوب بن الرحيل وهو اذ ذاك مرجع أهل الدعوة بالشرق بعد الربيع ومعاصريه يستفتونه في المسئلة راجين أن يجوز لهم الخروج عن طاعة الامام ونصب خلف اماما مستقلا بدعوى أنهم منقطعون عن تيهوت ومنفصلون عنها بولايات بني الأغلب كما مر فكتب اليهم بعد أن وصله كتابهم مع رسلهم بتخطئة من ولى خلفا وأمرهم بطتعة الامام وحرّم عليهم الخروج عنه (وكلما بحثنا عن هذين الكتابين لم نقف لهما على أثر) ولما وصلهم الكتاب وكان على خلاف مأمولهم نبذوه وراءهم ظهريا وانكروا امامة عبد الوهاب وبايعوا خلفا وعند ذلك حرر جماعة المسلمين الى الامام كتابا في ذلك مفصلا .

(ولاية أيوب بن العباس رحمه الله على الجبل)

ولما وصل كتابهم الى الامام كتب بالولاية الى العلامة الباسل ابي الحسن ايوب بن العباس أحد الأربعة المتقدمين في الذكر وكان ذا بأس وشدة في الدين ولما بلغه الامر فرح المسلمون بذلك وهابه خلف وأتباعه فالتزموا السكينة ورفع هو راية العدل وحمل الناس على الواضحة وسار فيهم سيرة حمدها جليلهم وحقيهم ولازال في رضاء الامام وقبوله الى ان حضرته منيته وسار الى عفو ربه وسعة رحمته وهو في رضاء المسلمين (ولم نقف على ما يبين مدة ولايته) فلحق المسلمين بفقدته من الكدر ما لم يلحقهم على أحد قبله لما أظهره في مدة ولايته من العدل ولاحامده فتنة خلف . وبعد أن شيعت جنازته ودفن أرسل المسلمون من نفوسة ومن معهم الى الامام كتابا بوفاته وطلبوا منه تعيين من يقوم مقامه ولما وصله الكتاب أدركه من الكدر ما أنساه حرارة حجرة وفاة السماح قبله ثم تفكر مليا فيمن يوليه الأمر فلم يهتد الى أحد لارتباك افكاره وتغير سماء ذهنه بمصيبة هذا الشهم الجليل التي ذكرته رزية ذلك الطود الفاخر فأرسل اليهم ان يختاروا من كان منهم اهلا لها ويعرفوه ليأذن لهم في تقديمه .

(ولاية ابي عبيدة عبد الحميد رحمه الله على الجبل)

ولما ورد عليهم كتاب الامام اجتمعوا لقراءته واتفقوا على ابي عبيدة عبد الحميد الجنائني ذلك الرجل المشهور بالعلم والورع وكتبوا الى الامام بذلك كتابا ولما وصله رد في الحال اليهم كتابا بالاذن في توليته ولما بلغهم استبشروا وارسلوا الى ابي عبيدة (وكأنه لم يبلغه خبر اتفاقهم الاول كان سرا) فحضر الى المجتمع وبلغوه اذن الامام وقالوا له أن أمير المؤمنين يأمرنا بطاعتك والانقياد لأوامرك على أن تقضي فينا بكتاب الله وسنة رسوله وآثار الصالحين فماذا تقول .

فاستعظم ابو عبيدة الامر ورهب من ذلك الموقف الجلل لما في مستقبله من الصعوبات بوجود خلف واتباعه الشاقين لعصا الطاعة ولما في تقلد أمور المسلمين من المشقة وسوء العاقبة دينا ودنيا ان زاغ يوما ما (لا سامح الله) عن جادة الصواب فلم يكن منه الا ان دفع ذلك عنه وتبرأ قائلا انا ضعيف انا ضعيف انا ضعيف (عن القيام بهذا الامر العظيم فانظروا غيري) ولما لم ينالوا منه طوعا ولم يظفروا بمراد بعد كل رجاء اعدوا الخبر الى الامام وبينوا له ما جرى مفصلا فازدادت رغبة الامام فيه وتفرس فيه النجاح .

فأرسل اليهم كتابا مصدرا بأيمان مغلظة باربع لغات عربية وحضرية وبربرية وحبشية (لانه كان رحمه الله يتكلم بلغات متعددة) على انه لا يقلد أمر المسلمين الا رجلا يقول انا ضعيف وكأنه رحمه الله أدرك بذكائه حكمة تكرير ابي عبيدة جملة انا ضعيف ثلاثا فكتب اليه الامر بالدخول في العمل وحتم عليه قبول الولاية وقال له ان كنت ضعيفا في البدن فادخل في امور المسلمين والله يقويك وان كنت ضعيفا في المال فبيت مال المسلمين يسعك ويسع غيرك وان كنت ضعيفا في العلم فعليك باي زكرياء التوكيتي . ولما ورد الكتاب على نفوسة اجتمعوا وطلبوا ابا عبيدة فحضر واطلعوه على قول الامام وقالوا له لا يسعك الآن الا القبول وامتنال الأمر واذ ذاك علم انه لا محيص له عن القبول الا أن من باب الثبات والتأني في ذوات البال من المسائل سألهم سألهم المهلة في الجواب ثم توجه الى عجوز هنالك مشهورة بالعلم والزهد وكان بيتها مجمعا للعلماء واهل الصلاح من المسلمين وقال لها ان أمير المؤمنين قد الخ علي في التولية على الجبل بعد كل امتناع مني وقد جئتكم مستشيرا فما رأيك فقالت له ان كنت تعلم ان في 73

نفوسة من هو افضل منك واقوى على القيام بالامر وتقدمت فستكون خشبة في جهنم وان علمت انه لا يوجد فيهم ذلك وتأخرت فكذلك (وليس هذا الكلام من قبيل كلام ابن فندين ومن معه فليتأمل) فقال لها أما في امور الرجال فلا ارى ان احدا يقوم مقامى (وهذا ايضا منه رحمه الله حكاية للواقع لانه في مقام الاستشارة الموجبة لذلك لا افتخار) فقالت له ادخل حينئذ في الأمر واشهر الحق والا فسخ الله عظامك في النار فرجع الى الجماعة وهم في انتظار وقبل الأمر ففرح الناس فرحا شديدا وعمهم السرور حتى قالوا امضوا بنا لزيارة (وقاية) فانها افضل من عماننا حيث كانت السبب في قبوله الولاية .

فشمّر رحمه الله لاهياء السيرة وعدل في الاحكام واستعمل على النواحي من حسنت سيرته وطابت سريرته من المسلمين واستصحب معه للمشورة في مهمات الامور خيار المسلمين وارباب العلم والنصيحة في الدين كابي زكرياء المذكور وابي مرداس وابي الحسن الابدلاني وغيرهم ممن يطول ذكرهم وقد ذكر العلامة الشماخي رحمه الله نقلا من الطبقات انه كان احد علماء نفوسة الموصوفين بالاخلاق النفيسة ميالا الى ما طبع عليه من الورع واطراح الحرص في الدنيا وترك الطمع وقال كان غاية في انفاذ الامور وامضائها وقائما المدافعة لاحوال البغاة ودفاعها ووافيا بما امر به من اصلاح النفس والدين والدنيا وتحسينهما اهـ .

ولما بلغ خبر قبوله الولاية الى خلف طارت شرارة غضبه بين قومه وتولى الشيطان كبره ورفع راية العناد وجدّد الخلاف والانكار على الامام ثم شن الغارة على بعض الاطراف مما تحت حكم ابي عبيدة وعتا في الارض فأخاف السبل وقطع المواصلات بين الناس فأرسل ابو عبيدة الى الامام ببيان ذلك كله وأستأذنه في محاربته وكان الامام كما قلناه شديد التحري في سفك الدماء وعلان الحرب فلا يقدم على شيء من ذلك الا بوجه شرعي لا خلاف فيه فرد الى ابي عبيدة الجواب بملاطفة خلف ومناصحته وعدم المبادرة الى فتح باب القتال معه الا ان فاجأهم بمكره فليدفعوه عن انفسهم بأقرب وسيلة وابعد طريق عن المضرة فامتثل ابو عبيدة الأمر وعدل الى السكون فهدأت حركة خلف قانعا بما في حيزه ساعيا في استمالة الناس اليه .

(حكاية ابن يانس المفسد التابع لخلف وجواب الامام اليه)

وكان من خواص رجال خلف عمرو بن يانس منبع النميمة ومعدن الفساد وجروثمة الشر وأس المفتريات الذي كان دابة تتبع خطايا المسلمين وزلائهم والتجسس عن احوال الناس خاصتهم وعامتهم لا لينالهم عن منكر فعلوه أو يأمرهم بمعروف ضيعوه بل ليتوصل بتلك الاكتشافات الى لقاء العداوة والبغضاء بين الناس وايقاد نار الفتنة فان هذا الرجل كان يكتب الامام بكل ما يسمعه من خطأ في فعل او قول من أعيان المسلمين مع زيادة أضعاف ذلك زورا وبهتانا بدون ان يكلفه الامام بشيء من ذلك زاعما انه يخدم دولة الامام والاسلام تشيها بارباب الاصلاح (وما هو الا مفسد كذوب) شان كثيرين من شياطين الانس في كل زمان ومكان ويعبر عنهم في بعض البلاد الآن بالشاشيدات فان شأنهم مخابرة الحكام سرا بعورات الناس مع الطعن في خواصهم على افتراء في اكثر الاحوال غواية من الشيطان الرجيم وحسدا وطمعا في حطام الدنيا والعياذ بالله .

ولما أكثر عمرو هذا من مخاطبة الامام وتبين له زوره وكذبه كتب اليه كتابا في غاية الايجاز كله حكم وجواهر ترشد الحائر وتهدى الضال وتبكت الكاذب كما تدل على ذلك قطعة منه عثرنا عليها تصدق ما يقال من أن كلام الملوك ملوك الكلام وهذا نصها .

أعاذنا الله يا عمر بن يانس من التزول بعد الطلوع ومن الترك بعد الاجتهاد ومن بغض المسلمين بعد محبتهم ومن نفاق تخفيه الصدور ومن اقتحام الاشياء من غير تجارب اهـ وأمر رسله أن يبلغوه اليه وقال لهم ما أظنكم الا أن تدركوه ميتا وقد كفى الله المسلمين شره ولما أشرف المرسلون على بلدته رأوا نعشا خارجا فقالوا من هذا فقليل لهم عمرو بن يانس فقالوا الحمد لله الذي استجاب دعوة الامام فيه .

وكان عمرو هذا ممن يتلقى العلوم عن شيخه العلامة الكامل أخيه ابي المنيب مامد (محمد) بن يانس مع الشيخ العلامة ابي خليل الا أن للشيخ رحمه الله فرقا فيهما في المعاملة بالهام من الله فكان اذا دخل عليه ابو خليل أظهر احترامه وتعظيمه حتى انه ييقعد اذا دخل عليه وهو مستند بخلاف ما اذا دخل عليه عمرو فانه يعكس الامر ولما سئل عن ذلك قال اما ابو خليل فانما يتعلم الله واما عمرو فانما يتعلم ليؤذي المسلمين ويعنتهم قال أمر ابي خليل الى أن صار قدوة في الدين وكهفا للمسلمين وآل أمر عمرو الى ما ذكرناه من الانضمام الى خلف والله في خلقه تصرف غريب يضل من يشاء ويهدي من يشاء فمن يرد الله ان يهديه يشرح صدره للاسلام ومن يرد أن يضلّه يجعل صدره ضيقا حرجا) وبقي ابو عبيدة رحمه الله قائما بأموره في حيزه مواصلا للامام بما يجب من المال حتى انقضى اجل الامام فذهب رحمه الله الى دار البقاء والمسلمون شرقا وغربا راضون عنه كما ستطلع عليه في هذا الجواب .

(جواب الى امام عمان)

وقد وقفت على رسالة من ارباب الصلاح والاصلاح من أهل الدعوة الاباضية بالشرق كتابها مجهولون ارسلوها الى امام عمان بتاريخ 237هـ تقريبا ينصحونه فيها كما هو شأنهم في كل عصر افتتوحها بما نصه (بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على نبينا محمد وآله) الى امام المسلمين الصلت ابن مالك المبتلى بأمور أهل عمان ومن وصله كتابنا هذا من المسلمين أهل عمان من أهل النصيحة لهم والشفقة عليهم اخوانهم وأهل دعوتهم من أهل الستر في امكنتهم سلام عليكم الى آخرها وهي طويلة تتجاوز عشرين ورقة كلها مرشد وقواعد لشدة دعائم الامامة وحفظ هيكلها وفيها ما يدل صريحا على أن أباضية المشرق في مسئلة الامام عبد الوهاب مع ابن فندين كلهم على رأي واحد موافقون لرأي الربيع رحمه الله في الرضاء عنه والاقرار بامامته في المغرب وتخطئة المنكرين عليه وهذا ما حرره كاتب تلك الرسالة في ذلك بالحرف الواحد . ولو أن فرقة من المسلمين خرجوا عن الامام يلتمسون منه اشياء ويدعونها عليه مما لا يستدل المسلمون على أنهم صادقون فيه أو كاذبون والامام ينكر ذلك ويدعي عليه ظلما أيضا لا يعرف المسلمون ما يذكر فيه فخرجوا عليه واستحلوا قتاله من قبل أن يوضحوا عليه تلك الاشياء التي ادعواها فهم بغاة على الامام ويحل للامام قتالهم وذلك لانه لا ينبغي للمسلمين أن يقاتلوا امامهم بالاشياء التي يدعونها عليه حتى يوضحوا له ما ادعوه ويستتبيوه فيصر ولا يتوب ويأبى الاختلاع عنهم فان تعدوا عليه فقاتلوه وزحفوا اليه يطلبون ازالة امامته بمجرد الدعوى لا غير فقد حل للامام وجميع المسلمين قتالهم لبغيهم وتركهم رأي من كان قبلهم من المسلمين .

وبهذه المتزلة كانت الخارجة على عبد الوهاب (امام المغرب) لاستحلالهم الخروج عليه بدعوى الشروط التي يقرون على أنفسهم بالظلم فيها وقولهم نعلك لاننا أصبنا من هو أعظم منك وقد كان المسلمون رحمة الله عليهم ولوا من ولوه من أصحاب رسول الله (ص) وفي الرعية من هو أعلم منهم في الاحكام ولو كان الأمر كما زعموه من عزل الامام كلما حدث من هو أعلم منه لكان أمر المسلمين مختلطا أبدا ولكانوا لكل 75

يوم في انتظار ظهور من يزيل أمانة امامهم والخال أن المسلمين قد ولوا أبابكر رحمه الله بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعاذ بن جبل أعلم أمتي بالحلل والحرام فلما استحل الخارجون على عبد الوهاب الخروج عليه بالاشياء التي يعلم المسلمون انها بدعة وخطأ وانها لا تزيل امامته علموا انهم مخطئون مبتدعون فدعواهم الى ترك ما دخلوا فيه من البدعة والى مراجعة الحق فأبوا الا تماديا على المعصية ثم زحفوا الى المسلمين فقاتلهم المسلمون وامامهم عبد الوهاب على اصرارهم على المعصية وادعائهم زوال امامته بلا حدث واضح عند المسلمين انتهى المراد منه .

(تصحيح قول)

كنت أعتقد أن الامام الكبير ابا عبيدة مسلما رضي الله عنه توفي في أواخر دولة الامام عبد الرحمن رضي الله عنه لما يؤخذ من ظاهر كلام ابي زكرياء رحمه الله وقد مر ذكره ولعدم ذكره في الكتب الموجهة الى المشرق مدة خروج ابن فندين عن الامام عبد الوهاب ثم عثرت في رسالة للعلامة محمد بن محبوب العماني الى أهل المغرب على ما يؤذن بخلاف ذلك اذ قال رحمه الله بعد كلام هكذا (وذلك في زمان ابي عبيدة مسلم وعن رأيه كان ذلك من عقد أهل المغرب لأبي الخطاب ثم ابن رستم بعده ثم عبد الوهاب بعد ذلك اهـ .

فدعاني هذا الى البحث على اكتساب حقيقة ذلك حتى وقفت على قطعة رسالة في مجموع لبعض أصحابنا المشاركة ذكر كاتبيها انها من الامام ابي عبيدة الى الامام عبد الوهاب فتحققت انه حضر له وانه كتب الرسالة في صدر امامته وتوفي قبل خروج ابن فندين عنه ولذلك لم يذكر في جوابات الشرق والله اعلم .
والموجود من هذه الرسالة آخرها لا غير لان صاحب الكتاب المنقول منه قال هكذا .
(بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وسلم)

(ومن سيرة الامام ابي عبيدة الى الامام عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم)

(قال) لا يخلو اما أن تكون دعوت الناس الى نصرتك على الامر بالمعروف والنهي عن المنكر فلم يجيبوك وأفردت فهلك القوم وثبت ولايتك لاخوانك وزالت أمانتك وأما أن لا تكون دعوتهم فزالت امامتك بالتضييع واستعلان الباطل قبلك وأماتة الحق فلا أمانة لك . وأما أن تحمل سيفك على عاتقك فتفيء الله بما ضمنته له وتلحق بأئمة المسلمين قبلك فيهلك من استنصرته فخذ لك وأما أن تكون رجلا قد عزت نفسك عليك ومن قبلك فحللت امسلمين من لاويتك والسلام انتهى .

وعلى أثر هذا تفسير له لم ينسبه صاحب الكتاب لاحد الا أن الذي يدل عليه بعض منه انه له والذي يدل عليه البعض الآخر انه لغيره وعلى كل حال فقد سلك فيه كاتبه طريق الشدة معرضا فيه بما اشتهر به بيت الرستميين رضي الله عنهم من علمي التنجيم والرمل مشيرا الى بعض ما ادعاه قوم ابن فندين على الامام والله اعلم بالحقيقة قال صاحب الكتاب .

(وتفسير ذلك والله اعلم اذا رأى الرعية لم تستقم لله على الطاعة التي ينالونها ثواب الله عليه ان يدعواهم الى الوفاء لله بطاعته فان لم يجيبوه الى طاعة الله وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم وبقي منفردا بنفسه هلك كل من كره الاجابة الى الاستقامة وبقية ولاية الامام عند من حضر من المسلمين وزالت امامته عند الناس لانه قد صار في هذا الوجه الى حد الكتمان واذا كنتم الامام خرج من حد الامامة والظهور بالاسلام لأن البيعة انما هي على 76

اقامة كتاب الله وسنة نبيه عليه السلام واتباع آثار المسلمين منه ومن الرعية واذا لم توف الرعية بذلك ضلت وصار الامام الى حد الكتمان لانه لا يظهر المنكر بحضرته الا على احد وجهين اما ان يكون مقهورا ذليلا فعليه ان يخرج من الامامة ويعتزلها .

وأما ان يكون مداهنا مقصرا فلا امامة له بالنكث وتركه الوفاء بما عاهد الله والمسلمين عليه .
وقد بلغنا أن ابا بكر الصديق رضي الله عنه بلغه أن أناسا من المسلمين كرهوا مقامه فصعد المنبر وحمد الله وأثنى عليه وقال (يايها الناس كرهتموني فاستقبلوني اقلكم فقال له على بن ابي طالب هيهات لا تقال ولا تستقال) فاجمع صالحو المسلمين على الرضاء بامامته وذلك لانه لا يلتفت في هذه الامور الى انكار العامة ولا الى رضائهم وانما ينظر الناظر لله ولدينه وللإسلام وأهله وهم المستبطلون وأما سواهم من الناس فانما عليهم الاتباع والانقياد وليس لهم من النظر للإسلام وأموره والتقديم فيها شيء قال اله عز وجل (واذا جاءهم أمر من الامن أو الخوف اذاعوا به ولو ردوه الى الرسول والى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم) وهم أهل العلم بالكتاب والسنة لأنهم المنهاج ألا ترى انه ذمهم حين لم يردوا الأمر الى الرسول والمستبطلين . وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه اذا رأى من المسلمين تقصيرا قال لهم اما ان تقوموا بما عاهدتم الله به والا خرجت اليكم من الامامة . فكذلك ينبغي لأن كلا قد وجب عليه الوفاء لله بما عاهده به وذلك اذا كان من مشورة من خيار المسلمين ورضائهم به لله ولدينه ثم كان منهم الوفاء بذلك والاستقامة فيه فان عمر رضي الله عنه قال (الخلافة) ما أتمن عليها يعني ما كانت عن مشورة أهل العلم والصلاح و(الملك) ما أخذ بالسيف فكل امامة كانت عن غير مشورة من أهل العلم والصلاح فهي ملك وكذلك من عقد له الاشرار فهي ملك .

(أصل) واما أن لا تكون دعوتكم فزالت امامتك بالتضييع واستعلان الباطل قبلك وأمانة الحق فلا أمامة لك .
(تفسير) وذلك لان الامام اذا ترك الامر بالمعروف والنهي عن المنكر واقامة الحدود وصلاة الجمعة بالناس من غير عذر يعذر بذلك مثله الفقهاء وترك جهاد العدو ودفعه عن المسلمين زالت امامته بما قصر فيه من أمر الظهور بذلك كله أو ببعضه وكذلك اذا بدل السيرة فسار بغير سيرة من مضى وبغير ما هو معروف من سيرتهم وكذلك اذا ترك الاحكام .

(أصل) واما ان تحمل سيفك على عاتقك فتفيء الله بما ضمنته له أو تلحق بأئمة المسلمين قبلك فيهلك من استنصرته فخذ لك .

(تفسير) هذا تفسير لأول الكلام لأنه اذا بقى معه اربعون رجلا من أهل الصلاح فلا عذر له في الضعف فاذا لم يبق معه اربعون من اهل الصلاح والامانة فعليه ان يعتزل الامامة ويحل اللواء وتسعه التقية فان رجعوا اليه فليلزم بيته ولا يقبل ذلك منهم فقد اختبر غدرهم ويقال لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين .

فكل من دخل في الامامة والعمالة وله فيها رأي اذا كان يعجبه ذلك يعني يجب الدخول فيها ويحن اليها وامام المسلمين وعاملهم فيها كالمسجون وهو كاره لذلك فانه على خطر عظيم والذي يوجد عن المسلمين ايما امام جنى ارضا جباها غيره من الجبايرة فلم يمنعهم من الظلم لضعف منه أو مداهنة هو امام جائر فاسق نخلعه ونبرأ منه ولا نلبس الحق بالباطل ونحن نعلمه لا تختلف احكامنا على الناس وهذا ديني ومذهبي واعتقادي ولست ممن يصدق بالنجوم والكهانة ولا بالملاحم لكني اتبع النبي محمدا صلى الله عليه وسلم وأقتدي بآثار الصالحين الذين 77

لم يتخذوا دينهم هوا ولعبا ديني دينهم وان كنت قد بان لك الحق فالحق مقبول والسلام عليك وعلى المسلمين من تلك البلاد اجمعين وصلى الله على رسوله محمد وآله وسلم تسليما انتهى فليتأمل .

(وفاته وعدد مدته واولاده ومقدار علمه رضى الله عنه)

(هذا) والذي يوجد في بعض التقايد أن امامته كانت 40 سنة والذي ذكره المؤرخ المراكشي المالكي انها كانت عشرين سنة لانه على رأيه ولي سنة 168 وتوفي سنة 188 والصحيح ان ولايته كانت سنة 171 كما تقدم ومدته 19 سنة فوفاته تكون سنة 190 تقريبا كما سيوضح وكان له من الاولاد المشهورين ميمون المقتول في حياته ويوسف وافلح الامام بعده ومن الحفدة محمد بن يوسف ومحمد بن ميمون (ولعله هو الذي قدمه قاندا للجيش المذكور سابقا) وابو معبد عبد الرحمن حفيد ميمون وكان له عدة رسائل وأجوبة مفيدة جدا في فنون شتى بعضها موجود وبعضها مفقود قال ابن الصغير وكان لعبد اوهاب كتاب يعرف بمسائل نفوسة الجبل كتبت اليه في مسائل اشكلت عليها فاجابها عن كل مسئلة مما سألت عنه وكان هذا الكتاب في ايدي الأباضية مشهورا عندهم معلوما يتداولونه قرنا عن قرن الى أن لحق الفضل فأخذته من بعض الرستميين فدرسته ووقفت عليه الخ .

وله أقوال مشهورة معتمدة في كتب الفقه وغيرها وذكر ابو زكرياء وغيره انه رحمه الله ارسل الى اخوانه بالبصرة في الشرق الف دينار ليشتروا له بها كتبها ولما وصلتهم اتفقوا على أن يشتروا بها كلها رقا فكان ذلك واستنسخوها من عندهم فكانت وقر أربعين جملا ولما بلغته اجتهد في مطالعتها وتصفحها اوقات فراغه من الأشغال وجد في ذلك حتى قيل انه يتجرد من ثيابه ولا يترك الا السراويل حتى اتمها فقال الحمد لله الذي علمني كل ما فيها من قبل ولم استفد منها الا مسلتين وقيل ثلاث مسائل ولو سئلت عنهما لاجبت فيهما قياسا كما رستمانيها فلله دره من بحر وكانت مكتبته تشتمل على آلاف من المجلدات وذكر الشماخي رضي الله عنه نقلا عن ابن سلام ان نفات بن نصر النفوسي حدث ان هذا الامام أرسل الى الامام الربيع بالمشرق اثني عشر الف درهم (اعانة له كما أعانوا والده الامام عبد الرحمن قبل ذلك) فاشترى بها الربيع سلعة وأرسلها اليه مع أخيه فكلف الامام بها بعض تجار تيهرت فباعوها واشتروا له بثمانها غيرها في ثمانية أيام وأرسلوها اليه .

وقيل أن علماء من اصحابنا المشاركة زاروا جبل نفوسة وتيهرت ولما سئلوا بعد ذلك اختاروا من تيهرت الامام ووزيره مزور بن عمران ومن جبل نفوسة ابا مرداس وابا زكرياء التوكيتي والعباس بن أيوب وقال ابو العباس في الطبقات وكفاك في فضل الامام وعدله قول ابي مرداس لا أعرف الا الامام ووزيره وهذا الفزاني ولم اره وانما أعرفه بكتابه اهـ يعني عبد الخالق الفزاني المشهور وأخبار هذا الامام كثيرة والله اعلم .

(عمال هذا الامام)

وكان من ولاته وعماله المشهورين العلامة وكيل بن دراج النفوسي من بني يخلف عامله على مدينة (قفصة) وما يليها والعلامة سلام بن عمرو واللواتي عامله على (سرت) ونواحيها والعلامة محمد بن اسحاق الخزري عامله على (نفزاوة) والعلامة جaron بن القمري الزناقي والعلامة نهدى بن عاصم الزناقي والعلامة بيران اليزمرتي المراتي وهؤلاء لم أعلم أماكن ولايتهم اذ لم يبين الشماخي رحمه الله ذلك والعلامة ابو يونس وسيم

النفوسي التمزيني عامله على قنطرة (مدينة تيجي) والعلامة ابو عبيدة الجناوني واليه على (جبل نفوسة) ويعرف الآن بجبل الغرب والعلامة مدمان المرطلي وقد امتحنه الامام فبعث اليه ذات مرة كتابين في احدهما عزله وفي ثانيهما ولايته ولما فتح الاول قال رحم الله الامام علم ضعفي وقصوري عن هذا الأمر فكتب بعزلي ولما رفع اليه الثاني وقرأه قال رحم الله الامام علم أن لا أحد يحلني من هذا الأمر فاستحسن الناس منه هذا الانقياد التام وكان مستقيم الحال . والعلامة ايوب بن العباس واليه على (جبل نفوسة) والعلامة سلمة بن قطفان الزواغي عامله على مدينة (قابس) والعلامة مدرار عامله على (جبل دمر) والعلامة مناد والسياسي الشهير مزور بن عمران الهواري قبل تقليده الوزارة ولم يذكر أحد محل ولايته هو والذي قبله والعلامة السمع بن ابي الخطاب واليه على (جبل نفوسة) والمشهورون من وزرائه السمع ومزور وغير هؤلاء كثيرون أهمل ذكرهم المؤرخون المتأخرون لعدم وجود المادة بفقدائها بالحرق في اواخر الدولة وبعدها كما سيأتي خبر ذلك والله اعلم .

(خلافة الامام افلح بن عبد الوهاب رحمهما الله)

وكانه المراكشي بأبي سعد ولم نره لغيره . لما كانت الأمور بجبل نفوسة مضطربة بخلف وأتباعه وقد وقع بأطراف تيهرت ما مر ذكره من الحروب التي ابقت في النفوس حزازات وربت في الضمائر احقادا خاف أهل الرأي وأصحاب الشورى من المسلمين بعد وفاة الامام عبد الوهاب ان يحصل بتأخير نصب امام غيره بعض حركات فسادية فيادروا في يوم وفاته الى ابنه الامام أفلح الذي كان مترشحا للامامة بأعماله العالية علومه ومداركه الواسعة فبايعوه وسلموا له مقاليد الامور بدار الامارة قطعاً للخلاف على أن يسير فيهم بالكتاب والسنة وآثار السلف الصالح فقبل منهم ذلك على ذلك سنة 190 مائة وتسعين من الهجرة وعلى قول المراكشي يكون ذلك سنة 188 وليس كلامه في هذا الباب بسديد لما سيأتي تحقيقه .

وما كاد ينتشر خبر وفاة الامام عبد الوهاب وولاية الامام افلح حتى وردت اليه كتب العمال وصلحاء المسلمين من كل الجهات والولايات بالتعزية مع تقديم البيعة ومن ذلك كتاب ابي عبيدة ومن معه في حيز طرابلس وفيه استأذنه في محاربة خلف وحزبه اذا اشتد فسادهم وكثر جورهم وتعديهم بعد سماعهم بوفاة الامام ظنا منهم ان الأمر بتيهت لا يستقيم بعده وأن الذي يتولى الامامة سيكون له اطراب وارتياب فلا يلتفت اليهم فينالون في تلك المدة غرضهم فأجابه الامام بكتاب امره فيه بمسايرة خلف واستعمال كل سياسة توطد الأمن وتحقق الدماء وتسد أبواب الحرب كما صنع والده قبله فامثل ابو عبيدة الأمر وزاد خلف في العناد فوأي النهب والقتل والسلب في كل من عثر عليه من أتباع ابي عبيدة وتحيز بجيوشه الى مكان يعرف بتمتي والظاهر الله اعلم انه قرية من القرى التي يسكنها عرب الرجبان في وقتنا هذا وتغلب على ماوراء ذلك من الجبل الى جهة الشرق وقطعه عن ابي عبيدة وهم بين راض وساخط وشدت المضايقة على ابي عبيدة في حدوده حتى مل الناس واستماهم ومن حكمة القضاء والقدر أن أخصب الله جهته وأجذب جهة ابي عبيدة في بعض السنين فرغب ارباب الحيوانات وأهل البادية في جهة خلف ورحلوا اليها تبعاً لرخص الاسعار وجودة المرعى فكثرت بذلك أتباعه وقوي جنده وأعجب بذلك حتى حدث نفسه بالهجوم على ابي عبيدة والاستيلاء على ما في يده وضم الجبل كله اليه .

(المحاربة الاولى لأبي عبيدة رحمه الله مع خلف)

فخرج خلف بجيش كبير قاصدا ناحية (جادو) ولما سمع ابو عبيدة بذلك خرج بمن معه الى طرف غابة الزيتون وعسكر بمكان هناك يبعد عن الجبل بمسافة ساعة تقريبا غير بعيد من قرية (أدرف) بلدة العلامة ابي محمد الدرقي وهي مشهورة الى الآن بهذا الاسم الا أنها خراب مأوى لقطاع الطريق والسراق ومكن للصوص ولم يشعر ابو عبيدة رحمه الله حتى غشيته فرقة من جيش خلف فيها اربع مائة فارس بين مواليه وأقاربه واخوته فأمر ابو عبيدة بالكف عنهم وعدم التعرض لهم الى ان يبدأوا بالشر ويدخلوا حريمه فأغاروا على قرية (أدرف) وهي في طاعة ابي عبيدة وشرعوا في النهب والقتل وكان أهلها ضعافا قلالا ولما بلغ ابا عبيدة انهم قتلوا نحو عشرة رجال وتحقق ذلك قال لأصحابه الآن وجب الدفاع واندفع هو واصحابه اليهم وناجزهم القتل فولوا الادبار منهزمين بعد أن هلك حتى وصلوا خلفا ومن معه من العسكر وقد ترك ابو عبيدة سبيلهم ولم يتبع ادبارهم ونفى عسكره عن ذلك فرجع بهم خلف الى (تمتي) وعاد ابو عبيدة الى جنان وهو يظن ان ذلك يقنعهم ويردعهم عن الرجوع .

ثم أن أبا عبيدة كتب الى خلف كتابا يعظه فيه ويرشده رجاء أن يتيقظ من غيه ويكف عن الفساد ويقول له فيه هكذا (واذ نرعت يا خلف يدك عن الطاعة فكُن في حيزك وأكون في حيزي وما بال الحرب) فلم يقنعه ذلك وحرص قومه على الاعتداء والمثابرة على الغارة والفتك بأصحاب ابي عبيدة اينما وجدوهم ودام الحال على ذلك نحو سنة وابو عبيدة يناصحه ويلطفه ولم تنفعه الذكرى (ومن يضل الله فلا هادي له)

(المحاربة الثانية لابي عبيدة رضي الله عنه مع خلف)

ولما اشتد الحال وضاق القضاء بأبي عبيدة ومن معه من فساد اتباع خلف وبلغ خبر ذلك الى خلف خرج بعساكره قاصدا ابا عبيدة كأول مرة وكان في أربعين الف مقاتل فلاقاه ابو عبيدة لما بلغه خبر خروجه في قليل من أصحابه اذ جاءه الخبر على حين غفلة ويقال أن الذين كانوا معه لا يتجاوزون عدد أهل بدورهم ثلاثمائة وثلاثة عشر وقيل كانوا سيمائة من أهل الفضل والعلم الذين لهم الثبات في الحرب . ولما تراءى العسكران تاه خلف اعجابا بكثرة جنده وقوته وقلة جند ابي عبيدة غافلا عن قوله تعالى (وما النصر الا من عند الله وقوله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين وقوله ان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون) واذا ذاك رأى أن قتالهم عبث وتلاعب وان محوهم وبادتهم بالسيف على زعمه مع اقرارهم بامامة الامام افلح مما لا يورث له فخرا يذكر اذ لم يكونوا كفؤا له ولجيشه على حسب غروره واستظهر أن يدعوهم الى خلف الامام ومبايعته هو والاقرار بامامته طمعا منه في رهبتهم ومبادرتهم الى اجابة طلبه فيكون ذلك زيادة تعظيم لشأنه واعلاء لقدره واهانة لهم وامانة لقلوبهم وجعل لذلك مقدمة كانت السبب في انهزامه فصرح عسكره فيما قرب منه من قرى ابي عبيدة ورعيته تسلب وتقتل ثم أرسل الى ابي عبيدة رسولين يأمرانه بخلع الامام والدخول في طاعته هو ولما بلغا ابا عبيدة طلبه قال لهما وكيف تخلف امامنا بدون حدث يوجب خلعه والبراءة منه وما الذي سوغ لصاحبكما (خلف) هذا الخروج والعصيان وقد كان ابوه السمع اعلى منه شأنًا وقدرًا وكان راضيا على الامام طائعا له الى أن توفي فتعلالا له على لسان خلف وبعد ما بين تيهرت والجل وفصل بعض ولايات بني الاغلب بينهما وزعما ان ذلك مما يجوز لهم الاستقلال فقال لهما ولم لم يفعل ذلك والده ولم يقله بل كان يجمع الحقوق ويرسلها الى الامام لما كان عاملا له .

ولما طال الكلام بينه وبينهما وأفحمهما بالحجة القاطعة عدلا الى اظهار القوة والارهاب فقالا انا نخاف عليك ان لم تجبه الى ما دعاك اليه ان تكون سببا في اراقة دماء لا يعلم قدرها الا الله وذلك امر عظيم عنده فقال وأي الأمرين عندكم اعظم ترك القيام بدين الله واضاعته ام اراقة الدماء فقالا اراقة الدماء اعظم فقال لو كان ذلك صحيحا لما اجتمع اهل النهر وان للدفاع ولا اهل النخيلة ولا ابو بلال واصحابه ولا ابو يحيى طالب الحق وابو حمزة وأصحابهما ولا ابو الخطاب ومن تبعه ولا ابو حاتم ومن معه وما اشبه هؤلاء فان كل فريق منهم قام للدفاع في زمانه عن الدين وحياته عالما بأن في ذلك من اراقة الدماء واتلاف الانفس ما تعلمونه وقد استشهد بعضهم على تلك النية الحسنة (وانما الاعمال بالنيات) وبلغ بعضهم القصد فأثار الملة وأظهر الحق وأخذ الباطل ماشاء الله من الزمن وما نحن الا بضعة منهم وبقيّة من يثارهم فنحن على نهجهم القويم سائرون لا نبغي به بدلا ولا عنه حولا ومن أراد غيره فالله يحكم بيننا وبينه بالعدل وهو خير الحاكمين ثم اعارهما جانباً من الذين فقال حيث انكم تعظمون أمر الدماء على الدين فأبلغا خلفا بأن نترك القتال اليوم ونصبح غدا (وهو يوم الجمعة) صائمين ويأتي لنصعد على الجبل ومعنا

ابو المنيب اسماعيل بن درار الغدامسي ثم نبتهل الى الله تعالى فيجعل لعنة الله على الظالمين ونسأله ان يفتح⁸¹

بيننا وبينكم الحق وهو خير الفاتحين .

فقام الرسولان الى خلف واخبراه بما دار بينهما وبين ابي عبيدة من الكلام فامتلاً غيظاً وأمر في الحال بالتهيء للهجوم عليه بدون انتظار واذا سمع ابو عبيدة بذلك استعد له ولما التقى الجمعان ورتبت الصفوف جاء الى ابي عبيدة رجل من بقايا قوم ابن فندين وقال له دع عنك القتال فانك لا طاقة لك اليوم بمقابلة خلف وعساكره ولا حاجة لك في لقائه وكان ابو عبيدة يحسن التكلم بعدة لغات فخلف له بالبرية والكافية قاتلاً لأقاتلته ول ألقاه منفرداً بسيفي هذا وضرب بيده على قائم سيفه حتى انسل اليه رجل من جيش خلف وقال له اني مشير عليك بسبيل ان سلكته ظفرت بلا شك أزحف بجيشك الى ناحية الجبل فان ظفرت ادركت مأردت بسهولة وان انعكس عليك الحال كنت في حصن وملجأ لا يستطيعون لك فيه كيدا فقال ابو عبيدة لما استحسن رأيه (نصيحة نزعها الله من عدو) وهذا الرجل اما ان يكون مائلاً في الباطن الى ابي عبيدة واما أن يكون قد سئم من القتال مع خلف على غير طائل فاراد هلاكه ليستريح والله اعلم .

فأمر ابو عبيدة الجيش بالانتقال الى اخل الذي اشار اليه الرجل وأسندوا ظهورهم الى الجبل ولعل هذا المكان هو المعروف عندنا اليوم بقصبة المصلى فانه قريب من الجبل وفيه مصلى ينسب الى ابي عبيدة يزار ويجتمع فيه الناس في وقتنا هذا من قرى متعددة لصلاة العيدين اذا حضر (والدنا او بعض النجالة وهو الذي سن هذا الاجتماع هناك حفظه الله) أو هو المكان الذي فيه الآن المسجد الجامع المسمى (أم بيدت) وهذا اللفظ منحوت من عمي عبيدة تحتاً ببربريا فيما يظهر بعد تصحيف لفظ عمي وموقعه الآن في وسط بلدتنا جادو مركز الحكومة والمشهور ان المسجد بني على مصلاه وانه اغتسل هناك كما سنذكره ولا يبعد عن شافة الجبل الا بخطوات ولولا الشهرة المذكورة لقلنا ان المكانين قريبان جدا من مدينة جادو القديمة فلا يمكن وصول العدو الى هناك والله اعلم.

ولما رأى خلف ما حصل من ابي عبيدة من الرجوع الى ورائه ولا علم له بما ابداه بعض افراد جيشه من النصيحة ظن أن ذلك من ابي عبيدة جن وفرار تخلصا من الهزيمة ففرح وهزه الطرب وقدم الابطال والفرسان من عسكره واقفنى أثرهم ولما غشيت ابا عبيدة الخيل دعا رجالا من قومه فنصبوا له سترا وأحضروا له ماء فاغتسل وتوضأ وصلى ركعتين ودعا الله سبحانه وتعالى بما حضر له من الدعاء سائلا انتصار جنده ثم بسط كفيه مواجهها بهما السماء (وهي الجهة المطلوب استقبالها عند الدعاء) مع تضرع وخشوع وقال (اللهم يامن لم أعرض عنه منذ استقبلت أمره لا تفرق هذه العصاة على يدي انك على كل شيء قدير) وذكر الشماخي رحمه الله ان اهل مدينة سروس اقبلوا مسلحين لاعانة خلف فقال ابو عبيدة اذ رأيهم على ذلك هيجوا فينا حرارة الخوف فلا أعدمهم الله ذلك قال فبقى فيهم ذلك الى يومنا هذا اهـ وقام ابو عبيدة بين عسكره خطيبا محرضا ومرغبا فشوق النفوس الى الاندفاع في الحرب وأزال الرهبة من القلوب .

ثم تدانى الصفان وانتشبت الحرب ساعة من الزمن أظهر فيها رجال عسكر ابي عبيدة من الشدة والاقدام ما ترك أعداءهم في انهمام وكان معه من الابطال المشهورين العباس بن ايوب وقد اظهر من شجاعته ما حمى به الميمنة والميسرة حتى قال فيه ابو عبيدة اذ رأيهم يحول بجواده في اثناء الحرب يمينا وشمالا (اني ارى العباس في عيني كالعقاب معصم لا أكلته النار) ثم خرج من عسكر خلف رجل يعرف بعبيد بن سيدي ورجلان معه لطلب المبارزة فخرج اليهم ابو عبيدة وابو مرداس والعباس فأسرع الى صاحبه بالقتل واما ابو عبيدة فطال امره مع صاحبه

وكانا متماثلين واما ابو مرداس فقد لاقى من صاحبه عبيد المذكور مشقة حتى كاد يفترسه ولما رأى العباس ذلك عطف على عبيد فضربه على ركبته بالسيف فأبأنها ثم حز رأسه وقال لما رآه طائرا في الهواء من شدة الضربة (الى النار) فقال الراس (وبئس المصير) فقال العباس (انا لله وانا اليه راجعون) جسد طالما دعوت له بالجنة ستأكله النار لان الرجل كان ممن شهر بالنسك والعبادة سخي اليد محبا لاهل العلم يهاديهم بأكبش الغنم وأحمال الطعام وكان العباس يعتقد فيه الصلاح لذلك (ولكن الاعمال بخواتمها وكلكم ميسر لما خلق له) ولما رأى ابو مرداس فعل العباس بصاحبه عبيد قال ضربه فتي لا اكلت معصمه النار) وبعد أن هلك من عسكر خلف ما لا يعلم عدده ولى الادبار خائبا فنادى ابو عبيدة حسب عادته (ونعمت العادة) في عسكره ان لا يتبعوا لهم مدبرا ولا يجهزوا لهم على جريح ولوى عنان جواده غير منغص ولا مفلول الى مكانه وذلك عشية الخميس الثالث عشر من شهر رجب سنة 221 احدى وعشرين ومأتين هجرية وعاد خلف الى قرية (تمتي) المشومة عليه وأمر باخراج جميع من كان فيها من نفوسة وغيرهم ممن يميل الى ابي عبيدة وأجل لهم ثلاثة أيام فارتحلوا تاركين ارزاقهم ومنازلهم ومنهم الارامل واليتامى والضعفاء ومن لا ذنب له ولا دخول له في شيء من أمر هذه الفتن وأجلى معهم كثيرين من أصحابه الذين ظن فيهم الميل الى ابي عبيدة غلظة وجفاء ولما أكثر من ذلك تفهقرت نفوس أصحابه وعلموا بأن أمره قد أدبر ففرقوا عنه وأتوا الى ابي عبيدة تائبين فقبل منهم من قبل ورد من رد ممن عظم خطأه وبقي خلف وحيدا ينتظر وتبة من ابي عبيدة تقضي عليه وعلى من بقى معه بالهلاك واو عبيدة صارف عنه النظر سائر فيما كلف به من الامر بسيرة العدل والانصاف وأرسل الى الامام بوهن شوكة خلف وافتراق حزبه .

ولما بلغ اصحابنا المشاركة انتحال خلف الخروج وما وقع من الفتن قاموا بما وجب عليهم من النصيحة في الدين كما هي عادتهم فارسل منهم العلامة ابو عيسى الخراساني رسالة مع جماعة الى أهل المغرب يرشدهم فيها الى اتباع الحق ونبد الباطل وجمع الكلمة واتباع اهل الاستقامة واقتفاء آثار الاولين من المسلمين وبالغ فيها في الثناء على الامام عبد الوهاب والامام افلح وعلى السمع وفي الانكار على خلف ابنه وأتباعه في كلام طويل جازاهم الله عن الاسلام خيرا . ومن كان مع خلف منيب بن حامل العلم أحد أئمة المذهب اسماعيل ابن درار الغدامسي وابو يوسف حجاج بن وفتين ذكر الشماخي رحمه الله ان ابا يوسف اتى اهله فقالت له زوجته وهو لدى الباب (عندك يابائع دينه) فوقف في مكانه الى الصبح واحدى رجله داخل الباب والاخرى خارجه وهو يميز بين ابي عبيد وخلف ثم ثبت عنده ان الحق مع ابي عبيدة فجاءه تائبا وصار بعد ذلك من افاضل المشايخ.

ثم ادركت ابا عبيدة منيته فسار الى رحمة الله الواسعة يبيكه العدل والعلم ويندبه اخراب وقيام الليل وله مسجد مشهور متوسط وآثاره تدل على انه كان اكثر اتساعا مما هو عليه الان قيل انه اجتمع فيه سبعون عالما من اكابر علماء قرية جناون وقد كانت مدن العلم والعلماء حتى انما لا تحتاج فيها دار الى اخرى في العلم كما كانت قرية تدميرة ولأهل القريتين الى الآن شهرة في الذكاء وجودة الفهم وتمسك بالدين وقد دفن رحمه الله في المقبرة الكائنة بالجانب الغربي من القرية المذكورة الا ان قبره مجهول تغمدته الله برحمته الواسعة وسيأتي زيادة كلام على هذه القرية ان شاء الله .

(ولاية العباس بن ايوب على الجبل بعد ابي عبيدة رحمهما الله)

ولما توفي ابو عبيدة كتب المسلمون من نفوسة الجبل ومن معهم الى الامام بذلك كتابا يعزونه فيه⁸³

ويطلبون منه تعيين غيره ولما بلغه الخبر اشتد أسفه وبلغ منه الكدر مبلغا عظيما وأرسل في الحال أمر الولاية الى العلامة العباس ولما وصله ولم يجد عذرا لدفعه التزم قبوله وجمع أهل الرأي ومن عليهم المدار من رجال نفوسة وتلاه عليهم فأملوا حسن مستقبلهم وضمنوا لانفسهم الراحة والامن لما يعدونه في العباس من الحزم والنشاط مع ما أوتيته من المهابة وعزة النفس في مواطنها وكان الأمر كذلك وأكثر من ذلك اذ قضى فعدل وحكم فأنصف وحارب ففاز (وكان خلفا انتعش حاله بعض انتعاش وانضم اليه من جمعه بعض من تشتت أولا وذلك فيما بين وفاة ابي عبيدة وتولية العباس فتحرك كعادته مكذرا صفو الأمن وجدد الغارة والنهب وهو من أعلم الناس بما للعباس من الشدة فناصحه العباس ونهاه ولما لم ينته عن غيه خرج اليه في عسكر لايزيد عن عسكره في الكثرة بل كان أقل على ما قيل الا أن فيه من الفرسان من يعد في مقام العشرات من الابطال ومنهم العالمان الشهيران بالشجاعة ابو مرداس التبرستي وابو الحسن الابدلاني ولما تقابل الجمعان بموضع يعرف بفاغيس وأظن انه قريب من تقي هال بعض أهل النظر من عسكر العباس ما رآه من كثرة جند خلف فأتى الى ابي مرداس وكلمه في ذلك فقال له لا اخاف انهزما على عسكر فيه ابو الحسن الابدلاني ثم اتى الى ابي الحسن وكلمه ايضا فقال له لا اخاف على عسكر فيه ابو مرداس فتعجب الرجل من اتحاد كلاميهما ولعمري انها لموافقة غريبة تشهد لهما بما كانا عليه من صدق النية وصفو القلوب وتوارد الخواطر الناشئة ذلك كله عن الحب في ذات الله ولأبي مرداس كما لأبي الحسن فضائل عالية ومناقب فاخرة تكفل بذكرها المؤرخون وكان في العلم آية من آيات الله وفي الزهد نادرة من نوادر صاحب الامام عبد الوهاب حتى مات وصاحب ايوب بن العباس ثم ابا عبيدة بعده ثم العباس هذا وكان معه كبيرا في السن وهو قصير القامة يجر سيفه على الارض اذا مشى امام الجيوش ومن غرائب الاتفاق اني كلما ذكرته او تذكرته خطر ببالي المشير ادهم باشا العثماني قائد الجيوش الشاهانية المنصورة في حرب اليونان سنة 1315 وهو بطل مشهور في هذا العصر وكلما ذكرت هذا ايضا تذكرت ذاك ولما التحم القتال واشتد خلف وعساكره وثبتوا للعباس ثبوت الابطال ولم ترحزهم عن اماكنهم الرماح والنبال اتى ابو مرداس الى العباس وقال له قد طال وقوفهم معنا في ميدان الحرب وما كان للباطل ان يقف امام الحق هذا الزمن كله ولعلك اضمرت سوء أو صدر منك ذنب عظيم كان عقابه لنا من الله ما تراه فأظهر التوبة وارجع الى ربك واستغفره لعل الله يؤيدنا بنصر من عنده ويبدل الحال فكرر العباس عند ذلك الاستغفار واطهر التوبة (ولا معصوم من الذنب الا الانبياء والملائكة)

ويقال ان ابا مرداس قال عند ذلك ماذا فعل العباس وما علمنا منه الا الخير ولكن الحرب عدت رجالها ثم امتطى ظهر جواده واندفع للميدان بسلحه ولم يمض بعد ذلك من الزمن الا قليل حتى انهزم خلف وتخمرت صفوفه فنأدى ابو مرداس في العسكر بعدم اتباعهم فقال بعض اصحاب الرأي لا نتركهم حتى نخرجهم من حيزنا فسكت ابو مرداس واقفوا اثرهم حتى تجاوزوا (لالت) كما في السير وهو نهاية حكمهم اذ ذاك والظاهر ان المراد بلالت هو الوادي الفاصل بين الزنتان من جهة (تغرمين) والرجبان من جهة فساطو المسمى الآن بوادي الآخرة لصعوبته وعمقه ويسمى (متلالة) ايضا بالاسم القديم مع زيادة ميم وتاء في أوله على ما يؤخذ من كتاب السير وان عبر في بعض الاحيان بلالت على لالوت وهي في طرف الجبل من ناحية الغرب ولعل هذا الاسم كان يطلق على قريتين شرقيه وغربية والله اعلم وكان (مدينة تغرمين) لم تدخل في الطاعة ولم تحز الشهرة اتي كانت لها في دولة بني رستم الا بعد هذا . ثم رجعوا واقبلوا على العباس يهنونه بانتصاره فقال لهم انما يهنؤ بهذا ابو مرداس وابو الحسن

اللدان لم ينأما ليلهما يدعوان الله ويتضرعان اليه وبذلك اتانا الله من فضله ما اتانا فله الحمد والشكر . ثم لما وصل المعسكر ترجل عن جواده وأقبل يعزي المشايخ الحاضرين في اقاربهم الذين كانوا مع خلف وماتوا قاتلا أجركم الله على مصيبتكم في اخوانكم واقاربكم فقالوا له يا عباس اما اولئك فاقاربنا وأولو أرحام منا واما اتم فاخواننا حقا .

ثم لم يزل العباس يوالي الوقائع والهجوم على خلف ويستميل اولى الالباب بعد له واستقامته ويرهب اهل الفساد بشدته وحزمه الى ان اوهن الله شوكة خلف وتشتت بقية جموعه واضمحل امره ومات وترك ولدا هرب مع من رام محافظته واحياء اثر والده الى جزيرة جربة وكان من امره بعد ذلك ماسنذكره عند الكلام على الامام يوسف ان شاء الله وبقي العباس محمود الخصال مدح الحال يتابع الوقائع والحرب مع من لم يخلد الى الطاعة من جهات الجبل الشرقية كجبل شامخ وجبل يفرن وككلة وما حول ذلك حتى اطاعوا كلهم واعترفوا للامام افلح بالاممة .

وكان ابو مرداس رحمه الله كثير التعرض له ومنعه من محاربة تلك الجهات وكأنه يؤمل منهم الدخول في الطاعة بدون حرب حيث كان المذهب واحدا او علم منهم القوة والكثرة فاراد استجلابهم بالملاطفة واللين ومن ذلك ما ذكر من ان العباس خرج ذات مرة (بعد هلاك خلف) بعسكره الى جهات جبل يفرن وكان معه ابو مرداس فخلا به وأمره بالرجوع فابى فقال له أن لم ترجع صحت في العسكر فتفرق عنك (لأنه يعلم ان كلمته مسموعة) فجمع العباس رجال عسكره وقام فيهم خطيبا فقال (نقد الزاد وضعف الكراع فارجعوا حتى اذا سمعت الدواب وجددنا الزاد رجعنا) فامثلوا الامر ورجعوا وكان الواقعة كانت في الشتاء ثم خرج اليهم مرة ثانية فجاء ابو مرداس و اشار عليه بالرجوع فامتنع فقال ابو مرداس معاتباً نفسه على ذلك هكذا (ما اكثر جنون مهاصر (يعني نفسه) الذي يطلب رجلا مثله (يعني العباس ويترك ربه) ثم دعا ربه وسأله الغيث فأنزل الله عليهم ماء غدقا وتتابع المطر حتى طلب العسكر الرجوع وتفرق فقال ابو مرداس للعباس ارددهم الآن ان قدرت يا عباس وخرج اليهم مرة أخرى فتأخر ابو مرداس وابو زكرياء عن الحضور فافتقدهما فقليل له قد رجعا فخاف ان يكون رجوعهما لحدث او منكر انكراه عليه فأوقف العسكر في مكانه واقتفى اثرهما الى ان وجدهما عند أم الخطاب وهي عجوز عالمة مشهورة بالورع والزهد في بلدة (اغرميمان) بناحية تغرمين ومعنى هذا الاسم (قصر النفس في مجلس الذكر) فقال لهما ولم رجعتما فقالا انك على الحق لم ننكر عليك شيئا وما رجعنا الا لكرهه لمعان السيوف فحمد الله على موافقتهم وقال اتركوا لمعان السيوف لمن يطيقه وكانت ام الخطاب لم تعلم برجوعهما من العسكر فذبحت لهما شاة ولما سمعت ذلك اخذت اللحم كله ووضعتة في خرج على فرس العباس وقالت لشبيخين هذا هو الذي يستحق اللحم وانتما يكفيكما الجلبان (تعني العدس وما اشبهه مما طبخ مع ذلك اللحم) فرضيا بذلك واستحسنانه وكأنها لم تعلم العباس بذلك فركب جواده ولحق بعسكره . ومن كان معه في هذه الواقعة على ما رواه الشماخي رحمه الله العلامة ابو نصر التميمي أحد فضلاء جبل نفوسة علما وعملا وزهدا دار الجبل اربعين مرة يحذر الناس من فتنة نفات وقيل من فتنة خلف قال وكان ضرير البصر فترل الى القتال وقال اللهم اني لا أبصر ما اتقى ولا مأضرب فلم تقع به ضربة ولم تخط له ضربة اهـ وهذا من غريب ما يسمع ويدل على ما كان لهم من الاعتناء والله اعلم .

وكان رحمه الله على جانب عظيم من الآداب وحسن الخلق ولاسيما مع اهل الفضل والعلم خصوصا العلامة ابا مرداس فقد ذكر الشماخي رحمه الله نقلا من تاريخ نفوسه الكبير الذي لا وجود له الان أنه هو وجماعة معه فيهم ابو مرداس جازوا في طريقهم وهم مشاة بموضع قطعة الماء فتخطاه العباس وعجز عنه ابو مرداس لانه قصير

القائمة وطاعن في السن فوقف يحاول ذلك ثم قال للعباس لم أقدر على الوثوب مثلك ولا أريد أن أخالف طريقا سلكته ولو صعدت مع حائط لسلكته لما لك علينا من حق الطاعة والانقياد فرجع العباس اليه وسلك طريقا آخر سهلا وأظهر لهم التوبة مما صدر منه أولا من تغافله عما ورد من الأمر بمراعاة الضعيف والسير بسيره فما لطف هذه الآداب وما أبلغ هذا الانقياد الى الحق منهما ولا يظن القارىء ان هؤلاء الذين يقاتلهم ابو عبيدة في الأول والعباس في الآخر كانوا على مذاهب اخرى بل كانوا كلهم من الاباضية وشقوا عصا الطاعة وانتحلوا الخلاف في مسائل طفيفة لا تخرجهم من الانتساب الى المذهب طلبا للاستقلال عن خلافة تبهرت لما رأوه في انفسهم من القوة والكثرة اذ لم يكن الجبل وجهات طرابلس في ذلك الوقت على هذا الحال الموجود الآن من صغر القرى وقلة الناس بل كان في الجبل وحده وفي ظاهره من قبائل نفوسة ومزاتة ما يتجاوز مائة الف فارس وعشرة آلاف فارس وكان فيه من الرجال ما لا يحصى وكانت هذه الفيا في الخالية الآن بجهات طرابلس والجبل كلها عامرة بالقرى وأهل البوادي كما تدل على ذلك آثارهم المؤيدة لصحة ما في التواريخ وبعد أن علم الناس قيمة العدل وعرفوا فائدة الأمن وذاقوا طعم السلامة والراحة انقطع الثائرون واستراح العباس وصفا الحال للامام وانتظمت له الأمور فبسط العدل في الرعية وسار فيهم سيرة مرضية واستقامت له الاحوال وساعدته الأقدار فافتنى سيرة ابويه ولم ينقم عليه احد في شيء من احكامه وكان من المهابة والفروسية وغزارة العلم والحلم والكرم والاقدام والورع بمزلة يكل عن وصفها اللسان ويعجز عن حصر صغيرها القلم والبنان هو السيد والابطال عبيده وهو الأسد الضاري والأقربان صيده اذا زار دخل الرعب القلوب واذا جال في ميادين الوغى هيأت للحدود وشقت الجيوب ملأت أخبار بسالته البقاع وصدعت هيبته الاسماع وأدهش اقدامه في معامع الخطر عقول العقلاء وكان حاتما الجواد بعد فيضان بحره الطافح من البخلاء حدث عنه من باب الكرم ولا حرج وقل ان شئت هو ممن عن دائرة مكنات العقل في هذا الحديث خرج فلله دره من امام واسع العطايا كريم الشجايا باسط يمينه لادرار الخير وافاضة الصلات قابض شماله على سيف النعمة لنكال الخاطئين وحصاد اعناق العصاة خاض عباب سياسة الملوك بذكائه المستقيم واستخلص جواهرها الثمينة بمسبار عقله الكامل الحكيم وجعلها نبراس سيره في حناديس مهمات الأمور فكانت سيرته جارية على محور الاستقامة رغما عما يطرأ من حوادث الدهر وتقلبات السنين والشهور فهو وائم الحق جامع الخصال الحميدة ناظم عقد الكمالات بفضائله الفريدة .

(ليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد)

فمن سرح جواد فكره في صفحات التواريخ والسير وريض نير عقله في رياض ذكر رجال السلف ومالهم من النوادر والعبر رأى لهذا الامام العظيم من بينهم من الذكر الجميل والأثر الجليل ما يبهر اللباب ويؤدي الى الوله والاستغراب وقد تكلم المؤرخ ابن الصغير المالكي على سيرته فخذها على القاعدة المتقدمة استدلالا على صحة ما قلناه في حقه وان كان قليلا .

(قال) فلما ولي أفلح أخذ بالعزم والحزم ونشأه من البنين ما لم يكن لغيره ممن قبله وطار له الصيت وأتته نفوسة الجبل يسألونه أن يقدم عليهم من يتولى أمرهم ولم تكن الشراة تطعن عليه في شيء من أحكامه ولا في صدقاته ولا في أعشاره الى أن قال وكان قد عمر في امارته ما لم يعمره أحد ممن كان قبله أقام خمسين عاما أميرا حتى نشأ له البنون وشيخ في ملكه وابتنى القصور واتخذ ابوابا من الحديد وبني الجفان واطعم فيها أيام الجماعة⁸⁶

الجميعان وقد تقدم ذكرها قبل هذا وعمرت معه الدنيا وكثرت الأموال والمستغلات وأتته الرفاق والوفود من كل الأمصار والآفاق بأنواع التجارات وتنافس الناس في البنيان حتى ابتنى الناس القصور والضياع خارج المدينة وأجروا الأنهار فابتنى أبان وحموية القصرين المعروفين بهما بأملاق وابتنى عبد الواحد قصره الذي يعرف به اليوم وغيره مما يطول ذكره ولقد حدثني من أثق به ان أبان وحموية خرجا يوما الى قصريهما متزهين ومعهما جماعة من اخوانهما فذكر عن بعضهم انه قال لما اشرفنا على القصرين أحس بنا بعض عبيدهما فأعلموا سكان القصرين بقدميهما قال فنشوف من كان بالقصرين اليهما قال فو الله ما رأيت شرافة من شرافات القصرين الا وعليها ثوب أحمر أو أصفر على الجدار كالبدور وانتشرت القبائل وعمرت العمائر وكثرت الأموال بأيديهم وكانت العجم قد أبتنت القصور ونفوسة قد أبتنت العدو والجند والقادمون من أفريقية قد أبتنوا المدينة العامرة اليوم وأمنت الساحات وكثرت الأموال حتى أضغت أهل الحواضر والبادي حتى لقد حدثني غير واحد أنه كان للعجم مقدم يقال له ابن وردة قد ابتنى له سوقا يعرف به فكان صاحب شرطة أفلح اذا تخلل المدينة لافتقادها لم يجسر أن يدخل سوق ابن وردة ولا يتخلله هيبة وكانت نفوسة تلي عقد تقديم القضاة وبيوت الأموال وانكار المنكر في الاسواق والاحتساب على الفساق آهـ بلفظه يعني أن نفوسة هم الذين ينتخبون له من يصلح لتلك الوظائف سواء كان منهم أو من غيرهم وهو يعينه وكانت الأجناد تلي بطانة السلطان واولاده وحشمه .

(دهاء هذا الامام)(ممزوج)

وبينما هو في أرغد عيش وأصفاه وأتم حال وأهناه على نحو ما حكيناه اذا أوجس من القبائل المنتشرة حول المدينة ودخلها خيفة ورآى من مبادئ الثورة آيات جليلة وحركات خفيفة لما رآه رؤساء القبائل والمقدمون في انفسهم من القوة والجاه ونفوذ الكلمة لدى عشائهم بما ملكوه في ظل عدل ذلك الامام من منقوش الدرهم ومدور الدينار وجرم النعم ورؤس البقر والشاة وجياد الخيل ولما اتخذوه من الخدم والعبيد والفرش والستور والأسرة فأشروا وبطروا وخامرهم الكبر ودخلتهم الأنفة من أن تقام عليهم حدود الشرع الشريف أو أن يتقيدوا بقانون من قوانين السدين المطهر المنيف تصديقا لقوله تعالى وهو اصدق القائلين .

ان الانسان ليطغى أن رآه استغنى (وقوله ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الارض ولكن يترل بقدر يقدر ما

يشاء)

فعندها شمر رحمه الله عن ساق الحزم وكشف عن عضد العزم لضم الخرق قبل اتساعه واطفاء لهب تلك المقاصد الشريرة قبل ارتفاعه . فألقى موجبات التخالف بين كل مقدم واتباعه وبث الجواسيس بين شعوب تلك القبائل بطرق سياسة وتدبيرات باطنية كفته مؤنة القتال وقامت مقام تجنيد الجنود وسفك دماء الابطال شان من تقدمه من حكماء الملوك الذين حنكتهم التجارب وكرعوا في بحار الحكمة واغترفوا من حياض السياسة البالغة من آبائه وأجداده وغيرهم .

وما كان غير بعيد حتى اختلفت الآراء بين تلك القبائل وتضادت الأهواء وصار بين كل قبيلة وحليفها من الشقاق أضعاف ما كان بينهما من الألفة والاتفاق فنفرت قبائل زناتة من قبائل لواتة ومطماطة وعظم الشاحن بين

الجند والعجم وفشت البغضاء بين كل رئيس ومقدم وصاروا كلما أوقدوا نارا للحرب مع الامام اطفأها

الله ورد العاصين بالخبية وكفى امام المسلمين القتال قالت راضخة لسيطرته بدون محال خاضعة الرقاب⁸⁷

باسطة الأكف لقبول أوامره ونواهييه بدون جدال كل يخاف ان يسعى به قريته اليه او يستميله فيقربه منه ويغضب عليه وعندئذ أمن مكرهم بهذه السياسة ورد كيدهم في نحورهم بهذا الدهاء والفراسة (قال) فلما رأى ذلك استلقى على ظهره آمنا ومد يديه ورجليه مطمئنا وعلم انه كفى أمرهم وبقيت تلك الضغائن في القلوب اهـ

(أحوال الامام افلح مع الملوك)

وكان له مع أغلب الملوك مؤدة ولا سيما ملك (صوصو) أو (كوكو) التي تبعد عن (تاهرت) بمسافة ثلاثة أشهر تقريبا وكان أكثر المسافرين لتجارة السودان في ذلك العهد من أهل مدينة (وارجلان) وهوارة قال الشريف في نزهة ومدينة كوكو كبيرة مشهورة الذكر في بلاد السودان وهي على ضفة نهر يخرج من ناحية الشمال فيمر بها ومنه شرب أهلها الى أن قال ثم أن ملك كوكو ملك قائم بذاته خاطب لنفسه وله حشم كثير ودخلة كبيرة وقواد وأجناد وزي كامل وحلية حسنة وهم يركبون الخيل والجمال ولهم ياس وقهر لمن جاورهم من الامم الحبيطة بارضهم ولباس عامة أهل كوكو الجلود يسترون بها عوراتهم وتجارهم يلبسون القداوير (الجيب) والأكسية وعلى رؤسهم الكرازي وحليهم الذهب وخوصاهم وجلتهم يلبسون الأزرق وهم يداخلون التجار ويجالسونهم ويضعونهم بالبضائع على جهة المقارضة وينبت في أرض كوكو العود المسمى بعود الحية ومن خاصيته انه اذا وضع على جحر الحية خرجت اليه مسرعة ثم ان ماسك هذا العود يأخذ من الحية ما شاء بيده من غير أن يدركه شيء من الجزع ويجد في نفسه قوة عند أخذها والصحيح عند أهل الغرب الأقصى وأهل وارقلان ان ذلك العود اذا مسكه ماسكه بيده أو علقه في عنقه لم تقربه حية البتة وهذا مشهور وصفة هذا العود كصفة العاقر قرحا مفتولا لا كنه اسود اللون ومن مدينة كوكو الى مدينة غانة شهر ونصف اهـ ثم ذكر ان بين غانة ومدينة (أودغست) في شمالها 12 مرحلة وبين أودغست ومدينة وارقلان 31 مرحلة فتحصل أن ما بين تيهرت وكوكو على هذا الطريق يقارب ثلاثة أشهر والطرق اليها مسلوكة مأمونة بما أبداه أئمة بني رستم من المهمة بمحافضة قوافل التجارة الى الشرق والغرب والسودان كما سيأتي عن ابن الصغير وقال في صحيفة 120 ومن مدينة المسيلة الى وارقلان 12 مرحلة كبارا وهي (أي وارقلان) مدينة فيها قبائل مياسير وتجار أغنياء يتجولون في بلاد السودان الى بلاد غانة وبلاد ونقارة (لعلها هكارة) فيخرجون منها التبر ويضربونه في بلدهم باسم بلدهم (أي يطبعون منه سكة دراهم ودنانير) وهم وهبية أباضية ومن وارقلان الى غانة 30 مرحلة اهـ وهذا الطريق اقرب من الاول الى كوكو وذكر أهل وارقلان في التواريخ بشأن التجارة الى السودان كثير جدا .

وكذا رأيت هوارة ذكرا كثيرا في هذا الباب ومن ذلك ما قاله في الترهة ايضا وان أراد بذلك حالهم بعد انقضاء دولة الرستميين فنقول انه نشأ في مدتهم قال وهم (يعني هوارة) أملياء تجار مياسير يدخلون الى بلاد السودان بأعداد الجمال الحاملة لقناطير الاموال من النحاس الاحمر والملون والأكسية وثياب الصوف والعمائم والمآزر وصنوف من الزجاج والأصداق والاحجار وضروب من الأفواية والعطر وآلات الحديد المصنوع وما منهم من يسافر عبيده ورجاله الا وله في قوافلهم المائة جمل والسبعون والثمانون جملا كلها موقرة ولم يكن في دولة اللثم (بعد دولة بني رستم) أحد أكثر منهم أموالا ولا أوسع منهم أحوالا وبأبواب منازلهم علامات تدل على مقادير أموالهم الى أن قال وأما الآن في وقت تأليفنا لهذا الكتاب (وهو أول المائة السادسة) فقد أتى على أكثر أموالهم (قبائل)

وله مع ملوك الاندلس وغيرهم مواصلة وارتباط ومودة يهادونه بالهدايا النفيسة ويهاديهم بمثلها وله عندهم شهرة ومقام رفيع ينظرونه بعين الهابة ويرمقونه بأعين الاجلال والاعتبار بحيث لم يحم حول مملكته طامع من الملوك الأخرى توكيا من وثبته واندعاشا من صولته الا ما كان من ابي العباس محمد بن الأغلب لما استولى على غالب شطوط افريقية فانه دعاه الطمع الى التوغل في المغرب حتى تاحم حدود (تاهرت) وشرع في بناء مدينة هناك فسكت الامام رحمه الله ولم ينكر عليه مع علمه بما سينشأ عن عمراتها من المضايقة في الحدود ونقص التجارة الى أن بناؤها وترتيب اسواقها على نسق عجيب وترتيب غريب فوثب عليها وثوب الأسد بجيوشه وأجلاهم منها وأبقاها خاوية على عروشها يعمرها العنكبوت واليوم قال المؤرخ ابن خلدون المالكي وشيد (يعني ابا العباس محمد بن الأغلب) مدينة بقرب (تيهت) وسماها العباسية وذلك سنة 27 سيع وعشرين وأحرقها أفلح بن عبد الوهاب بن رستم وكتب الى صاحب الاندلس يتقرب اليه بذلك فبعث اليه بمائة الف درهم اهـ .

وقد ذكر الحكاية ابو العباس البلاذري كذلك في تاريخه فتوح البلدان المطبوع ببلاد الافرنج في صحيفة 234 الا أنه قال ان ذلك كان سنة 239 لا 27 ولم يذكر التقرب وأنت ترى ايها القارىء ما في كلام ابن خلدون مما يدل على ما كان له من الحقد نحو بني رستم كما قلناه من قبل ولم نعلم له سببا والا فكيف يتقرب أفلح الى صاحب الاندلس وهو يهاديه بالمال كما قال وهذا على فرض صحة النسخة المنقول منها والا فرما كان الاصل هكذا (فبعث اليه بمائة الف درهم يتقرب اليه بذلك (فتأمل) والله اعلم .

(بعض رسائل هذا الامام رحمه الله)

وله رحمه الله عدة مؤلفات ورسائل وأجوبة جامعة لنصائح ومواعظ وحكم دلت على ماله في الفضل والكمال والعدل من طول الباع وفي غزارة العلم وقوة الادراك من الاتساع ومن كلامه رحمه الله لبعض عماله قوله (بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم)

(من أفلح بن عبد الوهاب الى البشير بن محمد سلام عليك واني احمد الله الذي لا اله الا هو واسأله ان يصلي على سيدنا محمد عبده ورسوله (ص) وعلى آله (أما بعد) البسك الله عافيته فاني أذكرك عظمة الله لا تنساها وفكر في صغير خلقتك وفي عظيم ما خلقه الله وما جعله من النكال والعذاب لابن آدم وما عافى به من فاز برحمته من عظيم خلقه من السموات والارض والجبال والشجر واذكرك ما أعدده الله لابن آدم من الكرامة التي تكل الالسن عن وصفها فلو لم تكن كرامة تطلب الا النجاة من جهنم لكان في ذلك ما ينبغي للعبيد أن ينصفوا من أنفسهم ويفارقوا جميع اللذات الا اني أقول لك ان الدواء في هذا هو الاستغاثة الى الله في العصمة فمن أراد به الاحسان عصمه (أي حفظه من الاصرار على المعاصي ووفقه الى التوبة) وجعله من أوليائه الذين قال لا بليس فيهم ان عبادي ليس لك عليهم سلطان فاطلب الله وارغب اليه في العصمة والتوفيق وان يحول بينك وبين عدوك وأعلم أنه لا شيء لمن عقل خير ممن وعظه ومن موعظة يأخذها فاقبل واجتهد في القبول الى أن قال وأما ما ذكرت من أن أجعل لك سبيلا وأطلق يدك وأن الحاضر يرى ما لا يراه الغائب فلعمري انه لكذلك ولكن ليس في هذا انما هي أسهم جعلها الله وأوقفها وهي وسخ أموال الناس وليس لنا فيها قضاء ولا زيادة ولا نقصان ولا أمر ولا نهي الا على قدر الاجتهاد فائق الله واجتهد جهدك في توفير الحقوق وتوجيهها اليها على هذا مضى من كان قبلك الخ ومن كلامه ايضا قوله .

أما بعد عافانا الله وإياك عافية المتقين الذين انعم الله عليهم بطاعته وهداهم الى ما اختلفوا فيه من الحق باذنه اولئك الذين هداهم الله واولئك هم اولو الالباب كتبت اليك ومن قبلي في عافية والله لا شريك له احببت أن اعلمك ذلك بالكتابة به اليك لتحمد الله على ذلك وتشكره كما هو أهله .

وأوصى نفسي وإياك بتقوى الله ولزوم طاعته والتوقي على دينه والتوكل عليه وحده لا شريك له فانه عز وجل يقول (ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه ان الله بالغ امره قد جعل لكل شيء قدرا) فالزم التقوى نفسك واشعرها قلبك واصبر على ما أصابك ان ذلك لمن عزم الامور والتقوى من الله بمكان عظيم والمتقون هم الفائزون خلصوا من هموم الدنيا وأشغالها ونجوا من عذاب الآخرة ونكأها . فمهدوا لانفسكم وقدموا لمعادكم واعملوا عملا يسركم غدا مكانه فكأنى بكم وقد فارقتم الدنيا ولحقتم بالموتى وعليكم بالتمسك بما مضى عليه سلفكم الصالح أهل الفقه واليقين والبصيرة في الدين نظروا الى الآخرة بقلوبهم فهان عليهم فراق الدنيا وما فيها فلا تغرنكم فانها فانية زائلة فكاننا وإياكم فقد فارقتها فوقفنا بين يدي الله تعالى فيجزى الذين أساؤا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى عصمنا الله وإياكم بالتقوى ورزقنا العمل بطاعته فانه ولي ذلك ومنتهى الرغائب لا شريك له ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم وصلى الله على سيدنا محمد وىله وصحبه وسلم .

(شعره)

وكان رضي الله عنه من الادباء ذا اقتدار على النظم وحفظه له منه كل مارق وطاب فمن شعره الرائق تلك المنظومة المشهورة بين التلامذة الجامعة لحكم ونصائح هي جديرة بالحفظ والاعتناء بل يحق لها أن تكتب بمداد التبر على صفحات اللجين وأن يجعلها كل من كان ذا اعتناء بالعلم والعمل به من مكنونات فؤاده ومن درر محفوظاته حتى يصبح مهذب الاخلاق والخلق متحليا بمحاسن الآداب العالية والعلوم النافعة وقد عني بتشطيرها ذلك الرحالة الشهير الاديب الكامل العلامة المفلح الشيخ علي بن احمد العماني من علماء أباضية الشرق في اثناء سياحته بالقارة الافريقية في اواسط القرن الثالث عشر من الهجرة لما زار مشاهد جبل نفوسة ورآى ما عليه أهله اذ ذاك من النهور في المناهي الشرعية مع خراب المساجد وانطماس معالم السير ومن هناك توجه الى السودان وفي طريقه ذلك سرق منه ديوانه الجامع لأشعاره وقصائده وما حرره من رحلته فاغتم لذلك غما لا مزيد عليه وهنا لك توفي رحمه الله واليك نص المنظومة الرائقة مع تشطيرها البديع رضي الله عن صاحب الاصل ورحم من حاذاه بالمثل .

(بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم)

العلم أبقى لأهل العلم آثارا	وليلهم بشموس العلم قد نارا
يجي به ذكرهم طول الزمان وقد	يريك أشخاصهم روحا وإبكارا
حي وان مات ذو علم وذو ورع	ان كان في منهج الابرار ما مارا
أو أنها غبرت اشخاصهم ومضوا	ما مات عبد قضى من ذاك او طارا
وذو حياة على جهل ومنقصة	ولا يبالي أخيرا نال ام عارا
حياته عدم في طول مدته	كميت قد ثوى في الرمس اعصارا

لله عصابة اهل العلم ان لهم
 نالوا الأمان به طرا وبان لهم
 العلم علم كفى بالعلم مكرمة
 كم جاهل بأمور الدين محتبط
 العلم عند اسمه اكرم به شرفا
 ما للفتى غير نور العلم من رتب
 يشرف العلم للانسان منزلة
 العلم فخر علا عن كل مرتبة
 العلم در له فضل ولا احد
 فسل خبيرا وجب غور العقول ومن
 للعلم فضل على الاعمال قاطبة
 وفضله الجم قد نص الحديث به
 يقول طالب علم بات ليلته
 ومن بيت في الدجى بالجد مبتذلا
 من عابد سنة لله مجتهدا
 ما نال كفضل العلم قط ولو
 وقال ان مداد الطالبين على
 ان أثر النضج منه حين يبدى على
 مثل دم الشهداء المكرمين لهم
 فضل ذوي العلم حتما لا يماثله
 وقال هم يرثون الانبياء كذا
 فهم ولادة لرب العرش لا عدموا
 أكرم بهم من وي الفضل المبين لهم
 ما ارتاب في فضلهم اولو العقول وهم
 الكاشفين معاني كل مشكلة
 النادين الى دين الاله به
 اشدد الى العلم رحلا فوق راحلة
 واعص الكرى واصطبر دهرنا على ارق
 واصبر على دج الاغساق معتسفا
 وابذل من الجهد ما يشفي الفؤاد وجب

في كل افق من الافاق انوارا
 فضل على الناس غيايا وحضارا
 ومن يرد غير خير العلم ما اختارا
 والجهل جهل كفى بالجهل ادبارا
 للمرء اذ يكتسي بالعلم اطمارا
 والجهل عند اسمه اعظم به عارا
 ويجتني من جناه العذب اثمرا
 ويرفع العلم للانسان اقدارا
 محص له كل عقل دونه حارا
 في الناس يدري لذاك الدر مقدارا
 كان ذووه لدين الله انصارا
 عن النبيء رويانا فيه اخبارا
 برغبة تورده الضمان تيارا
 في العلم اعظم عند الله أخطارا
 ومنفق من كنوز التبر قنطارا
 صام النهار وأحي الليل اسهارا
 دوامهم فيه آصالا وأسحارا
 ثيلهم وعلى القرطاس اسطارا
 في جنة الخلد حور العين ابكارا
 فضل فأكرم بأهل العلم أخيارا
 مراتب العلم لا يرتاب من مارا
 فيهم رويانا احاديثا واخبارا
 سر كسى مظلمات الارض انوارا
 ارث النبوة في ايديهم صارا
 من العلوم وما فيه النهى حارا
 والمظهرين خفي الغمض اظهارا
 وكن الى طلب التعليم سيارا
 وصل الى العلم في الافاق اسفارا
 واقطع من الارض غيطانا واقفارا
 مهامه الارض احزاننا واقطارا

حتى تزور رجلا في رحلهم
 واصل زيارتهم طول الزمان تجد
 والطف بمن انت منه العلم مقتبس
 لو كان فظا غليظ القلب منقبضا
 فاللطف مستخرج منه فوائده
 واجعل بقلبك بر الوالدين له
 فصدر ذي العلم ان راجعته حرج
 واخفض جناحك ان تمدر شقاشقه
 وارصد خواطر ساعات النشاط له
 وحاذر الزيف واحسن في السؤال له
 واحسن الكشف عن علم تطالبه
 ودم عليه ولا تسأم له طلبا
 ولا تكن جامعا للصحف تخزنها
 وانت عن طلب التعليم في شغل
 نعم الفضيلة نعم الذخر تورثه
 والعلم خير كنوز المرء وهو غني
 وان هممت بخير الناس تالفهم
 لقد وجدت اصطحاب الاكرمين وقد
 فاطلب من العلم ما تقضي الفروض به
 وطهر النفس من أوساخ شهواتها
 واطلبه ما عشت في الدنيا ومدتها
 واجعله ذخرا ليوم لم يفد ندم
 واجعله لله لا تجعله مفخرة
 وصنه عن كل جبار تفق عملا
 تعسا لكل مرء غير مقتصد
 لقد عدا طوره فيما يخوض به
 يصطاد بالعلم اموال العباد كما
 يلقي الحبالات راج للقنيص كما
 لو كان في فلولات الارض معترضا
 ولو ترى الارض من اطرافها ذهباً

عان لهم واقتبس من نارهم نارا
 فضلا فأكرم بأهل العلم زوارا
 وكن به مشفقا برا ولو جارا
 جدد له كل يوم منك ابرارا
 دون اللالي ترى لليم تيارا
 وكن لصولته ان صال صبارا
 راع الرضا منه واحمد حينما فارا
 فقد برى الله هذا الخلق اطوارا
 واستمطرن سحبا منه مدرارا
 اذا أردت لبعض القول تكرارا
 وانصت بحسك اسماعا وابصارا
 والزم دراسته سرا واجهارا
 تملأ التواييت بالأسفار اوقارا
 كالعير يحمل بين العير اسفارا
 فكل ذخرك وكنز دونه بارا
 لنفسك اليوم ان أحسنت اثارا
 تلق أفاضلهم مثنى وأوتارا
 ألقت بالعلم ابرارا واخيارا
 واردف به عملا في القلب نزارا
 واعمل بعلمك مضطرا ومختارا
 وكن بعزمك والترغيب مغوارا
 لموقف العرض ان لا تورد النارا
 بين الأنم لذيل الكبر جرارا
 ولا تراءى به بدوا واحضارا
 كانت بطينته شوبا واكدارا
 وقد تقلد آثاما وأوزارا
 ساءت خلأته واختارت العارا
 يصطاد مقتنص بالباز اطيارا
 ذره ولا تغتم من ذاك دينارا
 وللدراهم في الاسواق طارا

فلا تخادع بما تبديه خالقنا
 واجهر وسر التقى واذرف دموع دم
 مولاك يعلم ما تخفي الصدور فلا
 ان حدث عن ربك الباقي الرؤف فلا
 ولا تداهن اذا ما قلت مسئلة
 ولا تداهن بفتياك الأنام لقد
 واجعل لنفسك حظا من مذاكرة
 ومل الى مجلس تجلو الهموم به
 وانشط لعلمك اذ لايد من ملل
 وجانب النذل لا تزل بساحته
 وعاشر الناس وانظر من تعاشره
 صاحب آخا الصدق مع علم تسر به
 قرب مكثر صحب لايزال يرى
 ورب صحبة من يهوى الفتى جلبت
 ما في الزمان بقي خل تسر به
 وكن بربك لا بالناس معتصما
 وثق به واستكن فيما دعاك له
 خير العباد عباد الله ان له
 ترى له عند خوف العبد من ضرر
 سبحانه صمد لا شيء يشبهه
 انا الفقير اليه ارجو رحمته
 (تمت القصيدة مع تشطيرها)

واحذر وكن عن قبيح الفعل فرارا
 والله يعلم ما تخفيه اضمارا
 تفقن بفعلك مهما كنت غدارا
 يكن لك الحلم من مولاك غرارا
 وكن من العدل والانصاف ممتارا
 اضرت بالدين ان داهنت اضرارا
 ولا تكن لأخيك البر هجارا
 مع الصديق اذا استوحشت اسمارا
 اذا عرا قلبك التهمام وانضارا
 ولا تكن من جميع الناس فرارا
 فان في الناس صداقا ومكارا
 قصدا ولا تكثرن الصحب اكثارا
 مذاق ود وبلاسنان كشارا
 لنفسه قرناء له قد صار غدارا
 الا القليل وذاك القل قد بارا
 فالناس كانوا كلمع الال غرارا
 كفى بربك رزاقا وغفارا
 طرفا الى خشية الرحمن نظارا
 لطفنا خفيا يرد العسر ايسارا
 فرد قديم مديد الملك قهارا
 أقررت لله بالتوحيد اقرارا

وكفى المطالع دليلا على غزارة علم هذا الامام انه تصدر للتدريس والقاء العلوم على اختلاف فنونها قبل أن يبلغ الحلم وكانت له اربع حلق وقيل سبع من طلبة العلوم وقد بلغ في العلوم كلها حتى الرياضية والتنجيم مبلغا لا يدرك شأوه حتى أنه كان ذات ليلة مع أخته يتجاذبان اطراف الحديث ويتحاوران في المباحث العلمية والفنون الأدبية اذ كانت هي ايضا كسائر عائلتهم ممن رضع لبان العلوم ولها القدم الراسخ في المعارف فجرهما الكلام الى علم التنجيم وبعد أن تحاورا فيه مليا قال لها لينظر كل منا أول ماسيدبح من الحيوانات في السوق غدا فحسب هو فقال اول ما يذبح بقرة صفراء في بطنها عجل أغر فضبطت هي الحساب وقالت له صدق حسابك في البقرة ولونها والعجل وأخطأ في الغرة فان العجل لاغرة له وذلك البياض الذي استظهرته من حسابك هو في رأس ذنب العجل وقد التوى حتى صار على جبهته وفي الصباح أمر أن يعرضوا عليه أول ما يذبح فاذا هو كما قالت اخته بدون خلاف ومع ماسردناه من درجته في العلم كان والده الامام عبد الوهاب رحمه الله يخرج عليه الدخول في التجارة 93

تورعا وبعدا عن الوقوع في بعض الشبه من حيث البيع والشراء حتى أنه عزم مرة على التوجه الى جهة (صوصو) بقصد التجارة في حياة والده لأن السبل الى السودان للتجارة اذ ذاك ممهدة مأمونة وبعد أن هيا نفسه وبرز برحله خرج اليه والده ووقف له عند باب المدينة وصار يسأله ويناقشه في مسائل الربا والبيع والشراء حتى غفل في مسألة وأجاب فيها بخلاف الواقع فقال له ارجع يأفلح عما قصدته حتى تستعد لهذا الأمر والا اطمعنا الحرام من حيث لاندرى فرجع امتثالا لأمر والده وتورعا اقتداء بأمر المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه في قوله كنا ندع سبعين بابا من الحلال مخافة أن نقع في الحرام ذكر الحكاية الشماخي رحمه الله ولعلها كانت في حال صباه قبل رسوخه في العلم كما يدل عليه سياق الكلام

(خبر فرج النفوسي المعروف بنفات الخارج عن الطاعة)

(وخبير العلامة سعد بن ابي يونس معه)

وفي أيامه رحمه الله خرج عن دائرة الآداب فرج المعروف بنفات ابن نصر النفوسي واتخذ الطعن في الائمة الرستمين ديندا وخالف المسلمين في مسائل استحق بها البراءة .
منها قوله ان الله هو الدهر الدائم ولما سئل عن ذلك قال هكذا وجدته في الدفتر يعني الكتاب المسمى بهذا الاسم .
ومنها انكاره الخطبة في الجمعة وادعاؤه انها بدعة وضلال
ومنها انكاره استعمال الامام العمال والسعاة لجباية الحقوق الشرعية ومطالب بيت مال المسلمين من الرعايا
ومنها قوله ان ابن الأخ الشقيق أحق بالميراث من الأخ للاب
ومنها قوله ان المضطر بالجوع لا يمضي بيع ماله اذا باعه لأجل ذلك وعلى من شهد مضرته تنجيته .
ومنها قوله ان الفقد لا يتحقق الا فيمن تجاوز البحر الى غير ذلك من المسائل التي انتحل فيها الخلاف وقد كان ذافهم عجب وذكاء غريب واطلاع وادراك زاندين اخذ العلوم من منبعها والتقط غرائب الفنون من معدنها مع زميله العلامة سعد بن ابي يونس النفوسي وذلك عن الائمة (بتاهرت) وسنين خبره مفصلا على ما ذكره ابو زكرياء وغيره فنقول وبالله التوفيق كان نفات هذا من احدى القرى الغربية من جبل نفوسة وأطنها هي القرية المعروفة الآن بنفانة العامرة بقبيلة مالكية المذهب تعرف بهذا القب ولعلها من سلالة اذ كان هذا اللقب موجودا فيها من زمن جدنا ذلك الشهير بالعلم الغزير والكرم الواسع والعدل في الاحكام بجبل نفوسة في اوائل المائة السادسة ابي يحيى زكرياء رحمه الله تعالى وهي في قمة جبل صعب المراقي في سمت بلدة (تترغت) من جهة الشرق الشمالي تلي بلدة (اجريجن) من جهة الشمال أهلها فقراء جدا وبينها وبين بلدة (تمزين) مسير خمس ساعات تقريبا الى ناحية الغرب وهذه لم تنزل عامرة بجماعة من أهل المذهب لا تخلو في الغالب من فقهاء ولأهلها محافظة زائدة على عمارة مسجدهم بالصلاة جماعة وبمجلس القرآن العظيم وهم اعتناء خاص بالسؤال عن مسائل الدين كلما اجتمعوا بمنسب الى العلم وذلك لكثرة المترددين منهم على جبال بني مصعب لطلب العلم من علامة الزمان نادرة العصر شيخ الاسلام استاذي الشيخ محمد بن يوسف المصعبي صاحب الصيت الكبير بمؤلفاته العظيمة وكان ابو يونس وسيم النفوس منها وقد ولاه الامام عاملا على قنطرة المعروفة عندنا الآن (بتيجي) ذات العمارة الواسعة والثمار المتنوعة والعيون الجارية في ذلك العهد وان لم يبق فيها الآن الا شيء قليل من النخيل وعيونها تسيل على وجه الارض لارتفاع كثير من

منابعها ولا ينتفع بها أحد بشيء فتوجه العلامة سعد بن ابي يونس بآشارة من والده الى (تاهرت) لتلقي

العلوم فيها فصحه نفات هذا وأقاما هنالك ما قدره الله من الزمن يلازمان فيه مجالس الامام وغيرها من نوادي العلم حتى ادركا درجة استحقاقها الذكر وكانت تظهر في اثناء تلك المدة من سعد دلائل الصلاح وتلوح عليه سيماء العفة والاستقامة أكثر من نفات وان حاز نفات قصبة السبق في الذكاء والفهم على كثيرين من أتباعه وبينما هما كذلك اذ بلغ الامام وفاة ابي يونس عامله على قنطرة ووالد سعد ولما سمع بذلك حن الى الرجوع الى وطنه للقيام بأشغاله فاستأذن الامام في المسير فأذن له وطمع نفات في الولاية لما رآه في نفسه من القدرة عليها فعزم على السفر مع سعد راجيا أن يعينه الامام حاكما في مكان ابي يونس ويرجحه على سعد اذا رآه متوجها معه ولكن الامام بعد استشارته أهل الرأي ترجح لديه صلاحية سعد للقيام بهذا الأمر لما شاهده منه بعد تكرار التجربة من الصلابة في الدين والشدة والوقوف عند مناهي الشرع الشريف فكتب السجل (اليورلدي أو الفرمان) باسم سعد وطواه وختمه وسلمه لهما بدون أن يخبر نفاتا بشيء ولا بد من أن يكون قد اخبر سعدا وامرهما بالحفاظة على ذلك الظرف الى أن يسلماه لمن وجهه باسمه من جماعة المسلمين بقنطرة فاستراب نفات القضية واستفزه الشره وسوء الظن بالامام فتخلف في طريقهما عن سعد وفتش في الرحال واستخرج الكتاب وفتحه فاذا هو محرر باسم سعد لا باسمه فامتلا حقا وأضمر في نفسه كل شر قدر عليه وبعد أن وصلا وسلمما الظرف لصاحبه واتضح ان الامام عين سعدا حاكما جمع سعد أهل النظر والرأي وقرأ عليهم أمر الامام بتعيينه عاملا عليهم فاستبشروا به وشهدوا باصابة رأى الامام موقع الرضاء والقبول منهم فاحسن سعد السيرة وأقام منار العدل جاريا على سنن والده في التعفف وجمع الكلمة وكان له مسجد معروف به يقيم فيه الجمعة والعيدين والأوقات كلها هذا ماكان من أمر سعد وأما نفات فانه ذهب الى قريته وهي لا تتجاوز في البعد عن قنطرة مسير اربع ساعات أو خمس تقريبا وشهر هنالك الطعن في الامام قائلا انه يلبس الطرطور ويخرج الى الصيد ويصلي بالأشبر ويزيد في الحلقة (يعني انه عظيم العمامة كبير الوجه طويل اللحية جدا) الى غير ذلك مما يعده في زعمه طعنا وجهه بالقول بمسائلة المتقدمة التي خالف فيها فخاف سعد من أن يغمر العامة بكلامه فصار يكرر له النصائح وكلما اجتمع به وبخه وهدده وربما لأن له القول اذا خلا به سياسة وتأنيسا له املا في رجوعه ومحافظة على الهيئة الجامعة من الشقاق الا انه لم يجد نفعاً وبلغ من ملاطفة سعد اياه والاحتراس من فتنته ان اشترى دارا مجنب داره وشرع في بنائها ففرح اهل القرية والقرى المجاورة لها بذلك لما شهر به سعد من الاستقامة في احكامه بقنطرة وصار الناس يأتونه لزيارته واعانته بلوازم البناية ولقضاء حوائجهم افواجا افواجا وللعلاقة التي بينه وبين نفات من حيث العشرة صار نفات هو المقدم في مباشرة الامور ساعيا بقدر طاقته في الاعانة بما يلزم من نفسه ومن غيره وكان مؤديا حق الصحة والجوار مجتهدا في العمل بيده اذ كان بناء عظيما له معرفة بطرق البناء فاذا رأى سعد الناس قد اجتمعوا قال لنفات وهو في عمله متى تترك كفرك وضلالك يا نفات خوفا من أن يتوهم الناس انه راض عنه وأنه في ولايته اذ استعمله في البناء وقدمه في أشغاله فيقول نفات مآزها نفسه معاذ الله أن أكفر أو أضل ياشيخ وربما قال له ليس الشتم بعبادة يا شيخ واذا خلا المجلس من نفات قال سعد للحاضرين انما جزاء نفات مني على عمله هذا وخدمته الخبز واللحم لا الشتم والتهديد وما فعلت ذلك الا ليعلم الناس أني غير راض بسيرته فلا يغترون باقواله وفتنته ولما بلغ الامام خبر نفات وانتقاده عليه قال ليات الينا نفات فيوضح لنا ماأنكره منا فان كان حقا قبلناه (والرجوع الى الحق فريضة) وان كان باطلا (فايه) فلما سمع نفات ذلك وعلم بطلان حجته قال ان كلمة (ايه) من السلطان هي القتل عينه فالى اين أذهب وبقي على ذلك والامام لم يأذن فيه بشيء والعمال لم 95

يتجاسروا على معاملته بسوء انتظارا لاذن الامام فيه بما يراه من الحكم الى ان شاع أمره وذاع خبر خلافه وفساد عقيدته فكتب عمال الامام الذين بلغهم خبره اليه ببيان حاله ومسايله التي خاف فيها .

(جواب الامام أفلح رضي الله عنه الى المسلمين في شأن نفات)

ولما كثر ورود اخبار نفات على الامام من عماله أجابهم رحمه الله بهذه الرسالة موجها بها الى عامله على نفزاوة وهي تراها بعيدة عن جبل نفوسة وطن نفات مستقلة عنه وعن قنطرة الا أن العمال لشدة احتراسهم ومحافظتهم كاتبوا كلهم الامام بشأنه حتى لا يكونوا مقصرين في النصح وكأن عامله هذا من المقبولين عنده اكثر من غيره لحسن سيرته ولمكان ابيه عنده اذ كان وزيرا له .

(قال رضي الله عنه)

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم من أفلح بن عبد الوهاب الى مياي بن يوسف يقرأه على من بحضرته ويوجهه الى كل من يرى توجيهه اليه (اما بعد) فالحمد لله الحسن الى اوليائه المنعم عليهم بحسن بلائه معز أهل طاعته وناصر القائمين بحقه فليس من اتبع أمره بمخذول (احمده) على ما أنعم به علينا وأحسن فيه الينا حمدا أبلى به رضائه وأستوجب به المزيد انه قدير انتهى الى الكتاب الذي كتب به اليك (تحية ابن عبيد) فقرأته وفهمت كل ما ذكره لك فيه عن كل خائب جاهل بما هو عليه متحامل على مالا علم له به متخط في أموره خبط عشواء لم يبلغ العلماء فيقتبس منهم ولم يصحب أهل الورع فنحجزه آثارهم عن الهجوم على ما لا علم له به لكنه نشأ وحيدا وأقام متوحشا من العلماء فتقلب في جوانحه الشيطان بنفخاته فأورثه الكبر وعظم عليه الوقوف دون مالا يعلم حتى يعلم فهجم على مالا يحل له فكل شيء خطر على قلبه تكلم به مصيبا كان أو مخطئا وما أصابه من شيء على غير علم فأصابته خطأ اذ تكلم بمالا علم له به وما أصابه من خطأ فهو مخطيء فيه فهو يتردد في الخطأ ان أصاب لم يدر وان أخطأ لم يدر فهو راكب مشكلات يخط خبط عشواء كحاطب ليل لا يدري ما يحطب ولعله يحتطب ما فيه حتفه او حية تأتي على نفسه فعوذ بالله من الفتنة ومن السلوك على منهاج ذلك الرجل لقد كان من مضى قبلكم من المسلمين لا يدعون مثل هذا يدخل مجالسهم ولا يشهد جماعتهم وكان عندهم مقصى ومبعدا مدحورا يهجرونه ولا يجالسونه حتى يرجع الى سنة المسلمين وأنتم محققون باتباع آثار سلفكم والسلوك على منهاجهم وأن تفعلوا بهذا النائه المتخطب ما كان يفعله سلفكم بمن كان قبله لكي يترجر من أراد الله به خيرا وينتبه غيره ممن يخاف عليه الاقتداء به واتباعه ولا تظهر سنن أهل البدع ولا تقوم للشيطان دعوة وأنا مبدىء لكم ما ذكره وراد عليه ضلالتة) ثم شرع في الرد عليه وفي ابطال مسايله التي انتحل فيها الخلاف للمسلمين بحجج واضحة وبراهين قاطعة وهي رسالة طويلة فاطلبها في غير هذا .

ثم ان نفاتا لم ينته عن غيه ولم يتيقظ من ضلاله ولم تؤثر فيه مرشد العلماء وأهل الفضل مع توالي النصائح اليه مشافهة وتحريرا من الامام وغيره ممن له اعتناء بشأن الدين واصلاح الأمة بل ازداد عنادا ورياء فكثرت الكتابات في حقه الى الامام من عماله وغيرهم ممن انتنهم وخصهم بمكاتبتهم واخباره بأحوال الولاة والعمال والرعية في الجهات فاجابهم رضي الله عنه بواسطة مكاتبه بهذا الجواب .

(الرسالة الثانية للامام أفلح الى المسلمين في حق نفات)

(بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم)

من أفلح بن عبد الوهاب الى (بياض في الاصل) أما بعد البسنا الله واياك عافيته وكفانا واياك مهمات الامور برحمته كتبت اليك وأنا ومن قبلي من خاصتي والرعية عامة على احسن حال جرت به عادة الله وتواترت به نعماءه فله الحمد كثيرا والشكر دائما أتاني كتابك بالذي أحب علمه من سلامتك وحسن حالك وتواتر نعم الله عليك واحسانه اليك والى من قبلك من الرعية وأهل الطاعة فسرني بذلك وحمدت الله كثيرا عليه وسألته تمام النعمة علينا وعليكم برحمته انه مجيب وذكرتم أمر نفات وأكثرتم فيه الكتب ووصفتكم عنه اشياء لا يشك احد منكم في أنها بدعة وخلاف لما مضى عليه سلفكم فان يك كما وصفت فما ينبغي لاحد منكم أن يخالجه الشك في أن ذلك ضلال لأن الهدى في أيديكم والحق ما شرعه لكم سلفكم الصالح والائمة المرضيون رضى الله عنهم فمن أتى من بعدهم بما يخالف شريعتهم ويأخذ في غير طريقهم فهو ذو بدعة وكل بدعة ضلال وكل ضلال كفر وكل كفر في النار وانتم على يقين من سنة اسلافكم وقد قلتم في كتابكم (هو غلام حدث غر لاجربة له في الامور فتخاف ان جشمناه السفر والشخص ان تحمله اللجاجة مع اعجاب الرأي والتهيه بالنفس على التماذي فيما يهلك به نفسه) فما وجه ما سألتم من ذلك وهل أنتم على شك من دينكم أو ريبة في امركم السنة في ايديكم واسلافكم الماضون كانوا على مثل حالكم بل كانت لهم عمال في حال كتمانهم وكبار يقومون بكل امر من الحقوق وغيرها في حال الكتمان وليس احد منهم يقول ما حكيتموه عن هذا الغلام فلما حدث منه ما ذكرتموه كان أمره واضحا وهو انه أخذ بخلاف ما مضى عليه سلفه وأحدث مقالة لم يقلها عنهم غيره وانتم على يقين من امركم فما احوجكم الى مجيئه واشخاصه وان كنتم تريدون ان تعلموا ما نحن عليه فنحن على ما مضى عليه سلفنا ومقرون لما حكيتموه عنه ان قاله فقوموا عليه فان رجع عن مقالته ونزع عن بدعته فمقبول منه رجوعه ومرحبا بالتائب حيث كان وممن كان وأين كان وان ابي الا التماذي فانتم تعلمون السيرة فيمن ابتدع في دين الله وشق عصا الاسلام وقال بخلاف الحق فانه محقوق بأن يهجر ويقصى ويبعد ونفات مثل واحد من الناس لا أخصه بشيء دون غيره والسيرة فيه وفي غيره واحدة والسنة قائمة وحكم الله لا يزول ولا يتبدل فأنا نشهد الله على من كان من أهل هذه الدعوة وعمالنا وقوادنا وأهل العلم من أصحابنا ومن التف اليهم من رعيتنا ان لا يسمع احدا يبتدع في دين الله او يسلك طريقة غير طريقة اصحابنا الماضين من أسلافنا الا ويكون قد غير ذلك وأطفأه واستتاب من أظهره فان لم يتب خلعه فهذه منى عزيزة واجبة وأمر لازم وفرض محرم أن يتعدى وأن يقال بخلافه فمن قرىء عليه كتابي هذا فليسمع وليتنبه الى ما أمرت به فان من انتهى اليه كتابي هذا في حرج ان قصر عما أمرت به ومن عاب احدا من عمالنا بخصلة من الخصال أو أنكر عليه شيئا فليرفع ذلك الينا فنكون نحن الذين يغيرونه ان كان مما يغير وليس للرعية الوثوب على السلطان حتى ترفع ذلك الينا لأن الوثوب على السلطان والاقتفاء للخصال التي نحن اولى بالنظر فيها خطأ من الرعية وضرب من ضروب السائبة لأن هذا وضربه مما لا يعلم باطنه الا بالبحث وقد يظن الظان في المرفاه خطأ وهو عدل من حيث لا يعلم ولم يظلم من دعاكم الى نفسه وكلفكم بأن ترفعوا اموركم اليه لأن في ذلك شفقة منا عليكم أن تملكوا من حيث لا تعلمون والله ولي عصمتنا وتوفيقنا وأياكم وهو المستعان لاشريك له وقد كتبت اليك جواب مسائلك فعليك بتقوى الله والعمل بطاعته وحسن النظر لنفسك فانما ان سلمت لك فقد نجوت وفزت فوزا عظيما ولاتدع الكتابة الي بحالك وسلامتك فانك تسرني بذلك والسلام اهـ ولما بلغ نفات هذه المكاتبات في حقه وأمر الامام عماله

بتحقيق ما شهر عنه واثباته ثم اظهار البراءة منه ونفيه وابعاده ان لم يرجع بعد استتابته ضاقت به الارض وتوقع الهلاك فكتب الى الامام كتابا (لم نعثر عليه) يستفهم فيه عن موجب المر بالبراءة منه ويشتمل على كلام حمل الامام رحمه الله على مكاتبتة برسالة لا بسملة فيها ولا سلام اشارة منه رضي الله عنه الى البراء منه وعدم الرضاء عنه .

(الرسالة الثالثة للامام افلح رحمه الله ارسلها الى نفات)

(من افلح بن عبد الوهاب) الى نفات بن نصر (أما بعد) فالحمد لله المعتمد علينا والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ولا يهتدى مهتدي الا بعونه وتوفيقه فله المنة علينا ولا منة لنا عليه وهو المحسن الينا اذ هادانا لدينه وجعلنا خلفا من بعد اسلافنا الصالحين واثمتنا المهتدين الذين في اتباعهم نرجو الهدى وفي مخالفتهم نخشى الهلكة ولن يهتدى من خالف العدل ولن ينجو من ابتدع غير الحق لان تلك البدعة ضلالة وكل ضلالة كفر وكل كفر في النار . وقد كتبت اليك غير كتاب انصح لك فيه وادعوك الى رشدك وفي كل ذلك لا يبلغني من عمالنا فيك الا ما أكره ولا أراضاه لدين ولا دنيا حتى حررت كتابا منشورا الى عمالنا أمرتهم فيه بخلع كل من خالف سيرة المسلمين وابتدع غير طريقهم وسار بغير سيرتهم وبنفية وهجره واقصائه فكتبت الى كتابا كأنك تسخط ذلك اتري اني اوازر من ابتدع في ديننا (كلام) ما كنت بالذي يفعل ذلك ولا اوازر من يسعى في خلافنا ما كنا على الهدى .

ثم قلت انا أمرنا في كتابنا بالبراءة منك فان كنت كما كتب به الينا عمالنا فأنت محقوق بالبراءة ومقصى من جماعتنا لاننا ما كتبنا كتابنا ذلك الا على كل من ابتدع في ديننا خلاف أسلافنا وزعم أن عمالنا أساقفة وانهم لا طاعة لهم في حال كتبناهم فهو محقوق بالبراءة ومقصى من جماعة المسلمين فان تكن انت منهم فأنت الذي أبحث لنا البراءة منك وأحللت بنفسك ما لا بد لنا أن نفعله بك وبغيرك وان لم تكن كذلك فاطهر الانتفاء من ذلك وكذب عن نفسك ما قيل عنك لتكون عندنا بالحالة التي تستحقها وتستوجبها .

وأما قولك (تب مما كتبت به) فهو منك عبث اذ لم أشاهدك ولم أشاهد موافقتك حتى يجب لك على أصل ولاية ولم يكن لك عندي تقدم في الموافقة وانما رفع الينا عنك ما رفعه أهل الثقة عندنا فأمرنا عمالنا ان يسيروا في كل من ابتدع بسيرة المسلمين وكتبنا اليهم بذلك فجعلت تكتب الينا فيما ليس لك به كتاب فعلام تتجاهل في الأمور فان كانت غايتك انما هي ان نكتب اليك ونحجب وتكتب الينا ونحجب فهذه غاية قصيرة والسكوت عنك أهنا وأولى بنا ونحن بمأمنينا به أحق من مجاوبة أهل التكلف ومن ليس له غية الا أن يقال فيه كتب فلان وقال فلان وفلان يفعل ويفعل فلان وان كانت غايتك التصحيح فانف عن نفسك مارقي عليك وكن من جماعتنا وموافقي اسلافنا فاذا تبينت منك الموافقة والانتفاء مما رقي عليك كان ذلك هو الذي نحبه منك ومن غيرك وليس لك عندي غير هذا وان يكن حقا مارقي عليك وما قيل فيك من مخالفة اصحابنا فأنت وما رضيت به لنفسك واني غير كاتب اليك كتابا بعد هذا الا ان انتهى الينا منك ما نحبه فنزلك من انفسنا بحيث تحب والله المستعان ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم اهـ .

(هروب نفات الى المشرق واستنساخه ديوان الامام جابر بن زيد رحمه الله من مكتبة الخليفة ببغداد)

فلما قرأ نفات هذا الكتاب وفهم اشارات الامام فيه وادرك منتهى ما ترمى اليه آخر عبارة منه وهي 98

قوله (واني غير كاتب الليك كتابا بعد هذا) علم أن دور الكتابة واللين قد انتهى وانسد بابه ولم يبق الا دور الشدة والعنف الذي فهمه قبل ذلك من قول الامام (ايه) فانتهاز الفرصة وجمع ما عنده من المال نقدا تحته وكان غنيا متريا وهرب طالبا للنجاة بنفسه الى أن تجاوز حد نفوذ الامام وهو (أرض سرت) وضل سائرا نحو الشرق حتى اتى مدينة بغداد وهي اذ ذاك مقر خلافة بني العباس بالمشرق وأقام فيها ماشاء الله ان يقيمه مترددا على صديق له بغدادى في السوق يتانس اليه ويمضي جل أوقات فراغه عنده الى أن طرأت على السلطان مسئلة علمية أشكل عليه الأمر فيها وعجز علماؤه عن حلها فأمر أن ينادى في الاسواق بأن كل من أجاب عنها بجواب مقنع له ما يسأله من السلطان وبينما نفات عند صاحبه اذ سمع ذلك النداء فقال لصاحبه اني سأذهب الى السلطان وأسأله بيان مسئلته لأجيبه عنها فقال له الزم نفسك فان الحال ليس بسهل وكأني بك وقد عجزت عن اداء ما تحملت به فأمر بقطع رأسك وليس هذا بميدان يجول فيه كل أحد فاصر نفات على كلامه ولما مر المنادي أمام الدكان قال له صاحبه ان هذا المغربي ذكر انه يقدر على جواب السلطان فلم يك الا كلمح البصر حتى اختطفه الشرطي وذهب به الى أن مثل بين يدي السلطان فقربه اليه وأدناه وآنسه وسأله عن احواله ونسبه ومسقط رأسه فأجابه عن كل ذلك بأوجز بيان ثم رأى أن يمهّد لنفسه عذرا حتى يكون مطمئنا آمنا من الهلاك ان هفا هفوة في كلامه عالما بأن آفة الانسان اللسان فقال له اعلم اني رجل بربري اللغة والطبع مغربي المشرب لم أتخلق بالآداب الشرقية حتى أقوم بما يجب علي من حسن القول امام مقامك العالي فأطلب الاذن في التكلم بما يخطر ببالي مع العفو عما يصدر مني من الخطا المغاير لسنن الأدب وبعد ان تلفظ له بالاذن كما طلب ساله عن مسئلته فأجابه في الحال بجواب كاف شاف اقنعه كل اقناع ولا عجاب الخليفة به صار يكرر له السؤال عن معضلات المسائل وهو يجيب وكان المجلس حافلا بالعلماء والفقهاء والأدباء والأمراء وأولى الوجاهة من أكابر بغداد اذ كانت للمسألة شهرة عظيمة ولها من قبل ذلك في الدوائر والجالس ذكر شائع وطفق اولئك العلماء يسألونه سؤال بعد سؤال وهو يجيبهم الى أن أعياهم الأمر وملوا الجلوس ولحق الخليفة من العجب ما أبهر عقله وحير فكره فنظر اليه وهو على هيئته امغربية فيما يظهر من قرائن الاحوال وقال معرضا به (نعم العسل في ظرف سوء) ففطن لها نفات وقال في الحال معرضا بديوان جابر المتقدم ذكره وهو موجود بخزانة (مكتبة) الخليفة (نعم الرجل في قبر سوء) ففطن الخليفة ايضا لمراده واشتد به الحق وكاد يأمر بالفتك به لولا ما صدر منه من الاذن في التكلم والعفو عن الخطأ ثم قال له أسأل حاجتك لنوافيك بها جزاء لعملك هذا فقال له حاجتي هي صدور امرك بالاذن لي في نسخ ديوان جابر بن زيد الموجود في مكتبتك فما تواني السلطان في اذنه بذلك وقام نفات فرحا بما ناله من الاقبال والفوز وكان الحاضرون من وزراء السلطان وخواصه قد أدركهم من الجزع ما كدر راحتهم اذ رأوا السلطان مسائرا لنفات في امر الديوان فقالوا له بعد خروج نفات كيف يصح لك ياأمير المؤمنين أن تأذن في نسخ الديوان وهو معدود من مهمات خزانتك وغرائبها حيث أنه لا يوجد في غيرها قط وهذا مما لا نرضاه منك فتنبه اذ ذاك وندم وقال اني قد وعدته ولا يمكن لي الرجوع في كلامي فانظروا لي وجهها مناسبا لا يحط بشرفي وأمنعه به من ذلك فقال له أحد الوزراء اذا رجع اليك فاعلمه بأنك موف له بالوعد الا أن مدة النسخ لا يمكن أن تتجاوز يوما وليلة فانه اذا سمع منك ذلك ترك الطلب لأن هذا القدر من الزمن لا يغنيه شيئا فاستصوب السلطان هذا الرأي وأرسل في الحال الى نفات يعلمه بذلك ففطن نفات لهذه المكيدة وأدرك أن المسئلة دبرت على أثر خروجه من عند السلطان فرضي بالشرط وذهب فاشترى ما يكفيه بالتقريب مدادا وأقلاما ورقا وصنع أحواضا مخصصة

بالجبر مصففة على هيئة يتمكن بها من الكتابة كل ناسخ .

ثم أمر مناديه فنأدى في المدينة بأن كل من يحضر الى المحل الفلاني في يوم كذا ويكتب طول يومه فله دينار وللذي يملي عليه نصف دينار وغير خفي ما كان في ذلك العصر العامر بالأدب والعلم من الكتاب والقراء فاجتمع له خلق لا يحصى وشرعوا في الكتابة الى الليل وقبل انتهاء وقت هؤلاء نادى المنادي ايضا بأن من يكتب ليلته هذه فله ديناران ولمن يملي عليه دينار فبقي من الأولين من بقي وخلف من ذهب غيره واستمروا في الكتابة وما طلعت الشمس حتى تم له نسخ تسعة أجزاء وبقي له جزؤ واحد منعه السلطان من اتمامه لانتهاء الوقت المحدد المأذون به فاستأذن عليه ودخل فطلب منه أن يتصفح مرة واحدة ويرده فسلمه له وبعد أن أتمه سردا قال له قد حفظته وأن أردت أن أقرأه عليك لتعلم صدقي فعلت فتعجب الخليفة من ذلك وأمره بقراءته فقرأه الى آخره بحيث لم يترك منه شيئاً قط .

ثم أن الخليفة جمع وزراءه وقال لهم قد أعيانا أمر هذا الرجل وما قدرنا له على حيلة وهما قد أتم الكتاب وأراد السفر ولا بد لنا من رأي نتوصل به الى سلبه منه فأشار كل برأيه ثم قال هو اني سأسأله عند خروجه الى سفره عن اسئلة فان عجز عنها سلبته منه بوسيلة انه ليس له بأهل أو قتلته وان أجاب فأسأله انتم واحدا بعد واحد حتى يعجز فنفعل به ما ذكرناه فاتفقوا على ذلك وافترقوا ولما بلغهم أن نفاتا برز برحله للسفر حضروا ومعهم الخليفة بصورة أنهم يودعونهم وابتدأوه بالاسئلة المتتابعة زمنا طويلا حتى تنبه الى أنهم ما فعلوا ذلك الا لقصد ارجاع الديوان منه ولما رجعوا ولم يقدره له على شيء اجمعوا على أن يرسلوا وراعه من ينتزع منه فتحذر هو وحده عن الطريق المعروف فلم يدركوا له أثرا وتوجه الى مكة ثم منها الى طرابلس ولما بلغها سال عن الاحوال فوجدوها قد تغيرت ووجد دولة الامام في قوة عظيمة ونفوذ كامل واذا علم انه لا مطمع له في شيء مما كان يقصده من الخروج عن الطاعة واستغفال العامة ورآى ان السكون أسلم وأصلح له الا ان الشيطان غره وضاعف حسده وسولت له نفسه ان يعدم ذلك الديوان حتى لا ينتفع به احد بعده ولعله خاف ان يطلبه الامام لينسخوا منه نسخة للمكتبة المشهورة بخزانة نفوسة الجامعة اذ ذاك للآلاف المؤلفة من الكتب بمدينة (سروس) في جبل نفوسة او لمكتبة تيهرت فحفر له في الارض ودفنه وأخلد الى السكون الى أن مات .

وقد ذكر هذه الحكاية ابو زكرياء رحمه الله وغيره ولا غرابة فيما ذكره من حفظ نفات فان ما يحكي عن حفظ الشيخ السيوطي وغيره لا يعد عن هذا وانما الغرابة في نسخ الديوان في تلك المدة القصيرة مع قولهم انه كان وقر عشرة جمال وانظر على هذا كيف تأتي لجابر رحمه الله تأليفه ونسخه مع اشتغاله بأمور المسلمين الا ان يقال ان الخط في ذلك الوقت غليظ جدا ولا سبك فيه كما نشاهده في الكتب العتيقة وان المكتوب فيه جلد لا كاغد ولو كتب الآن لكان في أقل من ذلك بكثير وقد تعرض صاحب كشف الظنون لذكر هذا الديوان ولم يقل فيه شيئا والله اعلم .

والذي ذكره بعض أصحابنا فيما رأيت ان نفاتا تاب ورجع عن مسائله التي خالف فيها وهو كلام قريب اذ لم يرو احد انه ذكر الامام بسوء او تكلف لاثارة فتنة او سعي في فساد بعد رجوعه من المشرق بل كان الامام بعد ذلك نافذ الامر ظاهر السيطرة في نفوسة وغيرها والله اعلم بالحقائق .

(امتحان الشراة من المسلمين للامام افلح رحمه الله بتولية العلامة محكم القضاء)

(الشراة) في اصطلاحهم تقريبا لفظ يطلق ويراد به جماعة تتركب من اربعين رجلا فما فوق ذلك اشتروا آخرتهم بدينياهم بمعنى أنهم تخلوا عن الدنيا وعاهدوا الله على انكار المنكر والأمر بالمعروف بدون مبالاة ولا خوف من الموت ولو أدى بهم ذلك الى القتال فهم دائما يمتحنون الأئمة والعمال بما يستدلون به على سرائرهم وخفايا مقاصدهم واعمالهم ويحمدون سيرتهم او يذموها وعلى ذلك يكون مدار اقوال الناس فيهم ولذلك تجعل الأئمة والحكام مرآشدهم نصب اعينهم لعلم الجميع باخلاصهم العمل لله في اصلاح الامة واقامة الدين وقد امتحنوا هذا الامام ايضا بما جعله في ارفع درجات الرضاء والقبول عند الخاصة والعامة من المسلمين وقد ذكر ذلك ابن الصغير المالكي في تاريخه مفصلا فخذ ايها القارئ منه بعبارة .

(قال) وكان أول ما امتحنته به الشراة أن قاضيا من قضاة أبيه مات في أيامه فاجتمعوا اليه وسألوه ان يولي القضاء من استحق ذلك عنده فقال لهم اجمعوا جمعكم وقدموا خيركم ثم اعلموني به اجبره لكم وأعضده على ما يكون فيه الصلاح لكم فقبلوا أمرهم فلم يرتضوا احدا منهم وأجمع رأيهم على محكم الهواري الساكن بجبل أوراس (صاحب التفسير المشهور) فأتوا الى افلح بن عبد الوهاب وقالوا له قد تدافعنا هذا فيما بيننا فلم نرض احدا منا وقد رضينا جميعا بمحكم الهواري الساكن بجبل اوراس لخاصتنا وعامتنا وديننا ولكنه هو رجل نشأ في بادية لا يعرف لذي القدر قدره ولا لذي الشرف شرفه وان كان ليس منكم احد يجب أن يظلم ولا يظلم ولكن تحبون ان يجري فيكم الحقوق على وجهها بلا نقص لاعراضكم ولا امتهان لأنفسكم قالوا فانا لانرضى لقضائنا احدا غيره فقال الذي حدثني أخبرني ابي أن أشد الناس بولاية محكم على افلح أخوه ابو العباس قال افلح اما اذا أبيتم غيره بعد نصحي لكم فابعثوا رسلكم اليه على بركة الله قال فخرجت الرسل بكتاب من افلح وكتاب من الشراة في داخل كل كتاب منهما بعد اثبات اسم الله العظيم (أما بعد) فانه قد نزل بالمسلمين أمر لاغنى بهم عن حضورك وهم منتظرون لقدمك ولا يسعك التخلف على ما فيه صلاح المسلمين فلما ورد كتاب القوم ورسلمهم على محكم عمد الى دابة له وركبها واخذ كسائه وعصاه ثم توجه نحو القوم حتى أتى البلد وقصد المسجد الجامع فترله وابتدر اليه أصحابه فأحاطوا به وقالوا ان فلانا ابن فلان القاضي توفي وقد أجمع رأي المسلمين ورأي الامام عليك (واعلم) انك متى تخلفت عما دعوناك اليه كنت المسؤول عن كل دم يراق بغير حله وفرج يوطأ بغير وجهه فاتق الله ولا تخالف الامام والمسلمين فيما دعوناك اليه وانك ان خالفت اجبرناك وان اطعنا شكرناك فقال لهم ان الحق مر امر من شرب الدواء الا كرها وانتم مترفهيون ابناء نعم وغيري احب اليكم مني نصحتكم فاقبلوا نصيحتي وذكروا كلاما يطول ثم قال اما اذا أبيتم الا هذا فارجعوا الى امامكم فاعلموه بما أعلمتكم وشاوروه في امورك قالوا لقد فعلنا قال على بركة الله فأنزلوه في الدار المعروفة بدار القضاء واشتروا له خادما صفراء تخدمه واجروا عليه من بيت المال قوته وسار فيهم السيرة التي املوها منه ورجوها عنده فبينما هو على ذلك من أمره اذ تنازع ابو العباس اخو افلح المشير له والمرغب فيه وصهر لأفلح في أرض فارتفعا الى افلح ابو العباس اخوه والآخر صهره فقال لهما افلح كلاكما يعز علي ولكن ارتفعا الى محكم وكان ابو العباس يجب ذلك لتقدمه لحكم واثاره اياه وكان الآخر يكره ذلك ويجب ان لو كان امرهما عند افلح فاعنم ابو العباس كلام افلح وبادر الى بغلة له شهباء هملاجة فركبها وكان صاحبه على رمكة بطيئة المشي فأتى ابو العباس محكما فوجده خاليا في سقيفة داره ولم ير مع ابي العباس احدا فأجلسه محكم الى جنبه واقبل

عليه يحدّثه وخصمه متخلف على دابته فيبينما هما كذلك اذ اقبل خصمه حتى نزل على باب دار محكم فلما رأى ابو العباس خصمه قد نزل نادى باسم جارية محكم فخرجت اليه فاستسقاها ماء ليرى ابو العباس خصمه دالته على القاضي ليردعه بذلك فلما صار القدح الى الجارية قال الخصم في نفسه الى من أحاكم خصمي جالس الى جنب القاضي ويستقي الماء من داره وانا ملقى على باب الدار لا يلتفت الي ولا ينظر نحوي قال ثم حانت منه النفثة فاذا بالرجل جالس فقال له ما بالك يا هذا وما قصتك فقال له جئت خصما لأبي العباس فوجدته جالسا الى جنبك فجلست في موضعي هذا قال فغضب محكم على ابي العباس فقال يا ابا العباس تأتي مع خصمك فتجلس الى جنبي دونه وتستقي الماء من داري ويبد جاري (يا غلام) خذ بيد ابي العباس فاقعده مقعد خصمه ولا يبرح وخذ بيد خصمه فاقعده الى جنبي ومر الجارية فلتسقه ماء ففعل الغلام ماأمره به فخرج ابو العباس مغاضبا قد شق جيبه حتى دخل على اخيه (الامام) أفلح فلما رآه قال له مالك وماعراك قال له نزل بي من هذا الهواري الجافي ما لم يزل بأحد فقال وماذا كفقص عليه القصة من أولها الى آخرها فلما فرغ من كلامه قال له ياأبا العباس قد كنت أعلمك بهذا من قبل والصواب ما فعل والحق اولى ان يؤثر ولو فعل غير هذا لكان مدهانا فاتصل ذلك من كلامه بوجوه الاباضية فأعجبهم وسروا به اهـ بالحرف الواحد ومما امتحنه به وفد نفوسة أنهم نزلوا عنده اضيافا ولما حضر الطعام وقف على رعوسهم بالقنديل وهم يأكلون فمد له واحد منهم لقمة مما بين ايديهم باتفاق مع رفقاءه ولما كانت احدى يديه رحمه الله مشغولة بالقنديل ولم يكن من الادب قبوله اللقمة بيد واحدة وضع القنديل فوق ركبته حتى لا يختفي عنهم نوره وتلقى اللقمة بيديه ولم يتكبر فشكروه على ذلك رحمهم الله اجمعين .

ولم يزل رضي الله عنه يوالي الارشاد ويتابع كتب النصائح الى عماله في الجهات والى الجموع في البلاد تارة باللين والسياسة استمالة للنفوس الشاردة وتأميناً للقلوب الوجلة وتارة بعبارات الشدة وجلل الارهاب والفاظ التهديد قهرا لدوي المقاصد السيئة وقطعا لآمال اولى الالباب الفاسدة والنيات الخبيثة عادة كل ملك حكيم مدبر جامع للاضداد من الشدة واللين والغضب والرضاء والجود والبخل وغير ذلك ليصرف كل حيث يجب والا كان عاجزا عن ضبط ملكه وقهر اعدائه فليتبع من رام معرفة قدر علو همم الكمل من الرجال غصون رسالة هذا الامام القائم بالعدل الشاهر للحق التي اتحف بها عامة رعيته وخاصتهم نصيحة لله وهدية وتليت عليهم بواسطة عماله في المجالس فكان لها في النفوس وقع عظيم وفي صفحات الصدور وتأثير جسيم لما اشتملت عليه من النصيح والترغيب والترهيب وهاكها بمعانيها الفائقة والفاظها الرائقة .

(النصيحة العامة من الامام افلح رحمه الله الى كل من كان تحت لوائه من المسلمين)

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم (من افلح بن عبد الوهاب) الى من بلغه كتابنا هذا من المسلمين (أما بعد) فالحمد لله الذي هدانا للاسلام) واكرمنا بمحمد عليه السلام وابقانا بعد تناسخ الامم حتى اخرجنا في الامة المكرمة التي جعلها امة وسطا شاهدة لنبينا بالتبليغ ومصدقة لجميع الانبياء وشاهدة على جميع الامم بالبلاغ من الانبياء عليهم السلام اليهم منا من الله ورحمة ارسل الينا نبينا محمد (ص) بالهدى ووعدده بالنصر على الاعداء وضمن له الفلج والغلبة ووعدده بالعصمة وقال له عو زجل (ياأيها الرسول بلغ ما انزل اليك من ربك وان لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس) فأدى عليه السلام ماأمره الله به ونصح

لأمتة ودعا الى سبيل ربه وجاهد عدوه وغلظ على الكفار ولان للمؤمنين فكان لهم كما وصفه الله عز 102

وجل رؤفا رحيمًا حتى انقضت مدته وفنيت أيامه واختار له ربه ما عنده فقبضه محمود السعي مشكور العمل (ص) فلم تبقى خصلة من خصال الخير الدالة على الرشيد الداعية الى النجاة الا ودعا اليها وسنها او فرضها او أوجبها ولم تبقى خصلة من خصال الشر الداعية الى الهلكة الا وزجر عنها وأمر باجتنابها رحمة من الله لعباده فله الحمد على ذلك كثيرا ثم أمر تعالى بالجهاد في سبيله والقيام بحقه والاخذ بأمره والانتفاء عما نهي عنه وفرض الامر بالمعروف والنهي عن المنكر واغاثة الملهوف والقيام مع المظلوم والقمع للظالمين لكي لا تقوم للشيطان دعوة ولا تثبت لأهل حربه قدم ولا ينفذ لهم حكم فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عماد الدين واعزازه وهو الجهاد وتأدية الحقوق الواجبة لله تعالى فعليكم معشر المسلمين بتقوى الله العظيم والقيام له بحقه فيما وافق هواكم أو خالفه وتقربوا الى الله بالقيام بطاعته وطلب مرضاته لتنالوا بذلك ما وعد به من جزيل الثواب وكرم المآب وعليكم بتقوى الله واتباع آثار سلفكم فقد سنوا لكم الهدى وأوضحوا لكم طريق الحق وحملوكم على المنهاج ففي اتباعهم النجاة وفي خلافهم تحشى الهلكة فاتبعوا ولا تبتدعوا واجتهدوا في ادراك ما أدركوه وإياكم والبدع فان البدع هلكة وسوء طريقة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة كفر وكل كفر في النار فمن ترك آثار سلفكم الصالحين واتبع غير سبيلهم فقد أحل بنفسه الهلكة ووجب عليكم القيام عليه والبراءة منه وخلعه مما هو عليه حتى لا يجد عندكم هودة ولا ادهانا وحتى لا تقوم لظالم حجة ولا تطاع له مقالة فانكم متى لم يجد ظلم فيكم ولا عندكم مقاما عززتم وعز دينكم وكان لكم ذلك عند الله فوزا عظيما (واعلموا) ان الله قد أوجب عليكم ان تقوموا لله بالعدل في عبادته وبلاده ولا تأخذكم في الله لومة لائم فليس لاحد منكم عذر ولا حجة يحتج بها على الله فقد اوضح لكم المنهاج وانا لكم طريقة الحق وجعل لكل زمان رجلا تسند اليهم الأمور ويأمرون فيطاع امرهم ويدعون فيجاب نداؤهم وانتم رجال زمانكم والكبراء من أهل موضعكم فأعرضوا اعمالكم على اعمال من تقدم قبلكم من سلفكم وأهل الزمان الاول من اوائلكم فان كانت اعمالكم موافقة لاعمالهم فالله على ذلك محمود وعليكم الثبوت والازدياد من كل خير وان كانت اعمالكم قد قصرت عن اعمالهم وحطمكم الذنوب عن البلوغ الى درجاتهم فاحسنوا محاسبة انفسكم وانتهبوا من نومة الغفلة وخذوا لانفسكم من انفسكم وانتم سالمون من قبل ان تؤخذوا ويؤخذ منكم بالكظم وتصيروا الى حالة لا يستغيث فيها مستغيث ولا تقبل من نفس فدية فاتقوا الله حق تقاته وتواصوا بالبر والتقوى ومروا بالمعرف المفترض عليكم وانها عن المنكر الذي قد نهيت عنه وسارعوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والارض اعدت للمتقين فانكم لن تسارعوا اليها بالأمان والتوكل وانما تسارعون اليها بالعمل الصالح والمسارة الى مرضاة ربكم ولن تنالوا ذلك الا بعون من الله وتوفيقه .

ثم أذركم أهل البدع الذين لم يعرفوا حقا فيتبعوه ولن يلقوا أهل العلم فيقتبسوا منهم الدين عاشوا مع أهل الجهل فخلابهم الشيطان ونفخ في قلوبهم الكبر وأورثهم العجب فاستحيوا أن يقولوا فيما لا يعلمون لا نعلم فأفتوا برأيهم أقواما جهلة لا يعرفون ما يقال لهم قلدوهم دينهم والزموا انفسهم الرأي فاتبعوهم على بدعتهم فضلوا واضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل فويلهم ماذا سوغت لهم انفسهم وما الذي ظنوه واملوه اذ تركوا آثار من مضى من السلف الصالح هل يخافون الهلكة في اتباع آثارهم او يرجون النجاة في خلاف سبيلهم كلا ولكنهم اتبعوا اهواءهم بغير حق فالزمتهم فتنة الجهل وانتفخت صدورهم من نفخة الكبر لم يحاسبوا انفسهم فيكشف لهم خطأهم (فاحذروا) معشر المسلمين من كانت هذه صفته ومن حل بهذه المترلة ورضيها لنفسه واعلموا ان من 103

كان كهذا فقد صار من حزب الشيطان واوليائه لان الشيطان لم يضل ولم يهلك الا من باب الكبر امره الله أن يسجد لآدم (ص) فتكبر عليه وقال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين فويله ماذا عليه من آدم اذ خلقه الله من طين لو سجد له كما أمره الله تعظيما لله لا لآدم لكنه تكبر فهلك وعاند فكفر وغوى فضل وأصر فأهلك نفسه ولم يضر ذلك آدم فهكذا هؤلاء المبتدعون الراغبون عن آثار سلفكم واتباع منهاجكم والسلوك على طريقتكم لم يضرُوا الا أنفسهم ولم يحبطوا الا على ظهورهم ولم ينقصوا الا حظهم ولم يذهبوا الا نصيبهم فأما انتم فعلى بصيرتكم ان تجنبتم طريقة المبتدعين وخالفتم سنة الظالمين فاتقوا الله حق تقاته ولا تموتن الا وأنتم مسلمون واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم واحسانه اليكم وارغبوا اليه في التوفيق والعصمة واحذروا ما حذركم منه من اليم عقابه وارغبوا فيما رغبكم فيه من جزيل ثوابه واذكروا ما نهاكم عنه وما وصفه لكم عن المبتدعين قبلكم ومن أضل من الناس فيما مضى قال عز من قائل (ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءكم البينات واولئك لهم عذاب عظيم) لعمرى ما تفرقوا واختلفوا الا ببدعة ابتدعوها وضلالة احدثوها وفتنة رماهم الشيطان بها فنفخ في قلوبهم الكبر وأورثهم العجب فحملهم على ترك المنهاج الذي مضى عليه صالح سلفهم وزين لهم بدعتهم وصيرهم بعد الهدى ضلالا وبعد الايمان كفارا فقال عز وجل وفيهم (أكفرتم بعد ايمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون) فسماهم كفارا بعد الايمان بما احدثوه وابتدعوه اذ تركوا ما شرع لهم من الدين وقال عز من قائل (وأما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون) فمدحهم اذ ثبتوا على دينه واتبعوا امره وسلكوا على منهاج اوائلهم فعليكم معشر المسلمين باتباع الآثار والعمل بما عمل به اسلافكم المتقدمون قبلكم فقد سنوا لكم الهدى ففي اتباعهم كل رشد وفي مخالفتهم كل غي والرشد خير من الغي والهدى خير من الضلالة والجنة خير من النار ولن يستوي عند الله من عمل بطاعته وامره ومن عمل بمعاصيه وركب سخطه ألم تسمعه يقول عز وجل (ام حسب الذين اجترحوا السيئات ان نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون) (هذا) وقد بالغت اليكم في النصيحة وشرحت لكم الموعظة ورضيت لكم بما رضيت به لنفسي ونهيتكم عما نهى عنه نفسي نصيحة لله واجتهادا في طلب رضائه والله اسأل ان يوفقنا وياكم لطاعته والقيام بحقه برحمته انه قدير والسلام عليكم ورحمة الله اهـ

فأمل ايها القارئ حفظك الله في هذه المواعظ البالغة والحكم النافعة التي ما صادفت قلبا قاسيا الا ولان ولا طبعاً جامدا الا وهان فهي لعمر الحق أكسير الهداية والتوفيق ونبراس النهج الحقيق منجية الغريق ودليل الحائر الى اقوم طريق وهدية الصديق الى الصديق هكذا والله شأن أئمة الاسلام وهكذا خلفاء الله على الأنام وما سواهم ممن اطنبوا فيهم الكلام وسبكوا في وصفهم النثر والنظام الا أوهام في أوهام وسراب كأضغاث أحلام .

(عمال هذا الامام رضي الله عنه)

ومن ولاته وعماله المشهورين العلامة ابو عبيدة واليه على جبل نفوسة والعلامة مياي بن وزيره يوسف عامله على نفراوة ومايلها والعلامة سعد ابن ابي يونس عامله على مدينة تيجي والعلامة العباس بن ايوب واليه على جبل نفوسة بعد ابي عبيدة والظاهر ان هذا بقي الى آخر دولته او توفي قبله بقليل اذ لم نعثر قط على مكتابة تدل على شيء من ذلك ولم نقف على من ولي الجبل بعد العباس وقبل ابنه أفلح الا ماذكروه من ولاية العلامة ابي ذر أبان رحمة الله ولكن مدته كانت قصيرة فاما أن تكون في آخر دولة هذا الامام واما أن تكون في صدر امامة¹⁰⁴

ابي بكر او محمد ولكونها في مدة هذا أقرب على ماهو المتبادر نتكلم عليها هاهنا فنقول .

(ولاية العلامة ابي ذر أبان رحمه الله على جبل نفوسة)

ولما توفي العباس بن ايوب رحمه الله بعد أن أطاع الجبل كله ومايليه وانقطعت الفتن كتب المسلمون الى الامام في ذلك فولى عليهم العلامة الزاهد ابا ذر ابان بن وسيم النفوسي من بلدة (ويغو) المذكورة سابقا وكان عفيف النفس لا تعلق له بالدنيا ولما كلف بهذا الأمر استثقل حمله ولم يجد مسلكا للتخلص منه فتوجه الى الله تعالى وسأله أن يقصر مدته وأن لا تتجاوز سبعة أيام فان مضت فلا تتجاوز سبعة أشهر فان مضت فلا تتجاوز سبعة أعوام هكذا ذكر الشماخي رحمه الله وقال كان مستجاب الدعاء فلم تصل مدته سبعة أشهر ولم يذكر هو ولا غيره سبب انفصاله ولعله توفي والا فمثله لا يعزل ولا يقبل منه التسليم ان سلم لما كان عليه من التقوى والعلم والمشهور عنه كما في اليسير انه اخذ العلم بعد أن كبر والحامل له على طلبه هو أنه أصابه مرض لازم به الفراش وكان معه في بيته اخوه ابو عبد الله مريضا ايضا فاذا جاء الناس لزيارة ابي عبد الله مروا على أبان مرورا ثم يقعدون بحسب اخيه يتحدثون معه ويؤنسونه بالكلام فاذا قال له احد وهو مار عليه كيف حالك يا أبان قال ان عاش ابان جعل للدنيا جزاءها ان شاء الله وذلك لما يراه من تعظيم الناس لأخيه واستهانتهم به لجهله ولما شفي من مرضه اجتهد في طلب العلم عند العلامة ابي خليل الدركي حتى صار علامة زمانه فقال له شيخه ابو خليل افت يا أبان للناس بالرخص فان لكل زمان نذيرا وانت نذير زمانك وكان يقول ادركت الناس الذين كانت أحاديثهم ذكر الله وزيارتهم في اله ومعانقتهم بالمودة والصحبة والمحبة وبقيت حتى صحبت ناسا احاديثهم الدنيا وزيارتهم الحوائج ومعانقتهم التناطح وله رحمه الله ذكر كثير في كتاب السير واقوال مشهورة في كتب المذهب والله أعلم .

(وفاة هذا الامام وعدد مدته واولاده رحم الله الجميع)

وفي آخر دولته رحمه الله استأذنه ابنه ابو اليقظان محمد في الحج فأذن له وذهب وبينما هو يسعى في الحرم الشريف اذ أحاطت به رسل بني العباس واخذ محفوظا تحت المراقبة الى بغداد واودع في السجن مع اخي الخليفة العباسي وستأتي القصة مشروحة ان شاء الله عند الكلام عليه وكل آت قريب فبلغ الخبر الى الامام فاعتم واغتم المسلمون لذلك وتحققوا أن ما صنعت نفوسة قبل ذلك كما سبق مع جده الامام عبد الوهاب من منعه من الحج خوف الغدر به هو صواب محض وأخذ بجانب من الحذر والاستعداد المأمور بهما شرعا وبقي الامام مكسور الخاطر كئيبا لا يطيب له مقام ولا يهنأ له منام لما أصاب قرّة عينه ونخبة بنيه وان كانت شهادته الفارسية تالي الا اظهار التجلد والاصطبار كما قيل

(وتجلدي للشامتين أريهم اني لريب الدهر لا أتضعضع)

الى أن وافته منيته والناس عنه راضون وبحسن سيرته يتحدثون وقد قال ابن الصغير في ذلك هكذا (وان أفلح بن عبد الوهاب لما فقد ولده ابا اليقظان هذا وعلم انه قد رفع الى بغداد اشتد حزنه عليه وطال غمه به فلم يزل مهموما محزونا الى ان وافته منيته وابنه محبوس ببغداد اهـ وذلك سنة مائتين واربعين من الهجرة 240 وعلى رأي المراكشي في ولايته كما تقدم تكون وفاته سنة ثمان وثلاثين ومائتين 238 وكانت مدته في الخلافة خمسين سنة على قول ابن الصغير وقال ابو زكرياء رحمه الله مكث في امامته ستين سنة واليا محسنا واماما حسن السجية رؤفا 105

بالرعية لا يخاف في الله لومة لائم اهـ وعلى رأيه هذا تكون وفاته سنة مائتين وخمسين 250 وبهذا يتضح ان مقاله المراكشي من ان وفاته كانت سنة خمس ومائتين 205 ليس بسديد لما يلزم عليه من كون مدته 17 سنة فقط وهو باطل لمخالفته لكلام ابن الصغير مخالفة فاحشة وهو اقرب منه عهدا بؤلاء والأئمة وأكثر اطلاعا على اخبارهم وأصح رواية اذ كان من سكان (تيهت) معاصرا للامام محمد كما سيأتي في كلامه والله اعلم .

وقد ترك من البنين ذرية صالحة رضعوا من لبان علومه الصفو الزلال والتقطوا من بحور آدابه ومعارفه السحر الحلال منهم العلامة يعقوب الآتي خبره فكانوا كما ذكره ابن الصغير المالكي في حقهم حيث قال (وكان لأفلح اولاد قد بلغوا من السن والتجارب والممارسة ما يستحق به كل واحد منهم الامامة الا أن الناس لا يرشحون من جميعهم الا رجلين احدهما يكنى بأبي بكر والآخر يكنى بابي اليقظان وبهاتين الكنيتين يعرفان وكان ابنه ابو اليقظان حسن الحال عند الجميع منسوباً الى الورع اهـ وقد مر عن علمه ماهو كاف

(خلافة الامام ابي بكر بن افلح رحمهما الله)

وبعد وفاة الامام افلح رحمه الله اجتمع حسب العادة اهل الحل والعقد من نفوسة وغيرهم ممن انتخبوه من العلماء والوجهاء وعقدوا الامامة لابنه ابي بكر اذ كان هو المترشح لها بعد ابي اليقظان لو كان موجودا ولما تم امر البيعة وأعلن للعامة انكر بعض الناس ذلك ورأوا انه غير أهل لها وعابوا نفوسة باستقلالهم بهذا الأمر واختصاصهم به ثم سكتوا وقد تكلم ابن الصغير امالكي عليه وعلى سيرته بما لم يأت به غيره فخذ ما قاله على ما مر من القاعدة فيما نقلناه من كلامه .

(قل) فلما مات أفلح بن عبد الوهاب قدم الناس ابا بكر ابنه واخبرني غير واحد قال كان عبد العزيز بن الأوز ينادي بأعلى صوته الله سائلكم معاشر نفوسة اذا مات واحد جعلتم مكانه آخر ولم تجعلوا الأمر للمسلمين وتردوه اليهم ليختاروا من هو اتقى وارضى فلا يلتفتون الى كلامه ولا يشتغلون بمقالته فلما ولي ابو بكر لم يكن فيه من الشدة في دينه ما كان فيمن كان قبله من آباءه ولكن كان سمحا جوادا لين العريكة يسامح اهل المروآت ويشايهم على مرواتهم ويحب الأدب والأشعار وأخبار الماضين وكان بالبلد رجل يعرف بمحمد بن عرفة وكان وسيما قسيما جميلا جوادا سمحا وكان قد وفد على ملك السودان (ملك صوصو) بهدية من قبل افلح بن عبد الوهاب فعجب ملك السودان لما رآه من هيئته وجماله وفروسيته اذا ركب الخيل بين يديه وقال له كلمة بالسودانية ليست تعبر بالبربرية لأن مخرج كلامها انما هو فيما بين القاف والكاف او القاف والجيم الا أن معناها انت حسن الوجه حسن الهيئة والافعال اهـ

مصاهرة الامام ابي بكر لابن عرفة وما نشأ عنها من الفتن ممزوج

وكانت لابن عرفة اخت او بنت لها من الجمال الباهر وحسن الخلقة ما هو مشهور في تلك الاقطار في ذلك الزمان ولأبي بكر اخت كذلك فتزوج كل منهما اخت الآخر فقال ابن عرفة عند ابي بكر المنزلة العليا من الاقبال والجاه حتى صار الرأي في مهمات الأمور كلها بيده فعلقته خواطر العامة لنيل مطالبها وقضاء مآربها من ابي بكر فكان ابن عرفة اذا ركب من داره يتبعه في ذهابه وايابه من ذوي الحاجات والدعاوي مالا يحصى من الناس حتى عاد كأنه هو الامام ولا ذكر لأبي بكر فضاقت لذلك صدور اهل الحل والعقد من الرستميين وغيرهم من 106

ارباب الاصلاح ورأوا أن ذلك مما يؤدي الى الاستهانة بأمر الامام والى تضييع حقوق العباد وان مثل ذلك لم يعهد في سيرة السلف وربما خيف باستمرار ذلك الحال من حدوث حوادث يصعب حل مشكلاتها فتغيرت القلوب وتبدلت الافكار من العامة وساءت الظنون بأي بكر الا انه لم ينشأ عن ذلك ما يكدر راحته او يوجب الاختلاف والتفرق بل بقيت الكلمة مجتمعة والدعوة واحدة والرأى متفق والعمارة زائدة والتجارة رائجة وان وقع بعض مشاحنة وتنافر بكثرة الاموال والاتباع بين القبائل ولاسيما بين هواراة فانها تحاسدت حتى انقسمت فانحاز قسم منها يعرف ببني أوس الى من والاه من القبائل الأخرى وانحاز القسم الآخر ويعرف بترهته كذلك الى غيرها وبقي الحال ساكنا لا حرب ولا نزاع ولا خروج عن طاعة الامام .

(رجوع ابي اليقظان من بغداد وتحسن احوال الامام بأعماله العالية ممزوج)

وفي هذا الاثناء عاد ابو اليقظان من بغداد فوجد الحال على ما وصفناه ولم ينكر على أخيه شيئا ولم يدع اماراة ولم ينتحل خروجاً طلباً للسلامة وحقناً للدماء بل لم يقنع بذلك حتى أدى مع أخيه واجب الطاعة والانقياد وشمر عن عضد الجدي اعانته واصلاح شؤون امامته على نسق مارآه من الاجراءات الشرقية وشرح له كل ما شاهدته وما سمعه من سياسة ملوك الشرق بني العباس وغيرهم وأعمالهم الملكية فارتاح ابوبكر لذلك وكان ميالا الى الراحة والرفاهية ولذات امطعم والملبس وحب الرياضة فأقبل على أخيه ابي اليقظان وصرف اليه النظر في الأمور وسلم له المقاليد لما ظهر له فيه من الكفاءة والاقتدار والنصح والامانة وكان شهيراً بالورع والصدق فقبل منه ذلك بطيب نفس وانشرح صدر وجد في التحسينات النافعة والانشاءات الخيرية وضبط الامور على اتقن وجه وأسلم نظام (قال) وكان ابو اليقظان يركب الى أعلى مسجد في المدينة فيجلس فيه فمن تكلم اليه من الناس بين العمال والقضاة واصحاب الشرطة نظر في ذلك نظراً شافياً وأجرى الحق على من رضي وسخط وعظم قدره وصغر ولم تأخذه في الله لومة لائم فحمد له الشراة ذلك وحمد له أخوه فعلة فاذا كان آخر النهار اتى باب دار أخيه ابي بكر فان وجده جالسا دخل عليه وأعلمه بما حدث في يومه من خبر وحكم وان ألفاه مشتغلاً قال لمن عم أنه يصل اليه الى حرمة أقرأ الأمير السلام وقل له أصبحت مدينتك اليوم هادئة واذا كان الليل ركب وطاف في المدينة حتى يرتب الحرس ويحكم أمر الدروب ويأمرهم ان حدث حادث ان يوافوا داره فاذا احكم جميع ذلك انصرف الى داره فاذا كان بالعادة غدا الى باب أخيه فان وجده جالسا اعلمه بما كان في امدينة من حدث ان كان حدث او هدو ان كان هدو فلم يزل كذلك وعلى ذلك حتى خلب قلوب الناس واشرايت اليه ومالت نحوه وفي كل ذلك محمد بن عرفة في دوي وصيت عال لا ينظر بهيمة له واجلال وحذر وكان محمد بن عرفة اذا أتى باب ابي بكر لم يحجب كان ابو بكر في مجلسه او في حرمة وكان ابو اليقظان وجميع أخوة ابي بكر وأعمامه لا يدخلون على ابي بكر الا بالاستيذان اذا كان في مجلسه والا انصرفوا وكان محمد بن عرفة على غير ذلك اهـ فتوقع اولو البصيرة منه الميل عن مركز الاستقامة والحيادة عن منهج الانقياد والمروق عن الطاعة ورأوا ان بقاءه على ذلك من دواعي الفتنة ومؤسسات الخراب ولكنهم لم يتوصلوا الى عرض حقيقة حاله على انظار ابي بكر لشدة حجابيه وولوعه به ولا زالوا يترقبون فرصة الوصول اليه لتنبهه الى أن جمع رجال دولته وخواصه ذات مرة للمذاكرة معهم في بعض شؤون مهمة .

(مذاكرة رجال الامامة مع الامام في شأن ابن عرفة وتنبيه الامام لذلك)

(مزوج) ولما اجتمعوا عنده وخلاهم المجلس ممن لم يدخل في الدعوة اذ كانت رسمية وانتهت المذاكرة عما اجتمعوا لأجله فتحوا مع الامام باب البحث عن احوال ابن عرفه وما هو عليه من العظمة وازدحام الناس عند بابيه واتباعهم اياه راتحا وغاديا وما يتوقعونه من سوء عاقبة ذلك فاذا الامام يجهل ذلك كله ولا يعلم بشيء مما حكوه عنه فعاتبوه على التغافل عن مثل ذلك وعن عدم الاعتناء به والاحتياط لدفع كل ما يحدوثه ربما تزعزع اركان الامامة ويختل نظام الهيئة الحاكمة وعرضوا عليه ما ظهر لهم من الرأي في ذلك الا انهم لم يسيروا عليه في ذلك الوقت بالقتل واظهروا له مالداهم من الرضاء بالأحوال الراهنة الجارية بحسن مساعي ابي اليقظان الذي صرف عنايته الكاملة وأبدا غيرته الخالصة في موجبات الاصلاح وتسديد الأمور .

فلما سمع ابو بكر ماسمع شق صدره واراد ان يعلم ذلك ففتح طاقا في أعلى قصره يقابل الناحية التي يأتي منها محمد بن عرفة فلما كان بالعادة جلس في الطاق فيبينما هو كذلك اذ تحرك محمد بن عرفة من قصره فبادر الناس اليه من كل جانب ومكان وذلك كله بعين ابي بكر واقبل وبين يديه امم وخلفه امم وعن يمينه امم وعن شماله امم حتى الباب فتزل ابوبكر من طاقة الى مجلسة وقدها له مارآه ودخل محمد فخلا معه مليا ثم انصرف وصعد ابوبكر الى الطاق فاذا بالأمم التي اقبلت قد انصرفت وبقي بابيه خاليا فتحقق عنده ما قال القائل ثم ارسل الى من ذكر له من أمر محمد بن عرفه ما ذكر فقال له قد رأيت ما وصفت فما الرأي فقال له ان هممت به واظهرت ذلك امتنع منك وغلب عليك ملكك لأن مطيعته اكثر من مطيعتك ولكن الطف في امره اهـ .

(خبر قتل ابن عرفة ممزوج)

ثم بعد اخذ ورد في الكلام أشار عليه ذلك المستشار (وبنست الاشارة) بطريقة رأى انها مناسبة (والله يعلم ماأرادها نصح الامام ام غشه) فقال له لاسييل الى الالتقاء من سوئه وكسر شوكته الا بقتله واخفاء جثته بحيث لا يبقى له اثر ولايوجد له خبر ويعد مفقودا لنلا ينشأ عن ذلك التعصب للأخذ بشاره من ذويه وأقاربه وتذاكرا في الطريق الموصل الى ذلك على النعت المذكور مليا ثم امره بكتمان السر لاتمام الغرض وافترقا وقد صعب عليه الحال صعوبة لا مزيد عليها لما كان بينهما من الألفة وشدة العلاقة بالمصاهرة وصار يقدم رجلا ويؤخر اخرى الى أن جزم بامضاء ذلك الرأي وكان له منتزه يعرف بجنان الأمير طالما خلا فيه مع ابن عرفه لترويح النفس ورياضة البدن والنتزه في الايام المناسبة لما فيه من الاشجار المتنفة والازهار المتنوعة والعيون السائلة والانهار الجارية وانواع الطيور فارسل اليه واحدا من خدمه يدعوه الى الحضور اليه للذهاب الى المنتزه كالعادة ويعلمه بأن لا يسيح بذلك لأحد وأن لا يستصحب معه من الخدم والأتباع احدا وانه سيفعل مثل ذلك وان يكون مجيئه ليلا حتى لا يتعلق به في طريقه احد من الاصدقاء والخواص الذين لايمكنه منعهم من الحضور فبادر ابن عرفة عندما اخبره الخادم بالخبر مليا ممثلا كل ذلك وهو غافل عما قدر له في علم الله تعالى من الهلاك في ذلك اليوم ذاهل من قبل عما دونه الحكماء المتقدمون ورسمه الادباء والسياسيون في شأن مصاحبة الملوك والسلطين تحذيرا من بطشهم وتنبهها الى تقلبات احوالهم فوجد الامام في انتظاره متهيئا للخروج فركبا وخرجا ومعهما خادما للامام له علم بحقيقة الحال وكان قد اتفق معه على الفتك به اذا بلغوا المنتزه وساروا الى أن وصلوه واقاما يومهما ذلك فيه على بساط المؤانسة ولسان حالهما يردد عبارات الوداع الى أن دخل وقت المغرب فأسبغا الوضوء وقاما الى الصلاة وبينما هما في اثائها اذ هجم الخادم على ابن عرفه بحربة فصادفت ما بين كتفيه فخر الى الارض ميتا من ساعته وكان على قرب 108

المنتزه جبل فيه شق غائر في الارض يعرف (بالشفة الحمراء) فأمره بالقائه فيه فزمله في ثيابه وحمله الى أن القاه هناك واخلفى فرسه ورجعا يكتنفهما ستر الليل ففقد ابن عرفه اهله لما بلغهم رجوع الامام ولم يكن معه وباتوا في أشأم ليلة واتصل الخبر ببطانته وشاع خبر فقدته فخرج الناس في اليوم الثاني يتجسسون خبره ويقتفون أثره الى أن أتوا المنتزه (وكان من قدر الله ان تغافل الخادم عن دمه فبقى في المكان ليكون دليلا على مصرعه وداعيا الى رغبة الناس والحرص في الوقوف على جثته .

ومهما تكن عند امرىء من خليقة وان خالها تخفى على الناس تعلم
فتفرقوا حين وقفوا على الدم في الأودية والجبال للاطلاع على المكامن والأماكن الغائرة الخفية ثم دهم بعض أهل الخبرة بالأرض على الشق المذكور فقصدوه وانزلوا اليه رجلا فوجده
(ستبدي لك الايام ما كنت جاهلا ويأتيك بالاخبار من لم تزود)

فأخرجوه وحملوه الى النهر الذي قتل فيه وغسلوه وطيبوه وبعثوا الى بيته فأرسلوا اليهم فرسه وسيفه وكسوته المخصوصة فألبسوها اياه وقلدوه السيف واركبوه الفرس وركب خلفه رجل ليمسكه حتى يكون على هيئته التي يكون عليها اذا ركب في حياته وقصدوا به المدينة وأمامه مناد ينادي بأعلى صوته قائلا (الا وان القتيل المظلوم يامركم بطلب ثاره ودمه) فهرع لرؤيته الرجال والنساء والصبيان ولحق الناس في ذلك اليوم من الرعب والجزع مالم يلحقهم قبله لما كان له في اعينهم وقلوبهم من المهابة بما قدمه لدى أكثرهم من الأيادي البيضاء وقضاء المآرب وقد قيل من قبل (جبلت النفس على حب من احسن اليها وبغض من أساء اليه) وقيل ايضا (الناس عبيد الدرهم والدينار وقال الشاعر (ورأيت الناس قد ذهبوا الى من له ذهب
ومن لم يكن له ذهب فالناس عنه قد ذهبوا
رأيت الناس منفضة الى من له فضه
ومن لم تكن له فضه فالناس عنه منفضة

ولعمري ان هذه القصة لاشبه شيء بقصة جعفر البرمكي مع هارون الرشيد

(قيام أهل المدينة للأخذ بثار ابن عرفه وحربهم مع الامام ممزوج)

ثم عجلوا جهازه ودفنه وهاجت النفوس وكثرت الاقوال في سبب قتله وقتله واشتد الحق في الصدور وعظم الخطب وكان في المدينة من الوجهاء وذوي الكلمة رجل يعرف بمحمود بن الوليلي يرى أن قتله ظلم وان القيام لأخذ ثاره واجب وكان له على ابي بكر من الانكار ما كان فانتهاز الفرصة اذ وجد للقصد سبيلا فأرسل رسله الى مجتمع الناس يتعرف احوالهم ويتحقق ما هم عليه من الرأي فأخبروه بأن الشقاق في الناس قد بلغ منتهاه وان الثورة لم تتوقف الا على محرك ورأس يعلن بذلك فأسرع الصعود الى موضع بأعلى المدينة يعرف بالكنيسة وقرع الطبل للاجتماع في المهمات وهو قصعة كبيرة من الخشب او النحاس مغطاة بجلد بعير بعد خدمته خدمة مخصوصة حتى يكون كالرق ومتى ييس وضرب بعقال من وبر أو ما أشبهه صار له صوت يسمع من بعيد على مسافة اربع ساعات واكثر واقل هذا ان كان على النعت الموجود الان عند رؤساء القبائل من البوادي والقرى الكبيرة من جبل نفوسة وغيره ولهم في ضربه طرق معروفة عندهم يستدلون بها على المقصد من ضربه فبمجرد سماع الواحد منهم صوته يعلم ان المراد خير او شر كما يعلم النفر العسكري في الحرب الأمر والنهي من رئيسه¹⁰⁹

بالموسيقى والبوق وما أشبه ذلك)

(قال) فأمرهم بأخذ السلاح والزحف الى ابي بكر وحربه واتصل الخبر بذلك بأبي بكر فبادر اليه خاصيته من الرستميين والسمحيين وغيرهم فتهيأ لملاقبتهم وزحف الناس من أعلى المدينة من ناحية المشرق وزحف ابي بكر وشيعته وخاصته من المغرب ولبس كل واحد من الفريقين الدروع والبيض والرايات حتى اجتمع الناس جملة الا اليسير بموضع بمسجد ابي فلم تزل أيد تتطاير وأرجل كذلك وهامات تقلع وافرغ على الفريقين الصبر اهـ (مزوج) فاغتنم العجم فرصة الوثوب لما كمن في قلوبهم قديما من الغل وقالوا مالنا وللسكون والدعة وقد وقع بين الجند والعرب ومواليهم وبين السلطان مانراه من الاضطهاد والحروب وماذا يصدنا مع هذا الاشتغال ببعضهم عن الهجوم على طرف من اطراف المدينة فنهبه ونخربه ونقتل كل من عارضنا فيه ثم نبيل الى الكل فنهلكهم عن آخرهم ويصفو لنا البلد ونستقل بالسلطان فقصدوا الناحية المعروفة بموقف الدواب وكان أهلها في استعداد وحذر مما اضمره العجم فناهزهم القتال وحمل الوطيس وقامت الحرب على ساق وقدم في سائر انحاء المدينة بين العجم وبين مقابلهم وبين الجند والعرب وبين ابي بكر واستمرت الحال الى أن سقط واحد من وجوه العجم فتقدم من رام ايقاف ثيار الحرب اليه فحز رأسه وبرز به الى الميدان مناديا يامعشر الجند والعرب تقتلون انفسكم والعجم قد دخلوا عليكم ساحتكم يقتلون رجالكم ويستحيون نساءكم ويستحلون اموالكم)ثم القى الرأس بين الصفين فلما نظروه وعرفوه القوا السلاح وتعانقوا وعادوا يدا واحدة في الحال ومالوا نحو العجم فأبلوهم البلاء الشديد حتى ولوا منهزمين وانحاز ابو بكر الى داره آخذاً طريق الانفراد لا أمر ولا نهي ولا حكم وقد تشاءم الناس منه .

(تجنب نفوسة وابي اليقظان لهذه الفتنة ممزوج)

وفي كل ذلك ابو اليقظان معتزل في الحقل المعروف بعدوة نفوسة لا يظهر ميلا الى احد وان اقمه الجند والعرب باليل الى غيرهما وكذا نفوسة لم يدخلوا في امر هذه الفتنة بقول ولا فعل كأبي اليقظان وبقيت الحرب متحركة بين العجم وبين الجند والعرب خاصة يتبادلان النصر والهزيمة فتارة هؤلاء وآونة لاولئك الا ان الجند متى تغلبوا على جهة وخرج أهلها من ديارهم ابقوها على حالها ولا يغيرون منها شيئا الى أن تغلبوا ذات مرة على جهة بجوار درب النفوسيين فيها بعض نفوسة وكان مع الجند والعرب خلف الخادم مولى الأغلب وهو ذو مال عظيم لا يرضى به في اعانتهم كلما احتاجوا فصار متبع الرأي مسموع الكلمة عندهم فقال لهم ماأراكم صنعتم شيئا اذا أبقيتم الديار بدون احراق فأضرموها حينئذ نارا والعياذ بالله .

(حرب نفوسة وابي اليقظان مع أهل المدينة ممزوج)

فأخذت الغيرة نفوسة وغضبت لذلك وقالت هذا جزاؤنا منهم اذ لم نتعرض لحربهم فلم يقنعهم الا احراق ديارنا واستحياء حرمنا وكأني بهم ولسان حالهم ينشد قول الشاعر .

(ومن لم يذ عن حوضه بسيفه يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم)

فعندئذ قامت قيامة نفوسة وتعصبت للمدافعة عن حرمها وحماية مجاوريتها وضمت العجم اليها ودعت ابا اليقظان في مكانه الى الموافقة على ذلك فأجاب واتحدت الكلمة وتقوت العصبة بانضمام العجم والرستميين وابي اليقظان الى نفوسة وتجددت الحروب وتوالت المصادمات وكانت وقائع يشيب لشدة هولها الرضيع كانت الدوائر 110

فيها لنفوسة والعجم على الجند والعرب .

(قال) ثم كانت بينهم وقائع كلها للعجم ونفوسة على العرب (منها) وقعة تعرف بقنطرة الدقنس (ومنها) وقعة تعرف بقنطرة سليس وفرغ في هاتين الوقعتين وجوه العرب وصناديدها ثم كانت (وقعة) تعرف بيوم (الرد المعوج) وانما سمي الرد المعوج فيما ذكر أن (نفوسة) أخذ بعضها على بعض العهد وقال بعضهم لبعض كيف يجوز لنا الفرار من الزحف قالوا فما وجه الرأي قالوا أن أنضم أرجل بعضنا الى بعض بالخيال ونثبت للحرب فكلما دارت الى ناحية درنا معها بوجوهنا ولا نبرح من امكنتنا حتى تقطع السيوف في هاماتنا فكان في ذلك اليوم قتال لم يتقدم قبله قتال مثله فكلما دارت الحرب على ذلك الرد دار معها حتى افرق القتال وهو على حاله اهـ .

فلله نفوسة من رجال وأبطال ولم يخل الله الأرض حتى الآن من رجال منهم ملؤا يقينا وإيمنا فهم مثال الشجاعة والاقدام لو ضمتهم الخافل وأظلتهم ظلال الرايات الحميدية وسط تلك المعامع الأدهمية وأشباهها لكان لهم الفخر المقدم والصيت الاسمي وكان حاديههم يترنم بدون خجل ولا وجل وهو يسوقهم الى تلك الميادين بيت الشاعر القتال

واني وان كنت الاخير زمانه لآت بمالم تستطعه الاوائل

ولما قصروا عن درجة اولئك ان لم يجاوزوها بأضعاف وبألامتحان يكرم المرؤ أو يهان (ومن يشابه اباه فما ظلم) (مزوج) ثم مع استمرار الحرب وتتابع الوقائع عكس القضاء المبرم الأمر وعاد النصر حليف الجند والعرب والتقهر والضعف زميل نفوسة والعجم (سنة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا وتلك الايام نداولها بين الناس وما النصر الا من عند الله حتى أجلوهم من الامصار واضرموا في ديارهم النار وذهب كل ملتجأ الى حيث ينجو من القتل ثم انحازت نفوسة والرسطيون والعجم مع ابي اليقظان الى اخل المعروف بعدوة نفوسة وبنوا فيه حصنا منيعا مشيدا ياوون اليه ابان تضايقتهم من عدوهم فخلا للجند والعرب الجو وخلصت لهم المدينة وواسع البسائط وكثرت اتباعهم وعظم جيشهم وكان فيهم من عظماء التجار والاغنياء عدد منهم ابو محمد الصيرفي وابن الواسطي وأمثالهما ممن حركتهم الغيرة القومية والحمية الجاهلية فجادوا بما لديهم من الاموال وأمروا ببناء حصن يقابل حصن نفوسة ويضاهيه في المنعة على بعد رمية سهم منه فشرعوا فيه على ضفة نهر يعرف بالنهر الصغير وهو الحائل بين الحصنين فرالت عليهم نفوسة والعجم المهجوم لصددهم عن البناء فاشتغلوا بالعمل ليلا وربما جعلوا في النهار سترًا عن العملة يردع عنهم سهام نفوسة واجتهدوا فيه الى ان تم على النحو المطلوب من القوة والمنعة ونزلوه واشتد اذ ذاك باسهم وتقوت شوكتهم وناصرهم الحرب فجرت بينهم مفاخرات وملاطحات وعادت الحرب رياء وسمعة ونبغت في الفريقين ابطال وفرسان وتمارت الاغنياء والتجار في صرف الدينار والدرهم على شراء السلاح وآلات الحرب للمستحقين .

أخبرني بعض المشائخ قال عبت نفوسة والعجم ومن لف لفهم بين يدي حصنهم وعلى حصنهم فبرز رجل من العجم يقال له ابن وردة ويده سيف ودرقة وكان قلما يلقي قرنا الا قتله فنأدى هل من مبارز فهاهنا الناس اهـ ثم مع استمرار الحرب والزمن دوار والقادر الخالق مختار يفعل في ملكه ما يشاء ويختار اخذ دور نفوسة والعجم في الانحطاط وجمعهم في القلة واحوالهم مع عدوهم في التقهر الى أن بارحوا حصنهم عنوة يحنون اليه ويننون من فراقه واتخذ كل وجهة متفرقين في الجهات طلبا للنجاة .

فدع الديار وأسرع التحويلا

واذا الديار تنكرت عن حالها

في بلده تدع العزيز ذليلا

ليس المقام عليك فرضا لازما

(قال) قالوا ان العجم ونفوسة والرسامين لما نزل بهم ما نزل تفرقوا في اقاصي البلاد فزلت العجم بموضع يقال له (تابغيت) وهي على مرحلتين من مدينة تاهرت وأما الرستمية ومن لف لفها فلحقوا بابي اليقظان بالموضع الذي يقال له اسكيدال وهو بقلعة تاهرت على مسيرة اليوم او أزيد قليلا في مجمع الاباضية وأما نفوسة فزلت بقلعة مانعة يقال لها اليوم قلعة نفوسة اهـ

(خروج الامام واستيلاء ابن مسالة على المدينة)

(مزوج) هذا وحال ابي بكر في المدينة لا يزال في ضعف وادبار لا يقيم ظالما ولا يحير مظلوما ولا يقيم حدا ولا يغير منكرا ولا يحمي ملتجأ الى أن ضاق به الحال وقلت انتصاره وتوقع الهلاك فخرج بمن معه نجيا الى حيث لا يصاب ولا يدرك (هكذا هاهنا وقال ابو زكرياء سلم لأخيه محمد وقال المراكشي اخرجوه ثم ردوه الى أن مات) والظاهر أن مدته كانت قصيرة جدا لم تبلغ سنتين والله اعلم .

فاستولى على المدينة محمد بن مسالة وهو أمير مستقل عن تيهرت اباضي المذهب يدير شؤونها ويدبر احوالها على حسب ما يراه مساعدا لاغراض العامة والكثير واخذت الهدنة في الناس مأخذا صار به كل مستقلا بجهة آخذا حذره مما يطرأ عليه من مقابله غير متشبه بما يثير شرر الحرب فهدأت الحركات ووضعت الحرب اوزارها وكاد يقع في الاخطار مقل الى حب اللفة والاجتماع مللا وسامة من وطأة الشقاق وبينما هم كذلك اذا تحركت بين هواراة ولوالة بعض تلك الضغائن الكامنة في الصدور منذ عهد قديم فشبت بينهما نار الحرب وعلا لهبها فأعان اهل المدينة هواراة حتى أجلوا منها لوالة رغما عما قاسته في اثناء تلك الحروب الشنيعة من الاهوال وما تكبدته من المشاق ولاقته من الخسائر في الاموال والرجال فزلت حصنها المعروف بحصن لواته على قرب من الموضع المعروف (بتاسلونت) الذي منه تتبع عيون نهر مينة الجاري من قبله تاهرت الذي نصبوا عليه المطاحن وخاطبت ابا اليقظان على التزول بجوارها والدفاع عنها فأجابها الى ذلك وتحول اليها .

(خلافة الامام ابي اليقظان محمد بن أفلق رحمهما الله)

ولما بلغ اهل المدينة انتقال ابي اليقظان الى حصن لواته خرج وجوهها وأهل الرأي منها الى لواته واتفقوا معهم على تقديمه ثم اتوه وبايعوه بالخلافة وذلك سنة احدى واربعين ومائتين 241 من الهجرة تقريبا .

(قال ابن الصغير) وكان معه بعض الاموال التي أتى بها من بغداد والمدينة بها رجال هواراهم وقلوبهم عند ابي اليقظان فخرجوا اليه فصارت الدعوة والامامة كلها لأبي اليقظان ولا يرون من رأيه ويوالون محمدا ابن مسالة على عماية لا على الديانة فتجدت الحرب وعادت جذعه وحمل ابو اليقظان الناس على الخيل ودعى له بالامارة والامامة والغى ذكر ابي بكر ومحمد بن مسالة اهـ (مزوج) وما سمعت القبائل الأخرى حتى اتت لتقديم البيعة من كل الاقطار فقبلها وقام خطيبا فرغب الناس في الاعتصام بحبل الله لحقن الدماء وحفظ الاموال التي طالما درتها رياح الظلم والاستبداد وسفكتها سيوف الطاغين ووالى الهجوم والوثوب على المدينة فاستمر الحصار على من تحصن فيها وعصى من اتباع ابن مسالة (سبع سنين) حتى ضعفت الاقوياء واولو الثروة الذين كان عليهم مدار رحا الحرب 112

وفيت تلك الاموال ودكت تلك الابطال وعتت المصائب وكثرت الاهوال وكره الناس الحرب والفتنة وملوا من الحصر وشكا بعضهم لبعض ما حل بهم من الفناء والفقر الا أن النفوس الميالة بطبعها الى الشر تأبى الخضوع وتأنف من العدل وتمح طلب الصلح والرجوع الى الطاعة غواية وعنادا (ان النفس لأماراة بالسوء الا ما رحم ربي)

(طلب الامام للاعانة الحربية من جبل نفوسة)

(مزوج) ولما رأى ابو اليقظان استمرار الحال مع طول الزمن رأى أن يأتي بجده الامام عبد الوهاب ويحذو حذوه في الاستمداد من نفوسة الجبل فاستنجد بهم فأمدوه مليوني دعوتهم ممثلين أمره بجيش عرمرم جامع لكل بطل همام وأسد ضرغام وما هم بقليلين عندهم في ذلك الوقت .

(قال) ولما وصلوه جددوا له البيعة وعقد وهاله وانه لما نزلت (يعني نفوسة الجبل) بابي اليقظان اجتمع الى ابي اليقظان جمع عظيم فرحل بجميع جموعه من نفوسة وغيرهم حتى نزل بالقرب من مدينة تيهرت فلما نزل منزله قالت نفوسة لا نقاتل حتى نرسل الى اخواننا وننذرهم فان فاءوا ورجعوا الى الطاعة كانت ايدينا وايديهم واحدة وان ابوا من ذلك نزلنا معهم على حكم الله قال افعلوا ففعلوا فأرسلوا رسلهم وخوفوا الناس سوء العواقب ووجدوهم قد ملوا الحرب فقالوا لرسولهم قد تقدمت فيما بيننا دماء واموال لامنا ولامنهم ونخشى ان يؤخذ الباقي ممن الغابر فان كان عقد وصلح على ان لا يتبع احد بدم ولا مال فسمع وطاعة قال فأعلنت نفوسة أبا اليقظان بما قالت لرسولهم فقال معاذ الله ان نأخذ احدا بما سلف ولا أخذ الا بمستقبل فاعطوهم على هذا ما أحبوا من اليهود والمواثيق قال ثم خرجت طائفة من عسكر ابي اليقظان حتى اجتمعت مع طائفة من اهل المدينة فعقدوا ذلك فيما بينهم فقالت (نفوسة) نحن انما جننا لاصلاح بيضتنا وتأليف أمرنا وقوام ديننا ولم نأت لطلب علو في الارض ولا فساد فرحل ابو اليقظان بعساكره حتى اتى الظاهر المشرف على المدينة المعروفة (بقلعة نفوسة) فضرب بها سرادقة الذي قدم بها من بغداد قالوا ولم ير سرادق مضروب قبله وانما كانت مضارب وقباب ثم أن أهل المدينة عمدوا الى داره التي هدموها وكانت مزيلة من المزابل وكدية من الكدى فكنسوها في يومهم ذلك فابتنوها في أسرع الأيام فلما فرغت نزلها ابو اليقظان ورفع مضاربه ونزل الناس المدينة اهـ فنادى مناديه في الناس بالآمان وولى وظيفة القضاء بعد استشارة اولى الرأي العلامة الزاهد الورع التقي ابا عبد الله محمد بن عبد الله بن ابي الشيخ وستأتي له حكاية معه وعلى بيت المال رجلا من نفوسة وقدم على منبر مسجده من ارتضاه من صلحاء الائمة العاملين .

(قال) ثم أمر قوما من نفوسة يمشون في الاسواق فيأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر قالوا فان رأوا قصابا نفخ في شاة عاقبه وان رأوا دابة حمل عليها فوق طاقتها انزلوا حملها وامروا صاحبها بالتخفيف عنها وان رأوا قسرا في الطريق امروا من حول الموضع ان يكنسه ولا يمنعون احدا من صلاته في مساجدهم ولا يكشفونه عن حاله ولو رأوه رافعا يديه في صلاته خلا المسجد الجامع (المسجد الذي يصلي فيه الامام نفسه) فانهم اذا رأوا فيه رافعا يديه منعه وجزروه اهـ ولعلمهم يفعلون ذلك بدون اذن من الامام ولم يبلغه الخبر والله اعلم .

وثابر رضي الله عنه على اصلاح ما انثلم في اثناء تلك الحروب حتى عادت الناس الى خطة سيرها القديم في سبيل العمارة والتجارة والبنيان واشتغلوا بطلب العلوم وقضاء ما فاتهم في فترة تلك السنين وما أضاعوه من الاموال وماسفكوه من الدماء عبثا وطغيانا وكاتب الامام بعد اصلاحه الشؤون الداخلية رؤساء سائر اتباع الامامة في كل الجهات فأتت طائفة خاضعة وقدمت البيعة برضاء فرتب الولاية والعمال والحكام 113

والقضاة وأصحاب الشرطة في الولايات كلها واسرع السير في التقدم في الإصلاح دينا ودنيا حتى اجمع الناس قاطبة على حبه وولايته والرضا بأحكامه وبلغ في الفضل والعدل والورع والزهد مع حسن السيرة مبلغا عظيما استحق به تشبيه ولايته بولاية جده الامام عبد الرحمن رضي الله عنه اذ كان كمثلته في الاتفاق على ولايته واشتغل رحمه الله بتجديد مائتة من الدين بكمال جد واجتهاد يباشر القاء الدروس وتعليم العلوم للطلبة بنفسه طلبا للأجر وقيامه بالواجب وترغيبا للغير فشددت اليه الرحال من كل الاقطار فقلد الواردين عليه من جواهر فنونه وغرائب علومه العقود الثمينة وكانت له اليد الطولى والقدر المعنى في سائر الفنون حتى صاروا قادة ومصايح يهتدي بهم في الافاق في دجى المشكلات ويلجأ اليهم في المعضلات وامتألت عموم ولاياته بالعلم والعلماء والزهاد وأصحاب الكرامات خصوصا جبل نفوسة كما هو مبسوط في كتب السير كلها ومع ذلك لا يفتر عن الاشتغال اوقات خلوته واستراحته من التعليم ومصالح دولته بالتأليف والتحرير ومكاتبة العمال والولاة وجوع الرعية بالنصائح المرشدة والحكم النفيسة والرد على المخالفين من سائر الفرق والمذاهب حتى انه ألف في الاستطاعة وحدها اربعين كتابا وما يوجد من رسائله هذه النصيحة العامة .

(رسالة الامام الى جميع رعيته ارشادا ونصحا)

ولما أحسن من الناس بعض فتور وتقاعد عن الواجب اقتدى بأبيه وأجداده الكرام أهل النصح لله والارشاد الى دينه فحرر نصيحة عامة تليت بواسطة العمال في جميع الجهات ايقاظا للنفوس الغافلة وتنشيطا للهمم الخاملة فخذها ايها القارئ وهي قليل من كثير مما كتبه رحمه الله في هذا الباب لتستدل بما على بعض ما كان لهذا الامام العظيم من الاعتناء بمصالح الملة والامة وواجب النصيحة في الدين لاهوانه المسلمين فجزاه الله عن الاسلام وأهله خيرا قال .

(بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم) (من محمد بن افلح) الى جميع من بلغه كتابنا من المسلمين سلام عليكم واني احمد الله الذي لا اله الا هو وأسأله الصلاة على نبي الرحمة وهادي الأمة (ص) (أما بعد) فان افضل ما يتوصى به العباد ويتحاضوا عليه تقوى الله تعالى ولزوم طاعته والزجر عن معصيته والترغيب فيما يورث الثواب من القول الطيب والعمل الصالح وعليكم معاشر المسلمين بالتهيء للقدوم على الله والتأهب والاستعداد ليوم تشخص فيه الابصار وتتغير فيه الالوان ويشيب فيه الولدان وتذهل كل مرضعة عما ارضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد (واعلموا) رحمكم الله ان أهل العلم بالله القائمين بهذه الدعوة قد انقضوا وقت الخلوفا منهم فرحم الله أمرا مسلما احتسب بنفسه وارصدها الله في طلب العلم والنقض على من حاد الله وعدل عن منهاج رسول الله (ص) وضاد الخلق من عباده حتى تكون كلمة رسول الله هي العليا والباطل زهوقا (وعليكم معاشر المسلمين باتباع الماضي من اسلافكم والمتقدمين من ائمتكم الصالحين من أهل دعوتكم فافتقوا آثارهم واهتدوا بهداهم واحذروا الزيغ عن طريقهم والميل عن منهاجهم وخالفوا أهل البدع المضلة والأهواء المزلّة ممن أراد ان يبدل دينكم ويلبسكم شيئا ويلبس عليكم امركم ممن اتبع هواه واستحوذ عليه الشيطان ونبذ ما جاء به القرآن فألبس على الضعفاء أمرهم وزين بدعته في قلوبهم فخدع من لا بصيرة له ولا علم بما مضى عليه الائمة الراشدة من رحمة الله عليهم والسلف الصالحون من أهل

دعوتكم فأضل كثيرا وضل عن سواء السبيل وقد ذكرنا لكم ما فيه الكفاية ان شاء الله وبه نستعين

وعليه نتوكل وماتوا فبقينا الا بالله اهـ وقد تكلم على بعض سيرته المؤرخ ابن الصغير المالكي وأجاد في 114

ذلك فخذة على القاعدة المتقدمة ايضا .

(قال) وكان أبو اليقظان عاش من السنين مائة أو نحوها وكان عمره في امارته نحواً من اربعين سنة ولحقته انا بعض امارته وايامه ورأيتُه وحضرت مجلسه وقد جلس للناس خارج المسجد الجامع مما يلي الجدار الغربي منه ورأيتُه يوماً ثانياً في مصلى الجنائز وقد رميت له وسادة من أديم (جلد) فجلس عليها ينتظر فراغ دفن رجل مات من وجوه الناس وكان ربع القامة ابيض الرأس واللحية وكان اذا جلس للناس وأمرهم بالجلوس لم ينطق أحد بين يديه الا أن تكون ظلامه ترفع اليه وكان زاهداً سكيناً ورعاً ناسكاً (مأحسنها من شهادة) وكان اذا جلس في المسجد الجامع جلس على وسادة من أديم مستقبلاً الباب البحري وله سارية تعرف به يجلس اليها ولم يكن غيره يجلس اليها وكان يقابله نصب عينية رجل من نفوسة يعرف بعيسى بن فناس وكان عندهم من الورع بمكان ويلى عيسى رجل من هوارة يقال له ابن العقير لسانهم في الفقه ولم يكن في ورع عيسى وكان عن يمينه وعن يساره وبين يديه وجوه الناس وكان أخص الناس به رجل من العرب يسمى بمحمود بن بكر وكان مدرّجهم الذي يذب عن بيضتهم ويدافع عن دينهم ويرد على الفرق مقالاتهم ويؤلف الكتب على مخالفيهم رجل يقال له عبد الله بن اللمطي اهـ (وانا لتأسف كثيراً جداً لفقد مثل هذه التأليف فلو وجدت مع ما جمع من المناظرات الواقعة مع المعتزلة للعلامة مهدي وغيره لكانت حجة بالغة والأمر لله)

(اجتماع الأباضية والمعتزلة للمناظرة)

قال اخبرني احمد بن بشر عنه قال لي اجتمعت الأباضية والمعتزلة بنهر مينة لموعدهم جعلوه فيما بينهم للمناظرة وكان كثير من هوارة ممن حضر المجلس يتسمى بعبد الله بكسر الدال وكذا اسم هذا الرجل ولما اجتمع القوم وضمهم المكان نادى رجل من المعتزلة يا عبد الله بكسر الدال فأجابته رجل ثان فقال لست أريد قال عبد الله وقد علمت انه اياي يريد فكرهت ان اجيبه خوفاً من سؤاله فقال عبد الله بن اللمطي اريد فقلت لبيك فقال لي هل تستطيع الانتقال من مكان لست فيه الى مكان انت فيه فقلت لا فقال لي هل تستطيع الانتقال من مكان انت فيه الى مكان لست فيه فقلت اذا شئت فعلت فقال خرجت منها يا عبد الله .

(حكاية العلامة ابي عبيدة الاعرج مع الامام واخباره رحمهما الله)

قال وكان منهم رجل يعرف بابي عبيدة الاعرج كلهم مقرون له بالفضل مسلمون له في الورع اذا اختلفوا في امر من الفقه او من الكلام صدروا عن رأيه وقد رايت انا هذا الرجل وجلست اليه فما رأيت في سود الرأس أخشع منه وكان قليل الدخول على ابي اليقظان ولم يكن يجمعه وایاه سوى المسجد الجامع فحدثني احمد بن بشر قال ضرب ابو اليقظان سرادقه لحدث اراده وبرز بنفسه الى سرادقه قال وعلم اناس ذلك فخرج اليه الفقهاء والقراء وضربوا اخيبتهم حول سرادقه خلا ابا عبيدة قال فبينما الناس ذات يوم جلوس اذ أقبل ابو عبيدة راكباً على دابة فقال الناس هذا ابو عبيدة قد اقبل متفقداً للأمير مسلماً عليه قال فأعلموا بقدمه ابا اليقظان فلما دخل عليه ادناه الى نفسه فقال ما جاء بابي عبيدة الينا متفقداً ام مسلماً ام ماذا فقال أصلح الله الأمير ما جئت متفقداً ولا مسلماً غير أن لي جارة خرج ولدها البارحة في طلب معاش له ولها فأخذته اخروق صاحب حرسك وحبسه فأتتني الغداة باكية شاكية تسألني ان أسألك في اطلاق ولدها فأمر بأن يطلق كل من حبس تلك الليلة (ممن لاحد عليه ولا حق للناس) 115

اجلالاً لأبي عبيدة ثم سلم وانصرف فعجب الناس من صدقه وتركه التصنع وظهره على لسانه مأسر في قلبه وكان أبو عبيدة هذا عالماً بالفقه والكلام والوثائق واللغة وكان مع ديانتته حسن الأدب والمروءة أتيتته يوماً اسمع كتاب اصلاح اللغة الذي ألفه عبد الله بن مسلم بن قتيبة على أبي عبيدة فلما افتتحت قراءته وقلت لعل ناظراً في كتابنا هذا ينفر من عنوانه ويستنفر من ترجمته ويربأ بابي عبيد عن الذلة فقال لي ويربأ بابي عبيد بهمز الوصل وضم الألف وانما ذكرت هذا الحرف لأدل على براعته في اللغة فلما قرأت من الكتاب مثل ورقة او أزيد أتاه قوم فقالوا يا أبا عبيدة شهادة يا جرك الله عليها فأخذ نعله وعصاه ثم قام مع القوم فلما كان اليوم الثاني أتيتته فلما قرأت ما قرأت بالأمس أتاه قوم فقالوا يا أبا عبيدة شهادة يا جرك الله عليها ففعل مثل ما فعل بالأمس فقامت معه وقلت أصلحك الله ان لي بالرهانة دكاناً أبيع فيه وأشتري أتركه وآتي اليك فيأتيك الناس فتشتغل عني لا أنا في دكاني ولا أنا في مقابلة كتابي فسكت فلما كان بالغداة أتيتته كما كنت آتية فلما قرأت بعض جزء أتاه أناس فسألوه كما سألوه قبل هذا فقال ان هذا اليوم لهذا الفتى فان آثركم على نفسه وأذن لي سرت معكم فلما رأيت ذلك قلت ياسيدي ولا كل هذا سر اذا شئت أو أقم وانما ذكرت هذا لأدل على مروءته وحسن أدبه وكان المغرب كله مفتوناً بهذا الرجل حتى ان من كان من الإباضية ونفوسة يبعثون بزكاتهم اليه يفرقها حيث شاء .

(شدة تعلق نفوسة بهذا الامام)

(قال) وكانت نفوسة الجبل مفتونة بأبي اليقظان وكان أكثرهم لايحج الا باستئذانه وكانت المرأة تبعث بابنها او ابنتها يأخذ لها الاذن منه وكان اذا ضرب سرادقه وأتته وفودهم لا ينامون الليل حول فساطيطه شأنهم التهليل والتكبير من أول الليل حتى الى الفجر فاذا صلوا الفجر معه ضربوا بأنفسهم الى الارض فناموا اهـ (جازى الله عنا ابن الصغير خيراً على شهادته بالحق ولو علمنا قبره لشهرناه وزرناه وتصدقنا عليه .

(ولاية افلح بن العباس على جبل نفوسة) (قال)

وان أبا اليقظان لما استقام له ملكه وأتته وفود نفوسة ليقدم عليهم أميراً من انفسهم فأنزلهم في دار الضيافة فقال كتبوا اسماءكم كلكم وارفعوها الى وأمر الكاتب ان يكتب السجل (الفرمان) ويبقى بياضاً لموضع المقدم فلما رفع الكاتب الكتاب اليه كتب بخط يده اسم المقدم .

وطواه وطبعه ولم يعلم أحد من الناس من قدم ثم جمع القوم وقال لهم هاكم السجل ولا تفتحوه الا بجبل نفوسة اذا بلغتم منازلكم (وقد تقدم ان والده افلح صنع هكذا مع سعد ونفات) فأخذ القوم السجل وقد اغتموا اذ لم يعلموا من المقدم عليهم ثم دخلوا على حمود بن بكر وكان من الخاصة بابي اليقظان فسألوه فقال لهم لا أعلم بما فيه ثم دخلوا على عيسى بن فناس فأجابهم بمثل ما أجابهم به حمود ثم لم يزالوا يدخلون على واحد بعد واحد من من الاباضية ويسألونهم فيخبروهم بأن لا علم لهم فلم يزالوا كذلك الى أن مروا بعبد العزيز بن الأوز وكان له فقه بارع ورحلة نحو المشرق ولكنه سفيه اللسان خفيف العقل يترهون مجالسهم عن حضوره ولا يستغنون عنه في معضلات مسائلهم فما شعر ان دخلوا عليه فقال ما بالكم وما جاء بكم فقالوا فرحنا بشيء واغتنمنا منه قال وما ذلك قالوا فرحنا بتقديم الامام لنا واغتنمنا اذ لم نعلم من قدم علينا قال او لم تعلموا من قدم عليكم قالوا لا قال قدم عليكم افلح بن العباس قالوا ومن اعلمك بذلك قال ابو اليقظان قال فخرجوا من عنده فأتوا حمود بن بكر وعيسى بن فناس 116

فقالوا لهما مكانكما من الامام مكانكما ومكاننا منكما مكاننا فكتمتما المقدم علينا حتى اخبرنا به من هودونكما فقالوا والله ما علمنا الا كعلمكم فمن اخبركم قالوا عبد العزيز بن الأوز قالوا ومن اخبر عبد العزيز قالوا ابو اليقظان قال فخرجوا يجرون اريدتهما حتى دخلا على ابي اليقظان فقالا انت أعلمت عبد العزيز ان المقدم في سجلك على نفوسة افلح بن العباس فقال لا قالوا فقد ذكرت نفوسة انك أعلمته بذلك دوننا ودون غيرنا قال او قال ذلك الجنون قالوا نعم فنأدى يابشير خذ معك اعوانا اكفيا وجنني بعبد العزيز شر مجيء ثم قال ادخلا على نفوسة واجلسا حتى يأتي الجنون قال فم شعروا ان جيء به قال من أعلمك يا مجنون اني قد قدمت على نفوسة افلح بن العباس فقال انت أعلمتني قال في اليقظة ام في النوم قال لا ولكن في اليقظة قال وكيف ذلك قال رايتك اذا سمي لك رجل منهم انقبض ما بين عينيك واذا سمي لك أفلح انبسط ما بين عينيك فعلمت انك اياه تريد فقال خليا عن المجنون فقد كشف سرنا فلم تزل ايام ابي اليقظان لا ينقم عليه شيئا احد مما ولي من افعاله ما خلا اولاده فانهم ربما خرجوا عن الواجب من افعالهم اهـ .

(حكاية القاضي مع الامام وتركه القضاء)

كان أحد اولاد الامام على مارواه ابن الصغير غير محمود السيرة والكمال لله وحده وكان العلامة ابو عبد الله محمد بن عبد الله بن ابي الشيخ قاضي الامام حزيما في الأمر جريئا على تنفيذ احكامه غيورا على الحقوق وقد صدر من ابن الامام المذكور ما يوجب عليه الحد الشرعي ولم يصل القاضي الى اثبات الفعل عليه لعدم البينة بعد أن استعمل كل حيلة في الوقوف على حقيقة الأمر فقدم استعفاءه وترك القضاء لما عجز عن الاثبات مع تحققه عنده وقد ذكر ابن الصغير تفصيل الحكاية فخذها من كلامه باختصار قليل (قال) فلم يزل قاضيهم محمد بن عبد الله يأمر بأمر ابي اليقظان وينتهي الى نفيه لا تأخذه في الله لومة لانم الى أن حدث حادث فأصبح بالغداة فرمى اليه خاتمه وقمطره وقال له ول على قضائك من تريد فقال له ما بالك وما عراك فقال ما نقتم عليك شيئا ولكن نقتم على ابنك فغضب ابو اليقظان مما استقبله به ولم يرد عليه شيئا وكان للقاضي حاسدون ومبغضون فلما انصرف من الامام قال لمن حوله اذا كان بالغداة امضوا الى محمد واسألوه على ما نقم على وعلى من نقم لئلا تجره عما كان منه قال فقدموا اليه فأعلموه فقال لهم دعوني من هذا والله ما وليت له قضاء ابدا فانصرفوا عنه وقد وافق ذلك سرورهم لحسداهم اياه وبغيهم عليه وأتوا ابا اليقظان وقالوا اصلح الله الأمير الرجل به حق وجفاء ولك في المسلمين من هو أنفع للمسلمين منه فلم يزلوا به حتى صرفوه عنه وولوا القضاء رجلا يقال له شعيب بن مدمان فقلت يوما لسليمان مولى محمد بن عبد الله القاضي ما السبب الي كره به محمد بن عبد الله القضاء تى ألقى الخاتم والقمطر وحتى شافه ابا اليقظان بما شافه به فقال نعم اخبرك والله يا بني بينا نحن ذات ليلة جلوس بعد العشاء الأخيرة وكان كثيرا ما يؤثرني بجوائجه على غيري فبينما نحن كذلك اذ دق علينا الباب دقا عنيفا فقال لي ياسليمان قم فاني خشيت أن يكون حادثا من قبل السلطان ففتحت الباب فاذا بجارية منبهرة ومعها صقلي معه سراج قال فقلت ما بالك ايتها المرأة فقالت القاضي أريد فرجعت اليه فأعلمته فقال لي أدخلها قال فأدخلتها فلما مثلت بين يديه قال لها ما بالك ايتها المرأة وما جاء بك هذه الساعة فقالت نعم دخلت الساعة خدام من قبل زكرياء بن الأمير واخذوا ابنتي من بين يدي فقلت لابني قم فاتبعهم فقال أخاف ان يقتلوني أو يدسوا على عاملنا من عمالهم فيقتلني قال فسقط كالمغشي عليه ثم افاق فقال لي سليمان قم ثم قام فقال لي خذ السراج ولا يشعر بك أحد وتقلد سيفي واعطني¹¹⁷

عصاي قال ففعلت ثم قال أخرجني ابتها المرأة فخرجنا ثم قال لها الى اين تظنين يقصد بابنتك فقالت الى دار (الركات) قال فسار وسرت معه والجارية معنا حتى أتينا قرب دار الرجل فقال لي ياسليمان غيب السراج لئلا يشعر قال فسترته وقال لي دق الباب دقا لطيفا فاذا فتح الباب فاطهر السراج قال فلما رأى صاحب الدار وأهل الدار القاضي ارتاعوا ارتياعا شديدا وقالوا ما بال القاضي أعزه الله وما جاء به فقال لي ياسليمان اصعد الى أعلى الدار واحذر ان يتزل احد من جوانب الدار قال ففعلت قال ثم اقبل يتدخل بيوت الدار بيتا بيتا وموضعا موضعا فلا يرى شيئا قال ثم صعد الى اعلى الدار والمرأة معه فلم يجد شيئا قال ثم عطف على صاحب الدار فقال هل رأيت زكرياء بن الامير او كان معك اليوم فقال نعم كان اليوم عندي فلما كان الليل اوتي بفرس فركبه فقال هل تعرف له موضعا قال لا والله اصلح الله القاضي قال فسقط في يده ثم لم يصب الا ان وصلها الى دارها ثم انصرفنا الى دارنا فما نام تلك الليلة حتى طلع الفجر فغدا بجأته وقمطره فألقاه الى صاحبه اهـ ومن تأمل في هذه الحكاية وحكاية ابن عرفة تحقق ما للمقربين من السلاطين من قوة التأثير على افكارهم بقلب الحقائق واطهارها لهم في صورة تجبرهم على قبول اشاراتهم وان كانت خطأ أو فيها خراب ملكهم وهم لا يشعرون فان التأمل فيما اشار به مستشار الامام ابي بكر من قتل ابن عرفة يتضح لنا انه لم يقصد النصيحة بلا ريب والا فكيف يتأتى لابن عرفة الخروج عن الطاعة وهو صهر من جهتين ولم يكن في كلام ابن الصغير ما يدل على انه يتكلف للخروج بل قال ان الامام ادرك بعد فوات الأمر أن المشير بالقتل لم يقصد النصيحة بل له غرض خصوصي وهكذا الحال في مسألة حمل هذا الامام على قبول استعفاء القاضي هذا ولم نقف في كل ما تصفحناه من التواريخ وفيما لدينا من تاريخ ابن الصغير على قول سوء او ظلم او خروج عن العدل ينسب الى أئمة بني رستم او الى عمالهم أو أقاربهم الا هذه الحكاية وهي لاتعد شيئا في جانب ما سمعته وستسمعه ايها القارئ من سيرتهم المستقيمة في مدة لاتبعد عن مائة وخمسين سنة ولو وجد لهم غيرها لذكروه .

(ورع هذا الامام) (قال)

ومما يذكر عنه من ورعه وتعففه ان رجلا يكنى بابي سابق كان خادما لأبي اليقظان في جميع أسبابه وكان يتولى علف فرسه قال لي احمد بن بشير قال لي أبو سابق خرج ابو اليقظان يوما الى منزله الذي كان اختصه (بتسلون) يتفقد سائمته وعبده وأبطاً في انصرافه الى أن دخل الليل قال ابو سابق فحططت عن الفرس وربطته على مدرة وخرجت لآتي له بعلفه من عند حريف له فألفيته وقد أغلق حانوته فملت الى بيت المال ففتحتة وأخذت منه علف الفرس وأغلقت عليه ثم رجعت الى موضعي من القصر واذا بأبي اليقظان قد افتقدي مرة بعد أخرى فلما رأيته صعد اليه خادم فأخبره بمجيئي فقال له اصعده الى وكان يستريح الى ويسألني عن اخبار الناس فقال واحبسك وما أبطأ بك فأعلمته خبر الحريف وغيبته وفتح لي بيت المال وأخذني العلف منه وتعليقي اياه الفرس فقال آه ياابا سابق والله لانام محمد ولا أكل ولا شرب حتى تمضي وترد في بيت المال ما أخذت منه قال فمضيت والله في ليلتي تلك حتى أتيت حريفي وأخرجته من داره وأخذت منه علف الفرس ثم مضيت وانتزعت المخلاة عن الفرس فكلت ما بقي واقمت ما أخرجت من بيت المال ورددته فيه وعلقت ما بقي على الفرس ومضيت اليه فأصبته جالسا ينتظري فقال ماوراؤك ياابا سابق فأعلمته بما صنعت فقال لي أحسنت اما الآن فأجلس فمات ابو اليقظان فكل شيء وجد له من العين في

تركته سبعة عشر دينارا وكانت لأبي اليقظان في امارته وقائع صارت تاريخا لموالد الناس اهـ بلفظه

هذا حاله وقد حكمها من تاهرت بالمغرب الى أرض سرت بالمشرق فهكذا والله العدل وهكذا الزهد¹¹⁸

والورع وهكذا كانت الخلفاء الراشدون من أصحاب النبي (ص) أهل الانصاف والفضل فهو ورب البيت لجدير بأن ينشد في حقه البيتان اللذان رواهما ابن عباس رضي الله عنهما عن أبي بكر رضي الله عنه ونصهما
إذا أردت شريف الناس كلهم فانظر الى ملك في زي مسكين
ذاك الذي حسنت في الناس سيرته وكان يصلح للدنيا وللدن

(ولاية أبي منصور الياقوت النفوسي رحمه الله على جبل نفوسة وأخباره)

تقدم عن ابن الصغير أن الإمام رحمه الله عقد الولاية لأفلح بن العباس على جبل نفوسة وكأنه لم تمتد أيامه فانفصل عنها ولم نعلم سبب انفصاله وكيفيته إذ لم يتعرض لذلك أحد وعلى كل حال فهو أما بعزل أو استعفاء فولى الإمام رحمه الله بعده على الجبل العلامة الباسل أبا منصور النفوسي التندميري من إحدى قرى جبل نفوسة المشهورة بالعلم ذكر الشماخي رحمه الله عند الكلام عليه أنه كان في أول حاله من أهل الجملة ثم قال نقلاً من تاريخ نفوسة الكبير هكذا فترل مرة إلى (مدينة) تيجي فالتقى بأبي مرداس مهاجر الزاهد المشهور حافي الرجل قد أدماها الشجر والحجر في سنة قحط وشدة فأعطاه نعليه قال أبو مرداس (داعياً له) نزع الله منك يافتي ما لا يرضى ورد فيك ما يرضى قال أبو منصور فحسست حين دعا بما غشيني فوقع في نفسه التعلق بالمراتب العالية من العلم والعمل ببركة الشيخ وقد تقدم وكان بعد أن تولى أمور المسلمين إذا خرج لقتال العدو يركب بغلة ولا يتقى نبلاً ولا ضربة على نفسه ولا على مركوبه ولا تقع به ولم يهزم له جيش ولم تنكس له راية أهـ قال أبو زكرياء ولا يبالي في الله لومة لائم أهـ وكان القاضي الكبير على الجبل في زمانه ذلك العلامة العادل عمرو بن فتح النفوسي رحمه الله الذي قال فيه أبو العباس في الطبقات بحر العلم الزاخر بل حاز المفاخر وحاز قصب السبق وإن كان في السن متأخراً كان ضابطاً حافظاً محتاطاً محافظاً لم يكن تشغله المجاهدة في الله عن دراسة العلم ولم يلهه التبحر في العلم عما تعين عليه من مصادرة تلك المهموم لازم الدرس والاجتهاد ثم رابط على الجهاد له مصنفات في الفروع والعقائد أهـ وكان عزم على أن يفرز مسائل الفروع يبين ما استخرج من الكتاب وما استنبط من السنة وما كان من الإجماع فيرد كلا إلى أصله قال العلامة أبو العباس وصرف إلى ذلك وجه العناية حتى يكون تأليفه طرازاً لما صنف في علوم الشريعة فعاجلته المنية رحمه الله وذكر في السير أن أبا منصور خرج إلى قوم بلغه أنهم غصبوا غير الآخرين ولما وصلهم ادعى كل من الفريقين أن العير له فاشتبه عليه الأمر إذ كان الخلاف بينهم شديداً ولا شاهد عليهم غير الله فأرسل إلى عمرو بالمسارعة إليه ولما أتاه قبض على المتاع وصار يسأل كلا من الفريقين على حدة عما اشتمل عليه من الأصناف وعما في الاجرة من الزاد وغيره حتى اتضح لديه أصحاب العير وعرف المتعدين لعجزهم عن بيان ما خفي عنهم من المتاع إذ لم يطلعوا عليه فقال لأبي منصور هؤلاء (يعني غير الغاصبين) أصحاب الرفقة وهؤلاء (يعني الغاصبين) ضيافك كنني بذلك عن حبسهم وتأديبهم فأجرى أبو منصور الأمر على حسب ما حكم به عمرو ويذكر عنه أنه توجه إلى مكة لأداء فريضة الحج فدخل هو ومن معه على العلامة محمد بن محبوب عالم إباحية الشرق في عصره وهو في مجلسه فسلموا فرد عليهم السلام وادنى مجالسهم تعظيماً وأكرمهم ثم فتحوا باب المباحة في العلوم فسأله عمرو عن مسئلة من مكنونات العلم فتعجب ابن محبوب وقال إن كان أبو حفص (يعني عمرو) في شيء من هذا البلد فهذا السؤال منه فأخبره الحاضرون بالحقيقة فرد في تعظيمه ورفع مقامه وصار عمرو يسأله في مسائل الدماء حتى قال له هذا من مكنون العلم فلا يعلن به إمام كل أحد وكان عمرو أوصى الذين معه وقال لهم احفظوا¹¹⁹

لي السؤال وعلى حفظ الجواب ولما قضوا مناسكهم وعادوا الى الجبل جمعهم وقال هاتوا ماتكفلتم بحفظه فقالوا لم يبق في علمنا الا قولك احفظوا السؤال احفظ لكم الجواب وعنئذ صار يسرد الاسئلة والأجوبة حتى اتى عليها ولم ينس منها شيئا وهو الذي نقل مدونة ابي غانم بشر الخراساني ولولاه لما كان لها أثر وذلك ان ابا غانم وفد على الامام عبد الوهاب بتهرت ولما مر بجبل نفوسة ترك مدونته عند عمروس فألهمه الله نسخها فاجتهد في ذلك وكانت اخته عالمة جلييلة فلازما مكانا واحدا فهو يكتب وهي تملئ عليه وكلما ادركتهما الشمس تزحزحا الى الظل حتى كمل نسخها وكانت في اثني عشر جزءا ولما عاد ابو غانم من تيهرت وجد نقطة حبر في بعض صحائفها فتنبه الى ما صنعه عمروس وكأنه لم يستأذنه ولم يخبره فقال له قد سرقتها ياعمروس فقال عمروس سماني سارق العلم ولما وقع ما وقع من حرق كتب اهل المذهب بتهرت وغيرها حتى فقدت بقيت هذه النسخة ينتفعون بها قال الشماخي ولولاهما لبقني اهل المذهب من غير ديوان بالمغرب يعتمدون عليه وذلك ببركة عمروس وحسن نيته اهـ وقد طلب منه بعض اهل الكلام من علماء اصحابنا بفزان ان يؤلف كتابا في الأصول فكتب الكتاب المعروف بالعمروسي وكتب اليه رسالة فلما رآها الفزاني وهو صاحب الكتابين المعروفين بأصول الكلام قال النفوسي اقوى مني هكذا ذكر في السير وفيه انه مكث في المغرب يتعلم العلم عشرين سنة ولما رجع الى الجبل قال له أخوه انظر الى الاجراف التي في فدادينك كأنه يلومه على طول غيبته في طلب العلم فقال له لو رأيت اجرافا تتلم دينك لمان عليك أمري وفيه انه اشتكى اليه عبد من مولاه فقال له أصطليح مع مولاك وكان أبو مهاصر حاضرا وهو شديد الامر والنهي في دين الله فغضب من جوابه وقال له اعطه حقه من مولاه والا نزعك الله من ذلك المكان ورد فيه غيرك فنفذت فيه دعوة الشيخ فزع من القضاء بعد ذلك في زمن قريب بدون حدث ثم طلبوا منه الرجوع فأبى ولما سمع بوفاة ابي مهاصر اشتد أسفه وعظم فزعه حتى انه كان يليس نعليه فليس واحدة واخذ الاخرى في يده ذهولا وجزعا وذهب مسرعا لحضور الجنازة فما أدركم الا وقد دفنوه فرمى بنفسه الى الارض وتخط في التراب متحسرا فتوهم جهال (افاطمان) بلدة ابي مهاصر (وهي الان خراب آثارها تدل على كبرها) انه فعل ذلك تشفيا وقالوا قد استراح منه لأنه كان كثيرا ما يعترض عليه في بعض المسائل فيقبل منه تارة ويرد عليه اخرى بدون ان تنشأ بينهما عداوة او شيء في الخواطر ومما حكاه الشماخي عنهما نقلا من سير نفوسة ان بعضا سال عمروسا عن الحكم فيمن اخذ خرجا من مال ابن طولون في الخاربة الآتية وتاب ولم يعلم له صاحبا فقال له يسأل عن صاحبه فان اعياء طلبه تصدق به (لأن مال الباغي من الموحدين لا يحل بخلاف دمهم) وكان ابو مهاصر حاضرا ولا يجب الترخيص فغضب وقام قائلا لا اقعد في مجلس يفتى فيه بمثل هذا فقال له عمروس ان شئت ان تقعد فاقعد فان من شأن المسلمين ان لا يأسوا من رحمة الله وكأن ابا مهاصر يرى وجوب البحث عن صاحب الخرج حتى يرد اليه او لورثته ان مات ولا يصح التصديق به الا بعد تحقق ان لا وارث له والله اعلم

(محاربة ابي منصور رحمه الله مع ابي العباس بن طولون صاحب مصر)

كان ابو العباس هذا عاصيا لوالده واثارا عليه فحدثته نفسه في اثناء غيبة والده عن مصر بالذهاب الى جهات القيروان وانتزاعها من بني الأغلب والاستقلال بها عن ابيه وقد ذكر اغلب المؤرخين منا ومن غيرنا حكايته واقوالهم كلها متقاربة الا أن بعضهم ينسب طلب الاعانة من حصن (لبده) وعلى كل الاقوال فالسبب في قهره وتشتيت جموعه وانقاذ طرابلس وبني الاغلب من ظلمه واستبداده هو ابو منصور وعساكر نفوسة وهي 120

واقعة خلدت لنفوسة وابي منصور في بطون التواريخ ذكرا جليلا وكانت شاهد عدل اعترف بها كل المؤرخين ببسالة (نفوسة) وشجاعتهم وبتعففهم وتزهيمهم عن المال الحرام اعترافا لا يمحوه مرور الزمان وتوالي الأعصار قال المؤرخ المراكشي المالكي في بيانه وفيها أي في سنة 267 كانت فتنة ولد ابن طولون وذلك ان العباس ابن احمد بن طولون ولد صاحب مصر قدم في هذه السنة في ثمانمائة فارس وعشرة الاف راجل من سودان ابيه على خمسة الاف جمل الى مدينة برقة في ربيع الآخر يريد افريقية والتغلب عليها واخراج بني الاغلب عنها وحمل مع نفسه من بيت مال مصر ثمانمائة حمل دنانير ذهبا فأعطى أصحابه الارزاق بما وقيل انبلغ ما حمل من المال الف الف دينار ومائتا الف دينار ومعه ابو عبد الله احمد بن محمد الكاتب مكبلا لأنه اظهر الامتناع من الخروج معه وكان اشار عليه بأن يؤخر التقدم الى طرابلس حتى يصانع البربر فقال اخشى ان تقدم العساكر من الشام قبل احكام هذا الأمر يعني عساكر ابيه لأنه كان ثائرا على ابيه ويكون ايضا في ذلك فسحة لابراهيم ابن احمد فيتمهل في الاستعداد ولاكنى امضي عى فوري هذا فتاتي لبدة وطرابلس فجأة ثم أخذ في استمالة البربر بعد ذلك بالعطاء والافضال وأبعد من مصر فلا يقوم لاحمد بن طولون يعني باه امل في مطالبي لبعدى عنه وخرج يريد لبدة فاتصل خبره بابراهيم بن احمد فأخرج اليه احمد بن قهرب في الف وستمائة فارس خيلا مجردة لا رجل فيها باعداد السير والسرى بالليل حتى دخل طرابلس قبل وصول العباس بن احمد بن طولون الى لبدة ودخلها وأقبل العباس بن طولون وقد صنع له ببرقة خمسة الاف بند فحمل له على كل جمل رجلا ببند وزحف بثمانمائة فارس وخمسة الاف رجل فالتقى به احمد بن قهرب على خمسة عشر ميلا من لبدة وقد تأخرت الجمال بالرجال اصحاب البنود فلم يكن بينهم الا مناوشة يسيرة حتى انهزم احمد بن قهرب وهو يظن ان من ناوشه القتال من اصحاب ابن طولون كانوا مقدمة للجيش ووصل احمد بن قهرب الى طرابلس منهزما وركب العباس بن طولون أثره حتى نزل طرابلس ونصب عليها المجانيق وناصبهم الحرب وأقام محاصرا لهم ثلاثة واربعين يوما فتعدى بعض سودانه على بعض حرم البوادي (وهم اتباع بني رستم كما مر) وهتكوا الحجب فاستغاث اهل طرابلس بابي منصور صاحب نفوسة فقام محتسبا وناصر جيرانه من المسلمين وزحف في اثني عشر الفا من رجال نفوسة الى العباس ابن احمد بن طولون فناشبهه الحرب فقال العباس لأبي عبد الله الكاتب ما الرأي فقال له ببرقة خليفته والى اهل نفوسة في محاربة ابن طولون فانهزم وخرج الى برقة بعد انتهاب اهل طرابلس لجميع عسكره ولم يلتبس النفوسيون منه بشيء بل تورعوا عنه وكان ابراهيم بن احمد قد حشد الاجناد وضرب حلى نسائه دنانير ودراهم اذ لم يبق ابو الغرائيق مالا ثم خرج بنفسه يريد طرابلس فلقبه خبر هزيمة ابن طولون فبحث ابن الاغلب عن الاموال وأخذها ممن وجدت عنده فكان الرجل من اهل العسكر يبيع مثاقيل ابن طولون سرا بما أمكنه خوفا من أن تؤخذ منه اهـ وقال ابن سعيد المالكي في تاريخه الدر المكنون هكذا .

وخرج (العباس بن طولون) بأكثر تلك الأموال العظيمة والنعم والذخائر معه الى أن انتهى الى حصن يعرف بلبدة ففتحه أهله له وخرج اليه عامل ابن الاغلب فأطلق العباس لأصحابه نهب الحصن فقتلوا الرجال وفضحوا النساء وذاع الخبر واستغاثت طائفة من أهل هذا الحصن الى الياس بن منصور النفوسي رئيس الاباضية فدخله منهم غضب شديد وحية غليظة وكان العباس قد كتب الى النفوسي ان اقبل بسمعك وطاعتك والا وطيت بلدك بخيلي ورجلي وابتحت رحمتك وهذا متغول ذو منعة وله أهل كثير عددهم ولم يود الى ابن الاغلب طاعة قط .

(جواب ابي المنصور الى ابن طولون)

فقال الياس ابو منصور النفوسي (تحقيرا له) قل لهذا الغلام أما انك اقرب الكفار مني وأحقهم بمجاهدتي فقد بلغني من قبيح افعالك مالا يسعني التخلف معه عن جهادك وأنا على أثر رسالتي اليك اهـ وقد كان ابراهيم بن الاغلب انفذ الى محمد بن قهر ب عامل طرابلس بخادم يعرف ببلاغ في جمع من أهل القيروان كثير فكان القتال بينهم مناوشة وانصرفوا على غير مناجزة وصبح الياس ابو منصور النفوسي في اثني عشر الف مقاتل مستنصرين والخادم من خلفه فأطبق الجيشان عليه فقتل اكثر من كان معه مستبحين أمواله وذخائره وما كان حمله معه من مصر من السلاح والخيول وافلت بحشاشة نفسه وكان معه أيمن الاسود مقيدا فخلصه تقييده من القتل لأنهم علموا انه حرب له ورجع العباس على برقة اهـ

فلله در أبي منصور ما أشد كلامه وما اعظم خطابه فمن تأمل في جوابه هذا حق التأمل اتضح له ما كان له رحمه الله من الشهامة وعلو الهمة والاقدام وشدة الحرص على محافظة بلاده والقيام بحقوق جيرانه ورعاياه فلمثله تسلم مقاليد الولايات البعيدة كالجبل ولقد أصاب الامام في انتخابه وتعيينه رحم الله الجميع .

(حكاية سجن هذا الامام ببغداد في حياة والده)

قد تقدم منا وعد بذكر قصة سجنه فيها كما موضحة مأخوذة من كلام ابن الصغير على القاعدة المتقدمة ولا يخفي مما مر على سمعك ان لدولة الرستميين في ذلك العهد بين سائر دول الاسلام ذكرا دائما وشنشنة شائعة تؤذن بالرعب وتقضي نظرا ليل العموم الى العدل بامكان اتساع دائرة ملكها بين طبقات الأمم الى أمد بعيد غير معلوم الحد والنهاية وبذلك أخذ الخليفة العباسي في الشرق المتاخم بالحدود من جهة مصر لأرض سرت وجبل نفوسة التابعين لهذه الدولة شدة الاحتياط والحذر ناظرا الى المغرب بعين الخشية وقلب المخافة ولاسيما ابان الحج الشريف لكثرة الوافدين منه (مزوج) وقد استأذن هذا الامام رحمه الله والده رضى الله عنه في آخر ايام دولته في الحج فاذن له وتوجه مع الركب يصحبه رجل من نفوسة اتخذه مؤنسا وخادما الى أن وصل مكة المكرمة وقد اتصل خبر مجيئه ببني العباس في بغداد فاشتد خوفهم ورعيتهم .

(قال) فلما طاف وسعى اكتفتته رسل بني العباس اذ قد سعى به عندهم وقيل لهم ان مقدم الشراة قد قدم من المغرب من عند ابيه يرتاد البلاد ويرسل رسله في كل الافاق الى من كان على رأيهم ومذاهبهم ليأخذوا على أنفسهم الى أن يأتيه والده من المغرب فحمل ابو اليقظان من مكة وحمل معه رجل من نفوسة كان يخدمه حتى ورد بهما مدينة السلام (بغداد) وكان العامل اذ ذاك لأبي جعفر المتوكل أو غيره ممن كان في عصره فأمر بحبسهم قال الذي حدثني حدثني ابي عن ابي اليقظان انه قال وافق حبسي حبس أخي الخليفة كان قد نقم عليه فأمر بنا جميعا فحبسنا في موضع واحد قال وكان يجري على في كل يوم مائة وعشرين درهما كما يجري على أخيه اهـ وذلك عبارة عن عشرة الاف وثمانمائة قرش في الشهر ومائة ألف وتسعة وعشرين الفا وستمائة قرش في السنة بعملة عصرنا تقريبا وهكذا جرت سنة الملوك وعادتهم مهما أسروا في حرب او قبضوا في حين غفلة او خيانة على واحد من أسرة ملوك وغيرهم اظهرا للقوة وتوقيرا لمقام الملك وعن الملوك لا تسأل .

(خبر ابي اليقظان مع اخي السلطان المسجون معه)

(مزوج) فبقى مع أخي السلطان على أحسن حال وأنس قد رسخ في خاطر كل مودة الآخر فلا يطيب لأحدهما طعام ولا شراب الا بحضور الثاني وصارا شريكين في الفرح والحزن والرضاء والسخط وكان أخو الخليفة كثير التعلق بابي اليقظان لما رآه فيه من حسن الأدب والتضلع في العلوم والورع الكامل وكثير الإعجاب به من حيث اتقان الطهارة ومراقبة أوقات الصلوات والقيام بالليل والناس نيام فتالفا وامتزجت مودتها وعقدا أخوة الصفا وجعلا الصبر ديدنا والتسليم للقضاء البرم من عند المدبر الحكيم القادر عمادا لا يغفلان عن النظر في قوله تعالى (انما يوفى الصابرون اجرهم بغير حساب وقوله واصبر على ما أصابك ان ذلك من عزم الأمور) وكأني بهما ولسان حالهما يردد قول الشاعر .

(لايسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الدم)

وقد رأى أخو الخليفة من أبي اليقظان في تلك المدة من أنواع البر والاكرام والجلود والثبات والتجلد ما أدهشه وأدى به الى الاستغراب وذكره بمحاسن الصفات ورآى أبو اليقظان منه مثل ذلك وفي كل ذلك رفيقه النفوسي مسرح في المدينة بما يحتاجه من الخارج وبينما هما في تلك الحال بين الشدة والرخاء والخوف والرجاء لا يباسان من رحمة الله ولا يسأمان من قدر الله اذ اختل نظام داخلية الخليفة وقامت قيامة الرعية وأصبح مقتولا .

(عقد الخلافة لرقيق أبي اليقظان وأخباره معه بعد ذلك)

(مزوج) وبعد أخذ ورد وقيل وقال تمحضت الخلافة لرقيق أبي اليقظان أخي الخليفة فنودى باسمه وما شعر حتى دخلت الصقالية والاجناد عليه في السجن واختطفته من بين يدي أبي اليقظان الى دار الخلافة وقدمت له البيعة وما تم له الأمر وثبت على الكرسي حتى امر باخراج أبي اليقظان من السجن ودعا احد وزرائه وكلفه بحفظه واکرامه الى ان يتفرغ لطلبه فبادر الوزير ممثلا للأمر ودخل على أبي اليقظان وأخبره بالقصة وحمله الى محله وقام بواجب حقوقه برا واکراما فطاب نفسا وانشرح صدرا وامل الخلاص من ربة التغرب واستقرب اللحوق بالوطن العزيز مسقط الرأس ومقر الاهل ومنبع العدل .

كم منزل في الارض يالفه الفتى وحينه ابدا لاوّل منزل

ثم أن الخليفة اراد اظهار ماله من القوة وكثرة الجنود لأبي اليقظان لكي يعلم ذلك ويخبر والده ورجال دولته اذا رجع اليهم فيأسوا من الطمع فيه ان خطر ببالهم .

(قال) قال الذي حدثني حدثني أبي عن أبي اليقظان انه قال فيبينما انا عنده (أي عند الوزير) ذات يوم اذ انصرف من قصر الخليفة فوقف في صحن داره على فرسه وخرجنا اليه ووقفت معه فبينما نحن كذلك اذ أقبل عشرة اناس فترلوا عن دوابهم وبادروا نحوه يقبلون يديه ورجليه فقال لهم اتدرون فيما ذا ارسلت اليكم فقالوا صلح الله الأمير مالنا في ذلك من علم فقال اذا كانت الغداة فاحضروا الى عشرة الاف فارس فقالوا نعم صلح الله الوزير قال فعجبت من قوله ومن قولهم وقلت يهزأ بهم أم يهزؤون به أم اراد أن يظهر لي شيئا أتحدث به في المغرب لا اصل له قال فنظر الى والي انكساري فشرع بي قال فقال لي مالك يامغربي لعلك استعظمت ما سمعت فقلت صلح الله الوزير وكيف لا استعظمه ولو كان ما سألتهم اياه دراهم في اكمامهم لما استطاعوا احضارها اليك بالغداة وكيف بعشرة الاف فارس فقال يامغربي ترى هؤلاء العشرة قلت نعم قال تحت يد كل واحد منهم عشرة كم معك

قلت مائة قال وتحت يد كل واحد من المائة عشرة كم هذا معك قلت الف قال وتحت كل واحد من 123

الالف عشرة كم هذا قلت عشرة الاف قال انما تخرج هذه العشرة فيدعو كل واحد منهم من كان تحت يده فيجتمع ذلك كله في اقل من لحظة العين ولولا سعة هذه الارزاق وآخذوها يامغربي لما صببنا هذه الاموال الا في الدجلة والفرات قال فأعجبني قوله وقلت يمكن ما قاله اهـ .

(طلب الخليفة من ابي اليقظان الاقامة ببغداد)

(قال) (ابو اليقظان) فبينما انا كذلك عنده اذ أمر الخليفة باحضاري قال فلما مثلت بين يديه أمرني بالجلوس فجلست قال فذكر ما كنا عليه (من الحال في السجن تأنيسا له) قال فكان يرى مني اجتهادا في الصلاة وغيرها فقال اني أحب ان اوليك من المشرق أي بلد أردته فقلت له الخيار لي في المشرق دون المغرب أم في المشرق والمغرب فقال لي بل الخيار اليك في المشرق والمغرب الا اني اختار لك المشرق لكثرة خيريه وأرغب لك عن المغرب لكثرة شره فقلت له اذ رددت الخيار الي فأنا اختار ماشئت قال ذلك اليك فقلت اجمع بيني وبين والدي فقال لي ما تريد بالمغرب من خير ولكن اذا أردت ذلك فالأمر اليك ثم عطف علي فقال لي جرايتك في الحبس انظر الى من توصي بها لنلا يعفو اسمك من عندنا فقلت الى فلان ابن فلان الخياط رجل بقرب الحبس قال وكنت أقبلت على النفوسي المرفوع معي وقلت له اقم تقبض كل يوم عشرين ومائة درهم فذلك خير لك من المغرب فأني علي فقلت له فاذا ابيت فالى من ترى ان تصرفها فقال لي الى فلان بن فلان الخياط فاني كنت اجلس عنده واستريح اليه وأشاروه في أمرك قال فلما ذكرت اسم الخياط للخليفة قال لي بم استحق ذلك منك قال فأعلمته بما قال النفوسي قال فأمر به فأجريت عليه (وأصبح بعد ان كان فقيرا من الاغنياء المعروفين عند السلطان وخير الصدقة ماورثت غنى) قال فكان النفوسي بعد ذلك بتبهرت اذا كر به امر ونزل به ضيق يقول لأبي اليقظان لم اقبل منك ولو قبلت منك لكان العشرون والمائة درهم في كل يوم اعود علي مما أنا فيه قال امر الخليفة الوزير بالنظر في امري وامر جهازي وامر لي بسرادق فضرب لي ثم أمر لي بنفقة وكسوة وكتب لي كتابا الى عماله في الامصار بالحفظ والرعاية والبر والاكرام فأقمت حتى قضيت حوائجي ثم خرجت اهـ بلفظه .

(غريبة) ومما يحكي عنه انه بعد أن تحرك من بغداد مقبلا نحو المغرب حسب منجمو الخليفة العباسي حسابهم فرأوا انه لابد من أن يتولى الملك بالمغرب فضاق صدر الخليفة ورجاله لذلك وقالوا قد أطلعناه على أمرنا وكشفنا له احوال بلادنا وتركناه وذلك هو عين ما كنا نخافه ولانأمن أن يهاجمنا يوما ما اذا تقلد الملك وهما بالارسال في أثره ليردوه وكان هو رحمه الله ممن لايسابق في علمي التنجيم والرمل فصادف الحال أن حسب لهم وقت حسابهم له فرأى انهم يبحثون عن موقعه ليقتفوا أثره فأمر باحضار قصعة كبيرة مملوءة ماء ودخل في وسطها وبينما هم في تحرير حسابهم اذ ظهر لهم أنه في الماء فقالوا قد دخل البحر ونجا فتركوا تتبعه ومر هو في طريقه الى أن وصل والله اعلم .

(ولاته وعدد اولاده ومدته)

لم نعلم له رضي الله عنه من الولاة والعمال غير أفلح بن العباس والى جبل نفوسة وابي منصور ولم نر لوزرائه ذكرا وقد أهمل التاريخ المتأخر ذلك كله لقلة المواد فله عذر وفيما قدمناه عن علومه من الكلام ما يغني عن الاعادة هنا (مزوج) وله رضي الله عنه من الاولاد المذكور عدد منهم يقظان الذي كني هو باسمه وقد خرج الى الحج في حياته ويوسف وهو المكني بابي حاتم وأبو خالد وعبد الوهاب ووهاب وزكرياء وغيرهم ممن له ذكر وكان من 124

بينهم ابو حاتم شابا حسن المجاملة طلق اخيا باسط الكف جميل الهيئة كثير المرؤة واسع الاحسان والبر بأثرابه يطعم ويكسو ويجود وكانت أمه غزال مالكة لأمر ابي اليقظان وحشمه فوقعت محبته في النفوس ورشحته العامة للإمامة بعد أبيه حتى أنه في بعض الاعياد تخلف والده عن الحضور الى المصلى مع الناس فخطر ببالهم ما خطر وكان ابو حاتم موجودا فحملوه على الاعناق ونادوا بطاعته ولم اتصل الخبر بالامام والده قال لأمه احذري ياغزال فقد أصبح ابنك اليوم سلطانا او مافي معناه من الكلام ولا زال بعد ذلك يقلده مهم الامور ويقدمه في حل مشكلات الامارة تدريبا له واعلاء لقدره وتعظيما لشأنه في انظار الرعية واظهارا لما لديه من الاقتدار على الاعمال الشاقة الى ان أرسله في جيش من وجوه زناتة لحفاظة قوافل اقبلت من المشرق فيها من الاموال ذهبا وبضائع مالا يحصى خوفا من اعتداء سفهاء زناتة عليها اذ كانوا محييين بطريقها فأدركت الامام ابا اليقظان منيته وانقضى اجله عن عمر يناهز مائة سنة قضى منه اربعين سنة في خدمة الملة واعلاء كلمة الدين واقامة شعائر الاسلام ومحافظة المسلمين وما قاله المراكشي من أن مدته 27 سنة عار عن الصحة جدا ولا معنى له فجهر ودفن والناس عنه راضون وولده غائبان يقظان بالحج وابو حاتم بعسكره في محافظة قوافل تجار الشرق فلحق الناس من الكدر والأسف والنحيب مالا يوصف فرحمه الله رحمة واسعة وذلك سنة احدى وثمانين بعد المائتين 281 باتفاق المؤرخين حتى المراكشي الذي خالف في عدد مدته .

(خلافة الامام ابي حاتم يوسف بن محمد رحمه الله)

(مزوج) وما كاد يتم دفن الامام رحمه الله حتى سارعت العامة الى المناداة باسم ابنه ابي حاتم يوسف اماما في الأزقة والأسواق بدون اجتماع وتشاور مع رؤساء القبائل وأسرعهم الى ذلك رجالان أحدهما محمد رباح وثانيهما محمد بن حماد ولعله أخا بكر بن حماد الشاعر المشهور وفي الحال أرسلت اليه الرسل فوافته وهو مع القوافل وبلغته وفاة والده وعقد الامامة له فكر راجعا معهم الى المدينة .

(قال) فنادوا لاطاعة لأحد الا لأبي حاتم على مسيرة يومين من المدينة أو أكثر فلما وصل الى باب المدينة ازدحم الناس من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن يساره فبايعوه فما وصل المسجد الجامع الا وقت الظهر فأصعدوه المنبر وبايعوه وكبروا حوله وحملوه على الأيدي والاعناق حتى أوصلوه الى داره ثم أرسلوا الى القبائل فبايعوه اه فتمت له البيعة وخلصت له الامامة بدون انكار ولا معارضة من أحد الا ما كان خفيا في نفوس بعض من أهل المدينة ولم يبوخوا به كعمه يعقوب بن أفلح فانه منذ عقدت له البيعة بارح المدينة ورحل الى زواغة فسكنها ولم يدخل للرستمين جمعا ولا أعان ابن أخيه بشيء من قول أو فعل وان لم يصدر منه مع ذلك ما يكدر الراحة قط فشمروا ابو حاتم لمباشرة أموره عن ساق الحزم وسار بسيرة اسلافه الصالحين واستقام له الأمر وأجمع الناس على ولايته وسلمت بواطن العامة من جهته مدة سنة على ما قاله المؤرخ المراكشي وأقر من أقر من عمال والده وبدل من بدل ومن أقرهم على عملهم ابو منصور النفوسي في الجبل ثم تكلف بعض رجال دولته واخوته وأعمامه أن يجعلوا له ما يقتضيه مقام الملك من الأبهة والحجاب وابي الناس الا الدنو منه والدخول عليه في كل وقت مست الحاجة اليه مثل ما كان عليه قبل الامارة فوقع بذلك في الخواطر شيء من التنافر .

(سعي بعض المفسدين في المروق من طاعة الامام ونفيه اياه وما نشأ عنه)

(مزوج) وكان بالمدينة من مسموعي الكلمة من المشائخ من غير الاباضية ابو مسعود وابو دنون 125

الكوفيان المتفقهان على مذهب الكوفيين وعلوان بن رعلان وغيرهم ممن وقع عليهم من الامام بعض اعراض وغض نظر لما تشبثوا به قبل ذلك من اتخاذ الوسائل لاثارة الفتنة وتحريك الفساد وتناجيههم بالطعن والقبح في السيرة فانضم اليهم محمد رباح ومحمد بن حماد اذ لم يجدا مع الامام نفوذ اغراضهما وقضاء مقاصدهما مع انهما اول من نادى بالبيعة له فاتفقا على الغدر به ووعدا المشائخ المذكورين بذلك (وهكذا كان وقع لجده الامام ابا حاتم فلم يشك في صحته لما انه في حياة والده خرج ذات مرة من عنده على غضب فلاقاه رباح هذا وابن حماد وقد علما بما وقع بينه وبين والده فقالا له دع لنا هه الخوخة (وهي باب صغير كان معدا له خاصة يدخل معه الى والده) فنقلته وتولى الامر وتستريح فزجرهما واضمر لهما في نفسه ما أضمر اذا أمكنته الفرصة فيهما لما قصدها من الخيانة وهاله أمرهما ولم يجد سبيلا لذلك الى أن بلغه ما ذكر فأمر بابعادهما ونفيهما .

(قال) وكان محمد بن حماد على بعض أميال من المدينة منزل يقال له النلة قد جمع الاشجار والانهار والمزارع والنخيل والقصور اهـ فطلبا تعيينه لمكثهما مدة النفي فأصدر الامام أمره بذلك وتوجها اليه (وليس ذلك من الامام بمناسبة اذ النفي لمثل هذين ولا يتمكنون من امداده وحمايته وبذلك تحصل التربية والتأديب كما هو شان سلطاننا المظفر عبد الحميد ابن عبد المجيد العثماني من نفيه ابناء الترك وغيرهم ممن هم من ناحية القسطنطينية دار خلافته الى فزان وغدامس وغات وجبل نفوسة وطننا من ملحقات طرابلس الغرب بقطعة افريقيا ونفيه اولاد العرب منها ومن غيرها الى أرض الروملي والاناطول وغيرهما من بلاد اوربا وآسيا حتى ان المنفى غالبا لا يعلم بحاله مدة اقامته الى أن يرجع او يموت) ولقائل ان يقول ان امثال هذه الأمور تؤخذ بالتجربة والتكرار فكلما حدث داء اخترع له دواء فان افاد فذاك والا اخترع له غيره وعلى ذلك جاء قول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه (أحدثوا أي الناس امورا لم تكن من قبل فأحدثنا لهم) أي أتينا لهم بما يليق بذلك من التأديب الذي لم يكن قبل ايضا ولعل الامام في ذلك نظرا لم ندركه أو لم يصب المرمى اذ كانت العقوبة سيئة ببقيا هناك في أنعم عيش وأرغده الا أن كلمة النفي حملتهما حملا ثقيلًا لما هما عليه في نظر العموم من الوجاهة والقبول حسب زعمهما وضلا يراسلان أصحابهما بالمدينة لاستعطاف الامام والعفو عنهما ولما أعياهما الأمر ولم يتحصلا على نتيجة عادا الى توجيه العتاب الى اصحابهما اولئك المشائخ والى لومهم وتوبيخهم على السكوت عنهما وصرف النظر عن الاعتناء بما يوجب ردهما الى المدينة مع انهما ممن يأبى العدل والانصاف ابعادهما وحط منزلتهما بصفة النفي وصارا يتابعان الرسائل ويكرران الطلب بعبارات التعجيز والتكدير لأصحابهما الى أن استفزهم الكبر وغرهم اللعين فاجتمعوا وقالوا كيف يسعنا السكوت عن مثل هذين الرجلين مع ما لحقهما من الاهانة والذل على غير جناية وما هذا الا منكر يجب علينا انكاره وتغييره وقد علمتم انه لا سبب لنفيهما الا توجه التهمة اليهما بمجاملتنا وموافقتنا ثم عقدوا الرأي على ادخالهما رضي الامام ام سخط وأرسلوا اليهما من انتخبوه من رجائهم وتهيئوا لملاقاهم .

(قال) فما شعر ابو حاتم الا والتكبير عليهما بالمدينة ففرع لذلك وارتاع وعلم انها ليست بدار قرار فاجتمع اليه قومه وأهل بيته فقالوا له قد أعلمنا هذا اولا ولكن أقم بين ظهرائي القوم ونحن نخرج الى حصننا الذي به مواشينا وعبيدنا وهو حصن يعرف (بتالميت) في طرف من لواتة فاذا اصرنا اليه واجتمعنا به ورأينا به لواتة وغيرها من القبائل ناصرنا اخرجناك الينا ففعلوا ذلك فلما رأت بقية العجم الساكنين بمدينة (تيهت) ما فعلت الرسمية خرجت الى حصنها وفعلت نفوسة مثل ذلك .

(خروج الامام من المدينة) (قال)

ثم أقام ابو حاتم بعد ذلك اياما ثم خرج وخرج معه من وجوه البلد السمعيين وغيرهم نحو مائتي رجل وكان الخارجون معه حماة البلد منهم رجل يعرف ببيكر بن يبيب ومن السمعيين رجل يعرف ببيكر بن عبد الواحد وكان هذان الرجلان فارسي المغرب وبقيت العامة ومشائخ البلد في جمع عظيم وعلموا ان الحرب قد دهمتهم فشرعوا في بنیان حصنهم ثم أن اباحتهم لما خرج اجتمعت لواته كلها اليه فأعطى الاموال وحمل على الخيل واجتمعت أهل قبائل الصحراء اليه خلا الحصن المعروف (بتالغمت) وأهله الصفرية فانهم مالوا الى المدينة اهـ وقد وقفت على موضع هذا الحصن اثناء رجوعي من بني ميزاب عام ألف وثلاثمائة وستة عشر 1316 وهو في ربوة عالية يحيط بها كاهالة واد كثير الاشجار ذو منظر لطيف اذا امتلأ بماء الامطار وصار كالبحر كما رأيته وبقيت فيه تلك الاشجار مصطفة كالسفن السابحة في البحر وقد بنى بأعلاها الفرنساويون الآن (فندقا) على هيئة حصن متسع يوجد فيه كل ما يستحقه المسافرين وفيه بيوت معدة للنوم بأسرة وفرش لا تتجاوز اجرتها في الليلة ثلاثة دراهم وقد بني من انقاض الحصن القديم على حسب التخمين اذ لم يبق منه الا آثار وأطلال قليلة وهو الآن محط رحال القوافل والمسافرين والعربات (الكروسة) لجهات متعددة من أعمال الجزائر وقد جمعني القدر فيه بأفضل من تجار بني ميزاب أتوا من بلاد ومدن متفرقة وبتنا جميعا في ليلة أنس وسرور ثم ذهب كل الى حيث كانت وجهته وبهذا الاسم يسمى الآن أيضا وان سمي هذا باسم ذاك وهو في محل آخر فאלله أعلم .

(محاصرة الامام للمدينة)

وبعد أن اجتمع للامام جموع ملأت السهل والجبال عول على محاصرة المدينة وقد ذكر ابن الصغير الحادثة مفصلة فخذها على القاعدة المتقدمة .

(قال) ثم جمع ابو حاتم جموعه وزحف الى المدينة من ثلاثة مواضع من القبلة والمشرق والمغرب فتولى بنفسه القبلة مع لواته والرستمية ومن شائعها وتولى المشرق العجم وصنهاجة ومن شائعها وتولى المغرب طوائف من الناس مع نفوسة وكان قتال شديد من الأوجه الثلاثة وكانت الدائرات في الأوجه الثلاثة على اهل المدينة اهـ (مزوج) فقتل من المعروفين بالمدينة من ناحية المشرق رجل يعرف بابن مادة قتلته العجم ومن المعروفين من ناحية القبلة رجل من أهل دمر ولما رأى مادة ابنه مقتولا داخله الغضب فحمل على رجل عجمي يسمى (برجا) فقتله ولما علم به الناس بادروا اليه ليقتلوه فلم يمكنهم وكادت الفتنة تعود فيما بينهم داخل المدينة فاعترفوا لانفسهم بالخطأ في اثار الفتنة وأيقنوا بأن أمر الرعية لا يضبط بدون سلطان وقالوا قد كان في أول الأمر قيامنا لأجل نفي رجلين فقط حسباه منكرا وقصدنا تغييره ثم وقعنا فيما هو أعظم من سفك الدماء ظلما وعدوانا فقوموا بنا الى تسليم مقاليد الأمور لصاحبها وادخاله المدينة حتى ينتقم من هذا المعتدي وشيعته ويحكم كيف شاء ومالنا في الحرب والفساد من خير ثم ارسلوا له الرؤساء والمشائخ الذين كانوا سببا في الفتنة ليحكم فيهم بما يراه مما يوافق الشرع الشريف فصعب عليهم ذلك ونكصوا على أعقابهم وأبوا فعاد الامام الى حرمهم .

(مبايعة أهل المدينة للعلامة يعقوب ابن افلح عم الامام)

(مزوج) ولما ضاق بهم الحال من الحصار اجمعوا على أن لا طاقة لهم بالاستقلال دون رأس من 127

الرستميين وقال قائلهم قد علمتم ما كان ليعقوب ابن افلح من مصارمة ابن اخيه منذ ولى الأمر وهو بزواغة غير بعيد فarsلوا اليه وأعرضوا عليه البيعة حتى نرى رأيه فكتبوا كتابهم ووجهوه اليه مع امناء منهم فماتوا عن قبول طلبهم واجابة دعوتهم وقد كان لولا هذه الفعلة التي تاب منها وندم بعد ذلك كما قال ابن الصغير في قوله كان بعيد المهمة نزيه النفس ماجس بيده دينارا ولا درهما وكان اذا أتى وكيله بغلاته أمره ان يجعلها تحت بردعة له يجلس عليها واذا اراد اخراج شيء منها دفعه بقضيب في يده وكان اذا سافر ونزل يقوم لم يأكل لهم طعاما وكانت له بقرات يأمر بجلبها بين يديه في اناء جديد فاذا امتلأ شربه أجمع ثم يقوم عليه ثلاثا لا يأكل طعاما ولا يشرب شرابا ولا يخرج لبراز وكان وضوءه وضوء طاهر في الموضع الذي يكون فيه شهد منه ذلك جماعة من صحبه واستفاض ذلك عنه حتى صار كالعيان وكانت له اخلاق في لباسه وركوبه تخرج عن طبع البشر حجزه سراويلة في جنبه وركوبه فرسه من بين يديه وكان له فرس أشقر لم يكن بالمغرب قبله ولا بعده به يضرب المثل الى اليوم اهـ

(مزوج) ولما وصلهم ودخل المدينة عقدوا له الولاية ورجعت اليه جماعة من لواتة وعاد أهل المدينة في نشاط الى الحرب مؤملين الفوز (وما علموا ان بيعة ابي حاتم (الامام حقا) لم تبرح من رقابهم.

(حرب الامام مع عمه يعقوب)

(مزوج) وعندئذ تجددت الحرب بين الامام ابي حاتم وبين عمه يعقوب اياما ثم ضعفت وسكنت بعض السكون الى أن تحرك الامام زاحفا بمن معه الى المدينة من جهة والرجل الموسوم (بوانودي) ومن معه ايضا من جهة اخرى فأمر يعقوب بابواب المدينة فأغلقت وترك واحدا وقف عليه بنفسه مع من كان معه ودارت الحرب بين الفريقين الى أن حضر وقت الظهر ونودي في الصفوف بالآذان (ولعمري ان هذا من أهل المدينة لمن العبث فما يغنيهم عند الله شدة هذا الاحتياط بمراقبة وقت الفريضة في لجة العصيان والنفاق) ثم اشتغلوا بالصلاة فبدلت نيه (وانودي) ومن معه اذ رأوا ذلك وندموا على قدومهم ممن في عسكره من العجم الى الجهة الشرقية وترك العسكر بحاله راجيا أن يصيب غفلة من أحد الابواب فيدخل المدينة ولما قصد الباب وكان عامرا بالرجال فنحوهم وحملوا عليهم حملة رجل واحد فتولى منهمزا وانصرف (وانودي) بمن معه تاركا للقتال فضعفت الحرب بعد ذلك وطمع الناس في العافية واشتات ارواحهم الى الصلح واذعنوا للراحة .

(عقد صلح بين الامام وعمه)

(مزوج) وبينما الناس في ذلك يتربقون من أهل الخير والاصلاح السعي في كف هذه الفتن وايقاف سيرها اذ قدم ذلك الرجل الشهير في قومه صاحب الرياسة والتقدم والقدر الجليل ابو يعقوب المزاتي بجميع جموع مزاتة اولئك الاغنياء اولو الثروة الواسعة والعدد الوافر اهل الحرث في بطون الاودية والنسل من حمر النعم والبقر والغنم في بسائط الارض وجبالها الذين امتلأ بأموالهم واسع بيت مال المسلمين بما يؤدونه مما وجب عليهم من الحقوق الشرعية حتى قال فيهم الامام عبد الوهاب رضي الله عنه ما قام هذا الدين الا بسيوف نفوسة واموال مزاتة ونزل حول المدينة فتقدم اليه رؤساء القبائل وأهل الفضل ممن يسعى في اصلاح ذات البين وشكوا له ما حل بالناس بسبب تلك الفتن من قطع السبل وفراغ الايدي وهلاك الحرث والنسل واهراق الدماء وارتكاب الفواحش والنجاسة بمعاصي الله وكلفوه بالدخول بين الفريقين يجعل هدنة الى مدة معلومة يتعامل فيها الناس وتمتد الخطا مع العافية 128

والأمن وتتعارف الناس وربما بذلك تلين القلوب وتنحسم العداوة ويعقد صلح ينقطع معه الفساد فأجاب وجد في السعي في ذلك ورغب وصرف عنايته الى أن رضي الطرفان فطلب من كل أن يقدم اليه من يختاره ويأمنه لعقد الهدنة فقدم الامام ابو حاتم مكنودا وابن ابي عياض اللواتيين وقدم يعقوب ذلك العلامة الجليل الشيخ عبد الله بن الممطي المذكور آنفا وبرزوا للاجتماع وسلموا الأمر لمتولي العقد فاتفقوا على رفع يد الامام ابي حاتم ويد يعقوب عن النظر في الأمور مدة اربعة اشهر يسود فيها الأمن وتنطلق السبل وتتخالط الناس الى أن يأذن الله في ملكه بما يشاء فقبل الفريقان ذلك وانقطعت الحركة ووجد الناس حلاوة الطمأنينة ورجوا العافية ولم يرح الامام في اثناء ذلك عن استمالة وجوه المدينة وشبانها بجميع انواع السياسة من حسن الملاحظة والاكرام ومواصلة المنقطعين بصلات البر سرا وعلانية الى أن أطبقوا على ولايته والرضاء به جميعا الا من نذر ممن استحب العمى على الهدى ورغب في الفتنة لنهب أموال الناس بالباطل وأبو يعقوب المزاتي في ذلك كله لم يلو العنان عن الجد في حصول الصلح واتمام عقدة الاتحاد وشد عرى الاجتماع وكان في المدينة رجلا ن يسمى احدهما بأحمد والآخر بمحمد ويعرفان بابني دبوس لهما من عظيم الجاه ونفوذ القول والشهرة بالشجاعة وشدة الاقدام وكثرة الاتباع لدى الخاصة والعامة حظ وافر لم يكن لغيرهما من الوجوه والاعيان ولهما دار تعرف بالكنيسة .

(اجماع اهل المدينة مع عموم المسلمين على خلافة الامام وهروب يعقوب الى طرابلس)
(مزوج) وبينما الناس ذات يوم في عيد من اعيادهم اذا ابتداء الرجلان السير من طرف المدينة وامامهما نفر يقولون من أراد العافية فليصعد الى الكنيسة فبادر الناس اليها ولم يتخلف أحد غير يعقوب وشيعته وبعض مشائخ منهم ابو مسعود شيخ المدينة (رئيس البلدية) الا أنه لما رأى الناس كافة ذاهبين افواجا افواجا الى مجتمعتهم صعد معهم ليعلم حقيقة امرهم ومنتهى غرضهم فوجدهم قد فوضوا الأمر في المسئلة لابني دبوس فالتحدر ممتلاً غيظاً لما فهمه من مآل الاجتماع وانفض المجلس ولما جن عليهم الليل ركب محمد وأحمد مع من له علم من أهل الرأي بلباب القضية قاصدين الامام ابا حاتم ولما بلغ الخبر الى يعقوب وحزبه تسارعوا الى خيلهم وخرجوا في ستر من الليل راجعين من حيث اتوا بعد أن كدروا سماء الأمن وحيروا مركز الامامة نحو اربع سنين كاملة على ما ذكره المراكشي وقصدوا زواغة ملجأ الفارين لقرىها من البحر وكونها في الحدود يسهل الوصول منها الى حيث شاءوا متى وقع عليهم الطلب والبحث وان كانت قرية من جبل نفوسة اهل الشدة والبأس وحصن الخلافة وسيف الامامة .

(دخول الامام ابي حاتم المدينة بالاجماع من المسلمين) (ممزوج)

وبينما الامام في قصره بأبي مينة اذ دخل عليه ابنا دبوس ومن معهما وقالوا له اركب معنا الساعة ولا تتأخر ولا تنتظر رفيقا واخبروه بالقصة ولثقته بالرجلين لأمانتهما خرج معهم ولم يصحب من عسكريه ولا من رجاله احدا ولم ينفلق الصبح الا وهم بباب المدينة واذا بها خاوية من يعقوب وزمرته ومن كان على شاكلتهم فهرع من بلغه الخبر من الناس الى ملاقاته من الجهات وتباشروا وعمهم الطرب جميعا فدخل المدينة ولا نزاع ولا حرب بعد أن هجرها وحاصرها اربع سنين فقصد دار الامارة وأتته الوفود وتقدمت الخطباء والشعراء وارباب الجرائم الى بابه لطلب العفو والتهنئة ومن بينهم ابو بكر بن حماد الشاعر المشهور المتقدم الذكر القائل لما مثل بين يديه

سبحانه في ارضه وسمائه	ماذا يدبر ربنا في امره
مستبشرين بفضله وعطائه	رد الملوك الى محل قرارهم
ما أغفل الثقلين عن نعمائه	فتبارك الله اللطيف بصنعه
والبحر أمسكه على ارجائه	رفع السماء بلا عماد بين
وعلى الجبال الراسيات بمائه	لولاه فاض على العباد بموجه
تنزين الدنيا بطول بقائه	ان المتوج يوسف بن محمد
وبعدله وبفضله وسخائه	اخذ البلاد بسيفه فاستسلمت

وهو القائل ايضا على ما ذكره العلامة البرادي رحمه الله في كتابه (الجواهر)

ومونسة لي بالعراق تركتها	وغصن شبابي في الغصون نضير
فقلت كما قال النواصي قبلها	عزيز علينا ان نراك تسير
فقلت جفاني يوسف بن محمد	فطال علي الليل وهو قصير
ابا حاتم ما كان بغضه	ولكن أت بعد الأمور امور
فأكرهني قوم خشيت عقابهم	فداريتهم والدائرات تدور
وأكرم عفو يؤثر الناس أمره	اذا ما عفا الانسان وهو قدير

فصفح وسامح ووعد وأوعد وامر المنادي فنادى بالأمان وأعرض عن طلب من كان مع عمه وعفا عن الكل فصفا له الجو وخضعت الرقاب (قال) ولما دخل ابو حاتم مدينة تاهرت جمع مشايخ البلد اباضيته وغير اباضيته فاستشارهم فيمن يوليه قضاء المسلمين فقالوا له ان أباك لما دخل كدخولك ولي محمد بن عبد الله بن ابي الشيخ وهو الذي قدمنا ذكره قبل هذا ومحمد ولد يسمى بعبد الله ماهو دون أبيه وأنت عالم بورعه ودينه كما نحن عالمون به فقال اشترم وأحسنتم وولاه القضاء فقال من ترون ان نولي بيت المال فقالوا عبد الرحمن بن صواب النفوسي فقال أصبتم وأحسنتم من ترون أن نولي الشرطة فقال قوم زكار قد قتل ابنه بين يديك وله نصيحة وقال قوم ابراهيم ابن مسكين فان له صلابة في الحق فولاهما جميعا وكان البلد قد فسد أهله في تلك الحروب واتخذوا المسكر أسواقا والغلمان اخداناً فلما ولي هذان الرجلان الشرطة قطعاً ذلك في أسرع من طرفة العين وحملوا الناس على ضرب السوط والسجن والقيد وكسرت الخواصي بكل دار عظم قدرها أو صغر وشردت الغلمان واخذانهم في رؤوس الجبال وبطون الأودية وحملوا الناس على الواضحة وخاف المنافق وأمن البريء وشرد السراق وقطاع الطرق وأمنت لسبل ومشى الناس بعضهم الى بعض ولم ينقموا على ابي حاتم شيئاً اهـ كله بالنظر الى تيهرت وما حولها من الولايات واما جهة طرابلس وجبال نفوسة وما يليها فانها لم تكتسب راحة منذ ولي هذا الامام وكثرت فيها الفتن والحروب حتى انها لم تتمكن من اعانة الامام بشيء في حروبه هذه وسنأتي ببيان ذلك ان شاء الله.

(خبر ابي منصور رحمه الله مع الطيب بن خلف)

تقدم ان الامام ابا حاتم رضي الله عنه جدد الولاية لأبي منصور الياس على جبل نفوسة لما آل اليه 130

الأمر وفي صدر مدة هذا الامام على حسب التقريب ان لم نقل في آخر ايام والده تحرك ابن خلف الذي تقدم ذكره ساعيا في احياء سيرة ابيه وتجديد الخلاف والخروج من الطاعة فصدر أمر الامام الى ابي منصور بالمبادرة اليه والقبض عليه قبل استفحال أمره وكان قد هرب الى زواغة وهم في جموع كثيرة وكلهم على رأي أبيه فقصدهم أبو منصور بعساكره ونزل قريبا منهم وكلهم في شأنه فتحزبوا وأبوا أن يسلموه واتفقوا على حمايته والمدافعة عنه وكان في بني يهراسن شيخ كبير صاحب رأي وادراك رأى أنهم لاطاقة لهم على مناصبة ابي منصور الحرب فجمع القوم وقال لهم يا معشر زواغة اقترح عليكم ثلاثة أمور ان اخترتم منها واحدا أصبتم والا فمصيركم الى الذل اما أن تتركوا حوزة طرابلس وتدخلوا الى جزيرة جربة لتحصنوا فيها وتمنعوا صاحبكم واما ان ترسلوا الى تيهرت رسلا بكتاب من عندكم تطلبون فيه من الامام ان يخصصكم بعامل مستقل عن جبل نفوسة حتى لا تدخلوا تحت احكامهم وسيطرتهم واما أن تسلموا لي صاحبكم (ابن خلف) لأسلمه لنفوسة بالآمان وأنا أضمن لكم سلامته وأنهم لا يتجاوزون فيه الحق فلم يعجبهم قوله وأجابوه بكلام غليظ أغضبه فقام وتركهم ولما وصلهم ابو منصور بجنوده دعاهم الى الانقياد والطاعة فأبوا فاجزهم الحرب وكان بين الفريقين قتال شديد انهزمت على أثره زواغة وكان القتال قريبا من أرض ذات غرس جديد ومن عادتهم ان يحوطوا الغرس أو الجنان بحائط او حبال توصل بين أعمدة مغروزة في الأرض محافظة عليه من الوحوش والحيوانات فصدت تلك الحبال زواغة عن الهروب وحبستها حتى أخذ منها ابو منصور غرضه من القتل ثم رجع عنهم فدخلوا الى جزيرة جربة وتحصنوا فيها والتجأ ابن خلف الى رجل من وجوه زواغة هناك فأدخله في قصر من قصور الجزيرة وظنوا أنهم قد نجوا ثم لما استراح ابو منصور مدة واكتشف حقيقة حالهم وخبرهم في الجزيرة جدد النهوض اليهم فسار في عسكر جرار الى أن قرب من الجزيرة ثم فكر في الأمر فرأى أن الدرهم والدينار يفعلان مالا يفعله الرمح والسنان ومجهدان من الطريق مالا تمهده الفرسان ويذلان من الصعوبات مالا تذلل السيف عند الطعان فأرسل مع رجل من بني يهراسن مائة دينار الى الزواغي الذي عنده ابن خلف هدية ولما وصله وسلمها له لو أتيت الينا في اولادنا لدفعناهم لك فعاد الرسول الى ابي منصور وأخبره فطوى ابو منصور المراحل في أقرب وقت وكان له طبل يأمر بضربه اذا حان وقت الصلاة فيقف اول العسكر وآخره فيصلي بهم ركعتي السفر ويأمر بضربه للرحيل وجد السير حتى دخل جربة بلا حرب ولا قتال فتوجه الزواغي الى ابن خلف وهو في قصره وقال له انزل ايها الأمير فقد أرملت كثيرا من نساء زواغة قال ابو زكرياء فقال له ولد خلف ليتكم لم تسموني أميرا يامشومات بالبربرية فأنتهم لأنه رجل عربي لا يحسن البربرية اهـ فترل ودفعوه الى ابي منصور فقيده ومضى به الى الجبل فحبسه فكان في سجنه الى ان وجب حد السرقة على رجل أقيم عليه الحد قبل ذلك فاختلفوا في محل قطع الرجل منه فوجهوا اليه السؤال فأجاب بأننا تقطع مما دون العقب وقال سجنوني وأتوا يتعلمون مني العلم فأطلق ابو منصور سبيله بعد أن أظهر التوبة وتحسنت احواله بعد ذلك ورجع الى الحق فيما قيل وكانوا يلقبونه بالطيب بن الحبيث بن الطيب والله اعلم وانما كان ابو منصور يضرب الطبل عند دخول وقت الصلاة لأن النداء او الأذان لا يكفي لايقاف تلك الجيوش المنتشرة الكثيرة الممتدة مع الطريق ولا بد من أنهم يؤذنون قبل اقامة الصلاة فالطبل علامة على الأمر بالوقوف لا على الصلاة ولعل اختلافهم في مسئلة قص الرجل كان لقصد امتحان الطيب وجعله وسيلة الى اظهاره من السجن والا فكيف يختلفون في مثل هذه المسئلة وهم في عصر كان الجبل فيه مملوءا بفحول العلماء والله أعلم.

(ولاية العلامة أفلح بن العباس رحمهما الله على جبل نفوسة وواقعة (مانو)

ولما توفي ابو منصور رحمه الله كتبت نفوسة الى الامام بذلك فولى عليهم العلامة افلح وفي مدته كانت واقعة (مانو) التي فل فيها حد سيوف نفوسة وفنيت فيها ابطاهاهم وأبقت فيهم ثلثة عظيمة وهي المصيبة الكبرى التي تضعضع بها ركن الامامة بتيهت اذ كانوا حصنها المنيع وسيفها البتار ودرعها المتين ولما ضعفوا أخذت في التقهقر بطمع الأعداء فيها وتسلطهم عليها حتى اضمحل امرها كما سيأتي بيانه . وتفصيل هذه الحادثة الشنيعة هو كما ذكره المؤرخون كلهم منهم الشماخي رحمه الله حيث قال وكان ابراهيم بن احمد من بني الأغلب والي بني العباس على افريقية ظالما جائرا فقدم طرابلس ولعله أفسد فاجتمع رأي أكثر نفوسة على ملاقاته فأبى لهم أميرهم أفلح بن العباس وسعد بن ابي يونس عامل قنطرة (تيحي) ومعبد الجناوني وعزم من رغب في الجهاد واطهار المعروف ودين الله لتكون كلمة الله هي العليا قال ابن الرقيق وفي سنة ثلاث وثمانين ومائتين تحرك ابراهيم بن احمد يريد محاربة ابن طولون وامر بالحشد فلما اجتمع له ما يريد خرج من تونس لعشر خلون من الحرم فأقام برقادة الى سبع بقين من صفر ثم خرج بجميع من معه فاعترضته اهل نفوسة في جمع عظيم وذلك في النصف من ربيع الأول فكان بينهم قتال عظيم فقتل من جنده جماعة من الرؤساء وغيرهم ثم انهم اهل نفوسة وكان في ايام المعتضد فتبعهم وقتلهم قتلا ذريعا وتطارح منهم في البحر بشر كثير وقتلهم فيه حتى غلبت حمرة الدم على الماء اهـ هذا ما ذكره صاحب السير رحمه الله نقلا عن ابن الرقيق ولا سبب فيه ولا داعي الى حمل نفوسة على المعارضة والوقوع في هذه المصيبة مع انهم أعانوا بني الأغلب قبل ذلك على ابن طولون كما تقدم والذي أراه مناسبا وان كان قابلا للنقض هو ما قاله العلامة ابو زكرياء رحمه الله من ان الجند كان قادما من المشرق وسببه هو أن أخبار نفوسة وقوتهم قد تواترت عند بني العباس ملوك الشرق ولا زالت الرسائل تتوجه اليهم من القيروان وطرابلس تفيدهم بأن دولة بني رستم بتيهت لم تقم الا بنفوسة وكان ذلك في عهد المتوكل ببغداد فأنفذ الى المغرب جيشا وقدم عليه ابراهيم بن الأغلب ولما وصل طرابلس اجتمعت نفوسة على منعه من الجواز خوفا من أن يكون قاصدا تيهت دار امامتهم فأرسل اليهم يستأذنهم في الجواز فأجابوه بالمنع فطلب أن يتكوا له مقدار طول عمامة على ساحل البحر ليمر فيه فابوا فلما رأى عزمهم أمر عسكره بأخذ الحذر وقال لهم اتخذوا طريقا على ساحل البحر فان تركونا كان المراد وان تعرضوا لنا قاتلناهم ولما بلغ الخبر الى نفوسة قال بعضهم دعوا الرجل ولا تتعرضوا له وابى بعضهم الا ملاقاته ومن كره ذلك سعد ابن ابي يونس فقال له بعضهم عز عليك شداخ قنطرة (صنف من ثمرها) وكرهت الموت ولذلك تعرضت فقال خفت ان تذبج البقرة فيتبعها العجل يعني بالبقرة نفوسة وبالعجل قنطرة ومن وافقه على رأيه العلامة معبد الجناوني وأميرهم افلح ثم كانت الغلبة للرأي العام فلاقوه بموضع يقال له (مانو) وهو قصر قديم بين قابس وطرابلس واقتتلوا قتالا لم يعهد مثله قبله فيما قيل وكان فيهم رجل من شجعانهم ما برز له أحد الا قتله فخرج اليه افلح بنفسه وكان صاحب البند (أي العلم الكبير) العلامة شيبه الدجي فأمره افلح بأن يثبت في الارض فأبى فأمره ثانيا فأبى ثم أمره ثالثا وكأنه أضمر في نفسه للمشائخ الذين الزموا بالحرب ما أضمر من الشر فقال له حملته مع ابيك وجدك ولم يأمراني بذلك وسأحفر له حفر الله لك ثم حفر له في الارض وركزه فانصرف أفلح وحام العسكر حول البند لايولون الأدبار والحرب قائمة ولما رأى بعض أهل البصائر ما حل بالعسكر من الفناء صرع البند ففارقوا وقد مات منهم اثنا عشر الفا اربعة الاف منها من نفوسة والباقي من غيرها واربعمئة عالم فيهم من المشاهير العظام والعلماء الكرام ابو ميمون

وعمرس وماتوس وشيبة وميال ومعبد وجنا الترعقي وقد كان شرع في بناء مسجد بترغت بلدته فجاءه الامر فتوجه قبل أن يتمه وهو باق الى الآن لا سقف له وسواريه من الحجر الصلد واقفة كما نصبت في ذلك الوقت ثم زحف ابن الأغلب الى قطرارة (مدينة تيجي) فترل عليها بغتة بعد طلوع الفجر وحاصرها حتى سلموا فقتل من قتل واخذ منها ثمانين عالما وارتحل الى جهة نفاوة وكان بها من العلماء المشهورين العلامة ابو بكر يوسف النفوسي فوجه اليه رسله ولما وافته سألهم أن يمهله حتى يصلي ركعتين فلما صلاهما أخذ في الدعاء سائلا ربه ان يصرفهم عنه فبعث الله رجلا عاصفا شتتهم وحالت بينه وبينهم وكان ضريرا فأخذ ابن يوسف بيده وذهب فلم يدركوا له أثرا فعطف ابن الأغلب بالأسارى الى القيروان ومنهم العلامة ابن يتوب وكان مقطوع العرقوب ولما أرادوا وضع القيد فيه مداهم الرجل المقطوعة ثم استأذن اصحابه في الهروب فأذنوا له فهرب ولما بلغ ابن الأغلب خبره أمر بقتل الباقي فقتلوا عن آخرهم رحمهم الله ومن أخذ اسيرا عمرس رحمه الله وكان على فرس سابق يذود عن العسكر ويحمي الاطراف ولما اعياهم امره نسجوا له شبكة من حبال في طريقه فعثر فيها جواده فأخذوه الى ابراهيم فقال له سلمي العفو عنك لأترك سبيلك فقال له ذلك بيد الله لا بيدك وتلك كلمة لا أقولها ابدا حتى ألحق بالله وانما أسألك أن لا تكشف عورتي فقرضوه بمقراض من حديد ولما بلغوا المرفقين فاضت روحه رحمه الله تعالى ولعن ابن الأغلب العنيد ومن الأسارى أخت عمرس تلك العالمة الجليلة وبعض نسوة كن خرجن مع العسكر في أول الأمر ولما خافت أخت عمرس على نفسها وعلى من معها الفساد من فساق بني الأغلب أمرقن ان تستخلف كل واحدة منهن على نفسها من يزوجها من يريد بها سوءا ثم ان نفوسة رجعوا الى الجبل وتحصنوا فيه واجتمع اهل الرأي منهم واتفقوا على عزل أفلح فعزلوه وولوا ابن عم له ولما بلغه الخبر غضب لذلك ونوي الشقاق والفتنة ولما سمع ابو معروف بذلك وهو ممن كره عزله خوفا من الاختلاف بادر اليه وحذره الشر ونماه عما كان يقصده وأمره بالصبر والسكون فامتثل أمره ثم ان ابن عمه لم يحسن القيام بأمر الناس فعزلوه بعد ثلاثة أشهر وولوا أفلح وقد ذكر المراكشي الحكاية في تاريخه وبين ان نفوسة كانوا في عشرين الف مقاتل ولا أظنهم الا أكثر من ذلك بأضعاف حسبما تقتضيه كثرتهم ومعارضتهم ثم قال ولما قتل اكثرهم تمادى الى طرابلس فقتل بها ابا العباس احمد بن زيادة الله بن الأغلب وكان ادبيا ظريفا له تواليف وسبب قتله ان المعتضد بالله العباسي كتب الى ابراهيم ابن احمد يعنفه على سوء فعله بأهل تونس ويقول له ان انتهيت عن اخلاقك هذه والا فسلم العمل الذي بيدك لابن عمك محمد بن زيادة الله ثم نهض من طرابلس الى تاورغا فقتل بها خمسة عشر رجلا وأمر بطبخ رؤسهم وأظهر انه يريد أكلها هو ومن معه من رجاله فارتاع أهل العسكر منه وقالوا قد خولط فانفض الناس عنه فلما رأى ذلك خشي أن يبقى وحده فرجع الى تونس فجعل عقوبة من انفض عنه غرم ثلاثين دينارا فسمي غرم الهاربين اهـ فليتأمل فانه مباين لما قلناه أولا اعتمادا على كلام ابي زكرياء رحمه الله والله اعلم بالحقيقة .

(واقعة أخرى لابن الأغلب مع نفوسة)

وبعد مضي سنة على محاربة (مانو) حدثته نفسه الخبيثة بالعود الى نفوسة بعسكر في رجب من سنة اربع وثمانين ومائتين الى حيز نفوسة فقتل من وجده في الاطراف واستباح النساء وأتى الى والده ابراهيم بجماعة منهم اساري فأمر بقتلهم ذكر الشماخي رحمه الله انه قدم اليه رجل منهم وكان أحسنهم منظرا فقال له اظنك معلم القوم وامامهم فقال لست كذلك قال فما تقول في قال ما أقول الا انك فاسق ظالم سفك لدماء المسلمين¹³³

أبعدك الله فغضب وقال له والله لأقتلنك قتلة لم أقتل بها أحدا من أصحابك فقال له ان كان الأمر بيدك ستفعل ما قلت له وان كان بيد الله فهو أقوى فزاده غيظا وقال ومن ذا الذي يمنعك مني ثم سمع الأذان فقام ليصلي بأصحابه فألقى الله في قلبه اللطف به فتركه وتحقق أن الأمر بيد الله واستأصل من قدر عليه من اهل قنطرة فصيح ما خاف منه العلامة سعد حتى قال ما سبق ذكره وقد ذكر هذه الواقعة المراكشي ايضا ولما فيها من زيادة على ما ذكرناه نأتي بكلامه (قال) وفي سنة 284 كانت وقعة نفوسة لأبي العباس ابن ابراهيم فقتل منهم مقتلة عظيمة واسر منهم نحو ثلاثمائة فلما وصل بهم الى والده ابراهيم بن احمد دعا بهم فقرب اليه شيخ منهم فقال له ابراهيم أتعرف عليا ابن ابي طالب (يشير الى مسئلة الحكمين والنهروان) فقال له لعنك الله يا ابراهيم على ظلمك وقتلك فذبحه ابراهيم وشق عن قلبه وأخرجه بيده وأمر أن يفعل ببقية الأسرى كذلك حتى أتى على آخرهم ونظمت قلوبهم في حبال ونصبت على باب تونس اهـ فانظر ايها القارئ الى هذا التمثيل الشنيع والفعل الفظيع الذي لا يصدر من الوحوش الخسيسة فضلا عما يدع التوحيد فقبح الله الاستبداد واربابه ولعن كل جبار عنيد .

وقد ابقى الله ابن الأغلب بعد واقعة (مانو) بفساد العقل فارتكب افعالا لا تصدر من الجانين اذ شرع في قتل رجاله واولاده وبناته ونسائه وكتابه وحجابه حتى انه قتل ثلاثمائة خادم من خدامه لأجل خادم واحد رفع مندبلا سقط من احدى جواره وقتل ابنه المكشي بأبي الأغلب صبرا بين يديه وثمانية اخوة كانوا من رجاله وست عشرة بنتا في يوم واحد قال الشماخي رحمه اله قال ابن الرقيق وأتى بأمور لم يأت بها أحد قبله ولم يتقدمه الى مثلها ملك واتخذ الاحداث حتى جمع اربعا وستين حدثا وجعل لكل واحد منهم فراشا وموقدا ولحافا وبلغه عن بعضهم أمر فقتلهم جميعا منهم من ضرب بعمود حديد فطار دماغه وكان يحرق منهم كل يوم خمسة او ستة حتى أتى على آخرهم وادخل بعضهم الحمام فسد عليهم وماتوا من حينهم وقتل ندماء وطبيبه وقتل كتابه وحجابه وسجن بعض كتابه واستعطفه على نفسه ومن جملة كلامه ان الملوك اذا ما استرحموا رحمو فاجابه بأن الملوك اذا ما استرحموا قتلوا فقتله وأجأه وابل امطر الى مسجد قرية فسقط بعضه وخشي من سقوط الباقي عليه وعلى أصحابه فخرجوا ووقفوا في المطر فأبصرهم فتي فأنزلهم وأحسن بما قدر وباتوا بأحسن مبيت وكان زمان التين فأدخلهم بستانا له واطعمهم ما أرادوا فأمر به فضرب ضربا وجيعا وكانت له عبيد صقالبة فرمى بعضهم من اعلى القصر وبعضهم أدخلهم بيتا وبني عليهم ليموتوا جوعا فوجوا في البيت سيفا فقتلهم والاحد منهم ثم قتل نفسه فحزن عليهم اذ لم يموتوا جوعا وقتل صاحب الديوان وشريكه لا لأمر عظيم بأن قطع يدي أحدهما ورجليه وحمل رأسه الى صاحبه فقال له ان لك خدمة وقديم صحبة ولأقتلنك قتلة مريجة فقال ما خنت لك عهدا منذ توليت فأمر بضرب عنقه وقتل ابنه ابا عقال اذ قال لأخيه ان ابي زال عقله وقتل جواره وبناته فمنهن من خنق ومنهن من بني عليها حتى ماتت جوعا وله أفعال غير هذه واضطرب أمره ثم أظهر التوبة واراد الحج ثم رجع غازيا الى صقلية فمات طريدا ملعونا ولم تبق أيامهم بعد ذلك الا قليلا حتى اباد الله ملكهم وأهلكهم وأزال الأمر من ايديهم الخ اهـ المراد منه وهذه الاخبار المذكورة عنه في اكثر التواريخ بل فيها اكثر من هذا والله اعلم وقع هذا كله بجبهات نفوسة والامام بتيهت لم يتوصل الى اعانتهم لبعده المسافة وخوف ايقاظ الفتنة بتلك الجهات ايضا الا أن العدل عنده سائد والأمن عام في الرعية .

(احوال ارباب المذاهب بتيهت وخطب الجمعة في مدة هذا الامام)

المشهور ان هؤلاء الأئمة كلهم دواوين خطب للجمع والأعياد اذ كانوا يخطبون بأنفسهم ولا¹³⁴

يعيدون خطبة خطبوا بها قط وكلما بحثنا لم نعثر على شيء منها وقد تعرض ابن الصغير لشيء قليل من هذا الأمر حيث (قال) ولم ينقموا على أبي حاتم شيئا ثم نقموا عليه بعد ذلك أشياء أخذها ناسا بالتهمة وضربه بالسوط على الظن إلا أن البلد وقضاته وأصحاب بيت أمواله وأصحاب شرطته ومن بالبلد من فقهاء الأباضية وغيرهم من الكوفيين والمدنيين لم يطالب بعضهم بعضا ولا سعي بعضهم ببعض .

وكانت مساجدهم عامرة وجامعهم يجتمعون فيه وخطيبهم لا ينكرون عليه شيئا إلا أن الفقهاء تابحت المسائل فيما بينها وتناظرت واشتهت كل فرقة أن تعلم ماخالفتها فيه صاحبها ومن أتى إلى حلق الأباضية من غيرهم قربه وناظروه ألطف مناظرة وكذلك من أتى من الأباضية إلى حلق غيرهم كان سبيله كذلك إلى أن قال وحضرت خطبائهم خطبا كثيرة أو لهم ابن أبي إدريس والثاني أحمد التيه والثالث أبو العباس بن فتحون والرابع عثمان بن الصفار والخامس أحمد بن منصور وكل من رأيت من خطبائهم على المنابر فليس يستعملون في خطبهم إلا خطب أمير المؤمنين على ابن أبي طالب خلا خطبة التحكيم فانهم كانوا إذا فرغوا من الخطبة الأولى قاموا إلى الخطبة الثانية وحكموا وسوف أذكر خطبة التحكيم فيما يلي هذا الكلام فلم يزالوا كذلك إلى أن ولي الخطابة رجل منهم يقال له أحمد بن منصور وسمعت يخطب هذه الخطبة ثم يخطب بعدها بخطبة التحكيم فلقينته وعابنته وقلت له إن خطبتك التي سمعت منك اليوم ليست من خطب أسلافك فقال لي حملني عليها عثمان بن أحمد بن بجاح وكان مقبدا عندهم ولا يكادون يخالفونه فيما استحسن فخطبت بها لأنه استحسنها لي ، (والخطبة هي هذه)

(الحمد لله) الذي ابتداء الخلق بنعمائه وتغمدهم جميعا بحسن بلائه فوفق كل امرئ منهم في صباه إلى ما يحتاج الله من غذائه وسخر له من يكلؤه إلى وقت استغنائه ثم احتج على من بلغ منهم بالآله واندزم بأبيائه (الذي لم يزل بصفاته واسمائيه لا يشتمل عليه زمان ولا يحيط به مكان خلق الأماكن والأزمان ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ايتيا طوعا أو كرها قالتا اتينا طائعين فقدرها أحسن تقدير واخترعها من غير نظير لم يرفعها بعبد تدرك بالمعينة ولم يستعن عليها بأحد استكبارا عن الشركة والمعاونة وزينها للناظرين وجعل فيها رجوما للشياطين فبارك الله أحسن الخالقين تعالى أن تطلق في وصفه آراء المتكلفين وأن تحكم في دينه أهواء المقلدين بل جعل القرآن اماما للمتقين وهدى للمؤمنين وملجأ للمتنازعين وحكما بين المتخالفين ودعا أوليائه المؤمنين إلى اتباع تزييله وأمرهم عند التنازع في تأويله بالرجوع إلى قول رسوله (ص) بذلك نطق محكم كتابة إذ يقول جل ثناؤه (يا أيها الذين آمنوا اطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فان تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا) ونعبد نبيته (ص) عند رجوع الأمة في تأويل ما اشكل عليها إليه بأن يبين لهم معنى ما أنزل عليه فقال (وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذي اختلفوا فيه) ولم يكلهم تعالى إلى القول في دينه بآرائهم ولا اذن لهم في مسامحة أهوائهم فتكون الأحكام مبتدعه والآراء مخترعة والحكام متبعة بل احصى كل شيء عددا وضرب لكل شيء امدا ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حيى عن بينة (أحمد هذا يبلغ رضاه يحتسب آلاؤه واستعينه على ما استحقظنا من ودائعه وحفظ ما استودعنا من شرائعه ونؤمن به إيمان من اخلص عبادته واستشعر طاعته وتوكل عليه توكل من انقطع إليه ثقة به ونرغب فيما لديه واشهد أن لا إله الا الله وحده لا شريك له شهادة معترف له بالربوبية والتوحيد مقر له بالعظمة والتمجيد خائف من انجاز ما قدم له من الوعيد وأشهد أن محمدا عبده ورسوله اصطفاه لنفسه ولما ارتضاه لخلقه نبيا فوجده على حفظ ما ضمنه قويا وبأداء ما استودعه مليا

وبالدعاء الى ربه حفيا ومتوقفا عند ورود المشكلات ومشمرا عند انجلاء الشبهات لا يرعوي لمن عذله ولا يلوي من خذله ولا يطيع غير من ارسله يصدع بالأمر ويطفىء نار الكفر لم تأخذه في الله لومة لائم ولم ينحرف عنه لزعم زاعم ارسله على حين فترة من الرسل ودروس من السبل وتضامن من أهل الملل والناس فريقان عالم مستكبر وجاهل مستظهر فالعالم الذي قد سبق له الخذلان يترغه الشيطان ويجمع به الطغيان فيستكف عن الدخول في الايمان والجاهل متسكع في غيه متحير في أمره منتظر ما يكون من غيره فلم يزالا يعكفان على الازلام ويعتصمان بالأصنام والرسول عليه السلام يرعاهم رعي السوا ويدعوهم الى دار السلام فلم يزل عليه السلام يعظهم بالآيات ويقرعهم بالمعجزات حتى استقام من أحب الله توفيقه من سائر أهل الديانات فبلغ المحكمات وأوضح المشكلات وزجر عن القول في الدين بالشهوات ففتح الله به النبيين واكمل به الدين وأوجب به الحجة على العالمين صلى الله عليه وعلى آله الطيبين واخوانه المرسلين وأوليائه من المؤمنين ثم جلس ثم قام فقال .

(خطبة التحكيم)

(الحمد لله) الذي نستعينه ونستغفره ونؤمن به ونستهديه ونستنصره ونبرأ من الحول والقوة اليه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فهو المهتدي ومن يضلل فلا هادي له ونشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله ارسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون الله ربنا ومحمد نبينا والاسلام ديننا والكعبة قبلتنا والقرآن امامنا رضينا بحلاله وحلالا وبمحرامه حراما لانبغي به بدلا ولا عنه حولا ولا نشترى به ثمنا لا حكم الا الله اتباعا لكلام الله وسنة نبيه (ص) وخلافا لأهل البدع لا حكم الا الله خلعا ونبذا وفراقا لجميع أعداء الله لا حكم الا الله ولو كره الجبارون الحاكمون بغير ما انزل الله وأشهد أن من لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون والظالمون والفاسقون اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وارحم محمدا وآل محمد وبارك على محمد وآل محمد كما صليت وباركت على ابراهيم وعلى آل ابراهيم انك حميد مجيد اللهم صل على العصبتين المباركتين من المهاجرين والأنصار والتابعين لهم باحسان اللهم وارحم الشراة في سبيلك أهل الفضل في الاسلام اللهم ارض وصل على الخليفتين المباركتين بعد نبيك اللهم وأصلح الأمير يوسف بن محمد أصلحه وأصلح على يديه ووفقه للخير وأعنه عليه وافتح له من عندك اعوانا وانصارا على طاعتك اللهم اعزز به الاسلام وأهله واذلل به الكفر وأهله وانصره نصرا عزيزا وافتح له فتحا يسيرا وهب له من لدنك سلطانا نصيرا بكف بك وليا وكفى بك نصيرا اللهم اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالإيمان ربنا ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا أنك رؤوف رحيم ثم قرأ قل هو الله أحد ثم نزل اهـ .

الى هنا انتهى ما وقفنا عليه من كلام العلامة ابن الصغير المؤرخ المالكي في ائمة بني رستم ومدينة (تیهرت) دارا امامتهم وهو كلام لم يجد به أحد من المؤرخين منا ومن غيرنا لاقبله ولا بعده والله اعلم .

(وفاة الامام وعدد مدته)

ثم ان الله سبحانه وتعالى قضى على هذه الدولة بالانتهاء وحكم بخراب ملك هذه العائلة كما قضى على من قبلها ومن بعدها من الملوك والسلطين والخلفاء تصديقا لقوله تعالى وهو اصدق القائلين (كل شيء هالك الا وجهه له الحكم واليه ترجعون وقوله يعز من يشاء ويذل من يشاء) فتغلب الشيطان على عقول ابناء ابی 136

اليقظان أخي الامام وصور لهم أنهم احق بالامامة من عمهم ولعلمهم بأن الرعية كلها راضية به وبأحكامه وأنهم لا يمكنهم الوصول الى عزله وخلعه ولا الى اثاره فتنة يكتسبون بها استقلالاً ولو ببعض الجهات اجمعوا على الغدر به ظناً منهم أنهم لا ينازعون بعده في شيء فهاجموا عليه وقتلوه على حين غفلة ونصبوا مكانه باتفاق مع من شايهم واحدا منهم وهو اليقظان وذلك سنة اربع وتسعين ومائتين 294 بعد اربعة عشر عاما من يوم ولايته ذاق فيها الحلو والمر ثم ختم له بالشهادة فرحه الله ورضي عنه فأقام اليقظان في الامارة سنتين مهدد الجوانب مضطرب الأحوال لما كان في ذلك العهد من استفحال أمر عبيد الله الشيعي وظهور دعوته في المغرب وملكه الذي به انقراض ما كان بالمغرب ومصر من الممالك والامارات ومن سعى في تقديم اليقظان وتسليم أمر الامامة له العلامة ابو الخطاب وسيل بن سنتن ازواج الذي أثنى عليه صاحب الطبقات وقال مذكور فيمن أفنى بدنه في العبادة وماله في الصدقة موسوم بسمه الصلاح معدود في ديوان علماء وقته الخ .

وعلى هذا فاليقظان في رضائه ولعله غير داخل مع اخوته في مسئلة قتل الامام او لم يصح عنده اتفاقه معهم ولذلك لما عاتبته نفوسه الجبل على بعض أمور منها التزامه الأمر لليقظان قال احمد الله الذي جعل لي اخوانا يعاتبوني على ما بلغهم مني من التقصير قبل يوم القيامة ثم قال انما التزمت الأمر لليقظان احتساباً لله لا لليقظان .

(انقراض ملك بني رستم من تيهرت واستيلاء الشيعة عليها)

(لاملك الاملك الله ولا حول ولا قوة الا بالله) كان عبيد الله الشيعي رجلاً من المشرق على مذهب الشيعة ينتسب الى فاطمة الزهراء رضي الله عنها قدم الى المغرب يطلب الملك فيه لرؤيا رآها في نومه وقد صدقت الرؤيا ونال الملك وقهر الملوك وطغى وتجبر وآل ملكه بعد الا الاضمحلال كغيره والله اعلم .

ذكر كل المؤرخين ان زوال ملك بني رستم كان على يد الشيعي الا أنهم لم يذكروا خبره بالتفصيل وغاية ما قالوه ان للشيعي مع بني رستم في تيهرت خيراً طويلاً والذي ذكره ابو زكرياء رحمه الله ان للامام بي حاتم بنتاً اسمها (دوسرا) ولعبيد الله الشيعي مولى اسمه الحجابي (ابو عبد الله) أرسله الى قبيلة كتامة فأقام فيها الى أن ظهر امره وملك سجالمة فارس الى بالقدوم وكانت (دوسرا) توجهت اليه مع أخ لها لما قتل والدها الامام وأخبرته بما وقع ووعدته بالتزوج به ان اخذ لها ثار ابيها فلم يجبه بشيء ولما دعاه عبيد الله الى سجالمة مر بالقرب من تيهرت فخرج اليه من فيها من وجوه فرق الشيعة والواصلية والصفورية والمالكية وقدموا له الشكاية في اليقظان ووعدوه بالاعانة بالمال والرجال ورغبوه في استيصال هذه العائلة كلها وانتزاع الأمر من أيديهم ولا رجال ولا عسكر لليقظان ولا قوة له لادبار الناس عنه بما وقع من قتل الامام فأرسل اليه الحجابي رسلاً يطلب منه الاجتماع به فخرج اليه ومعه بنوه واخوته واتباعه ولاقاه على أميال من تيهرت ولما اجتمع به قال له (متجاهلاً) ما اسمك فقال له اسمي اليقظان فقال الحجابي بل انت الحيران ما بالكم قتلتم اميركم وسلبتم من انفسكم ملككم وأطفيتم نور الاسلام وألقيتم البنا بأيديكم بغير قتال ولا حصار ثم أمر بقتلهم فقتلوا عن آخرهم وذلك في شوال سنة 296 ولما سمعت دوسرا بنت الامام بذلك هربت خوفاً من ان يطلبها الحجابي للتزوج بها كما وعدته ثم ان الحجابي دخل تيهرت ونهبها واستباحها وقصد المكتبة المعروفة بالمعصومة وأخذ ما فيها من الكتب الرياضية والصنائع وغيرها من الفنون الدنيوية وأحرق الباقي كله ومن هناك فقدت أغلب مؤلفات المذهب اذ كانت المكتبة عظيمة جامعة وطلب (دوسرا) بكل جهده

(خبر العلامة يعقوب بن افلح رحمه الله)

ذكر ابو زكرياء رحمه الله ان يعقوب رحمه الله لما بلغه مجيء الحجاني الى (تيهت) خرج منها في خيل من اصحابه وأقاربه وأهله قاصدا مدينة وارجلان) ولما سمع به الحجاني أرسل في اثره عسكريا وكان يعقوب على جواد عظيم الشأن يضرب به المثل في المغرب كله ولما لحقه العسكر اعترضهم في الطريق وصدهم عن الاتصال به وبمن معه وكلما رآهم سائرين نحوه أمر من معه بالمسير ووقف هو في الطريق فاذا رآه العسكر واقفا ينتظرهم وقفوا في مكائهم رعبا منه لما كان له من الهبة والشدة ولما أعياهم أمره ولم يقدرؤا له على شيء رجعوا وتركوه لحاله فنظر الى الطالع في السماء ثم قال لأصحابه افترقوا فقد انقضت ايامكم وزال ملككم فلا يعود اليكم الى يوم القيامة وما اجتمع منكم ثلاثة الا وقع عليهم الطلب فنفروا وأقب هو بمن معه على وارجلان وذلك على عهد العلامة ابي صالح جنون بن يمران رحمه الله فتلقيه ابو صالح في جموع وارجلان لما بلغه وصوله وأدخلوه واكرموه وأحسنوا القيام به ثم طلبوه ان يولوه الامامة هناك فامتنع وقال لا يستتر الجمل بالغنم فارسلها مثلا ومكث فيهم زمنا طويلا ثم توفي ودفن في مقبرة ابي صالح قال ابو زكرياء وقبره في عصرنا هذا لم يندرس كأنه ربوة اهـ .

وذكر ان بعض أهل وارجلان قال له أتخفظ القرآن كله فقال له معاذ الله ان ينزل على موسى وعيسى ما لم أحفظه وأعرف معناه فكيف يكتب الله الذي انزله على نبيتنا محمد (ص) ومما يحكي عن خشوعه انه كان في بعض الليالي قائما يصلي فوق سقف البيت ولم يبق منه الا ما كان فوقه ولما جاء الناس للبحث عنه وجدوه واقفا على ما هو عليه ولما سأله قال لهم ظننت ان القيامة قد قامت أي لما وقع من الزلزلة ولم يعلم بأن ذلك من السقف لاشتغاله وله اخبار غير هذه مذكورة والله أعلم

(بيان بعض من ولي تيهت بعد بني رستم)

ذكر المراكشي طرفا من أخبار تيهت بعد بني رستم وهو أحسن ما وقفت عليه من كلام المؤرخين في هذا المقام وان كان مفرقا مشتتا في تاريخه فخذة مجموعا موصولا من لفظه (قال) فسار ابو عبد الله (الشيعة سنة 296) حتى حل بمدينة (تيهت) فدخلها بالآمان وقتل من بما من الرستمية يقظان بن ابي اليقظان وجماعة من أهل بيته وبعث برؤسهم الى أخيه ابي العباس وابي زاكي خليفته برفادة وطوفت بالقبروان ونصبت على باب مدينة رفاة وانقضت دولة بني رستم بتيهت اهـ .

فتوات عليها بعدهم المصائب وتتابعت عليها النوائب وتراكم على أهلها البلا وفشا فيهم التنقل والجلال وامتحنوا بالزلازل والقتال وتجرعوا كؤوس الدل والوبال وما يتزل بهم عامل الا وتحضر عمال وما يطرأ عليهم حال الا وتظهر أحوال وقد وضع المؤرخ امراكشي بعضا من ذلك حيث قال ثم ولي ابو عبد الله (تيهت) ابا حميد دواس بن صولات اللهيسي وكان يلقب بالسيد الصغير ثم نهض حتى احتل مدينة سجلماسة وحاربها يوم الأحد لسبع خلون منه ففتحها في هذا اليوم وأخرج منها عبيد الله الشيعي وابنه ابا القاسم وكانا محبوسين في غرفة عند مريم بنت مدرار وفي سنة 297 خالف على ابي عبد الله الشيعي محمد بن خزر بن صولات الزناتي وأقبل الى مدينة (تاهرت) وطمع بأخذها واخراج دواس بن صولات منها وان يقطع بأبي عبد الله وبمن معه في انصرافهم من سجلماسة وباطنه على ذلك قوم

من أهل (تاهرت) يعرفون ببني دبوس فاستدعوه فوشي بهم الى دواس عامل الموضع فحبسهم في حصن

ابن بخاته المعروف (بتاهرت) القديمة وحارب محمد بن خزر (تاهرت) وتغلب على بعض ارباضها فلما 138

رأى ذلك دواس هرب الى ابن حمة صاحب القلعة ووثب اهل حصن بخاته على بني دبوس عندهم فقتلوهم ودفع اهل (تاهرت) محمد بن خزر وحاربوه ثم كاتبوا دواسا فانصرف اليهم ورجعت قبيلة زناتة (تيهت) وحاصروا دواس بن صولات فيها فأخرج اليهم عبيد الله قائدا يعرف بشيخ المشايخ فهزم زناتة وقتل كثيرا منها وفي سنة 299 فتحت (تيهت) وكان أهلها قد ثاروا على دواس عاملها وأرادوا قتله فهرب منها الى تيهت القديمة وتحصن بها وقتل فيها أكثر أصحابه واكنوا في نحو الف فارس واستدعوا محمد بن خزر فقدم عليهم وأدخلوه البلد وولوه وبرزوا اليه بأمر دواس وعياله وأكثر سلاحه ثم خذلوه وخذلهم فزال عنهم وانصرف الى موضعه ثم أخرج عبيد الله العساكر الى (تيهت) في أعداد عظيمة وخلق لا يحصى كثرة فزلت عليها يوم الجمعة لانسلاخ الحرم وحرب أهلها ثلاثة أيام ثم أخذوا بالكيد ودخلت العساكر (تيهت) يوم الثلاثاء لأربع خلون من صفر فقتلوا وسبوا النساء والذرية وانتهبوا الأموال وحرقوها بالنار وبلغ عدد القتلى بها ثمانية آلاف رجل ثم ولي عبيد الله (تيهت) مصالة بن حبوس بن منازل بن بملول المكناسي وانصرف دواس بن صولات الى مدينة رقادة وقتله عبيد الله بعد ذلك وفي سنة 304 خرج مصالة بن حبوس من (تيهت) لمحاربة سعيد بن صالح بن ادريس صاحب (ناكور) فدارت بينهم حروب كثيرة .

(أقوال قال صاحب الاستقصاء وفي سنة 305 أحرقت النار أسواق مدينة فاس وأسواق (تيهت) قاعدة زناتة وأحرقت أسواق قرطبة وارباض مكناسة من بلاد جوف الأندلس وكان ذلك كله في شوال من السنة المذكورة فسميت سنة النار اهـ)

وفي سنة 310 قدم مصالة الى المهدي على عبيد الله فأقام بها أياما ثم صرفه الى (تيهت) فخرج اليها في شعبان وفي هذه السنة خالفت نفوسة على عبيد الله وقدموا على انفسهم اباطة فاجتمع اليه عدد كثير وأشدت شوكته فأخرج اليهم عبيد الله علي بن سليمان الداعي في جمع كثير فلما قرب منهم ثبتوا فقتلوا كثيرا من أصحابه وانهمزم الباقون وتفرقوا عن علي ابن سليمان فسار علي الى طرابلس وكتب الى عبيد الله بذلك فكتب عبيد الله الى علي بن لقمن عامله على قابس بأن يقتل كل من مر به من المنهزمين فقتل منهم جماعة وأمد عبيد الله علي بن سليمان بالجيش بأهل نفوسة ودخل حصنهم وهدمه وقتل الرجال وسبى الذرية وذلك وم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة بقيت من شعبان وفي سنة 312 خرج مصالة بن حبوس من 0 تيهت الى زناتة فأداهم بلدهم وقتل وسبى وأخرج خيلا الى بعض نواحي ابن خزر وكان فيها أكثر حماته ووجوه رجاله وبقي مصالة في نفر من أصحابه فبلغ ذلك ابن خزر فقصد نحو مصالة ودارت بين الفريقين حرب عظيمة قتل فيها مصالة وانهمزم أصحابه وذلك يوم الجمعة لعشر بقين من شعبان وفي سنة 314 زحف ابن خزر الى (تيهت) وحاربها فانهمزم عنها وأخرج عبيد الله في اثره موسى ابن محمد الكتامي في جماعة من القواد فلما صار بطبنة دخل محمد بن خزر الصحراء وابقى اخاه عبد الله مع وجوه رجاله بوادي مطماطة فدارت بينه وبين جند الشيعي حرب عظيمة كان الظفر فيها والغلبة لابن خزر ثم أخرج عبيد الله اليه اسحق بن خليفة واصحابه وخالفت على الشيعي لماية وماجاورها من القبائل واستمدوا بابن خزر فكتبوا الى عبيد الله مستمدين فأمدهم بجيش كثير فهزموه وراست هذه القبائل محمد بن خزر فولى عليهم أخاه عبد الله ودارت بينه وبين جيوش الشيعي وقائع كثيرة وبعد وفاة مصالة تولى (تيهت) أخوه يصل بن حبوس الى أن توفي سنة 319 ثم وليها ابو مالك بن يغمراسن بن ابي شحمة اللهيضي فقام عليه أهل البلد وأخرجوه سنة 323 ووليها ابو القاسم الأحذب بن مصالة بن حبوس فقدموه على انفسهم فأقام عليهم سنة واحدة فلما انصرف ميسور من ارض المغرب الى 139

افريقية حاربهم حتى ظفر بالبلد فقتل ابا القاسم بن مصالة المذكور وولى على (تيهت) داود بن ابراهيم العجيسي فأقام واليا عليها الى أن أخرجه حميد بن يصل في جهادى الاخرة من سنة 333 في أيام ابي يزيد مخلص بن كيداد اليفرني وخرج حميد بن يصل من (تيهت) في سنة 333 في خبر طويل ذكره وجاز الى الاندلس واحتل اسماعيل الشيعي مدينة (تيهت) وولى عليها ميسورا الفتى فاضطرب عليه أهل البلد لأنه سار فيهم بسيرة غير مرضية فاستدعوا محمد بن خزر الزناتي وابنه الخير ومن معهما من زناتة فقدموا الى (تيهت) في جمع عظيم وظهروا أنهم ناصرون لميسور فخرج اليهم فغدروه وأسروه ودخل بنو خزر وزناتة مدينة (تيهت) ونزلوا دار الامارة ثم اضطرب أمر أهل (تيهت) وتغلب عليها يعلي بن محمد اليفرني الزناتي الى ان قدم جوهر قائد الشيعة سنة 349 هـ بدون زيادة ولا نقصان الا ما كان من بعض كلمات يقع بها ربط كلامه المتفرق لا يترتب عليها شيء من جهة المعنى الأصلي ولم نقف على من وليها بعد هذا التاريخ ولم نعلم نهاية عمرانها متى كانت الا ما يوحى من كلام ابن خلدون فانه بعد أن تكلم على احوال بني رستم فيها باختصار وتكلم على بعض من وليها بعدهم ممن ذكرناهم هاهنا قال ولم تنزل (تاهت) هذه بعد لأعمال الشيعة وصنهاجة سائر أمهم وتغلب عليها زناتة مرارا ونازلها عسكر بني امية راجعة في أثر زييري بن عطية أمير المغرب من مغراوة أيام أجاز المظفر بن ابي عامر من العدو الى حربه ولم يزل الشأن هذا الى أن انقرض أمر تلك الدول وصار أمر المغرب الى دولة الموحيدين من بعدهم وملكوا الفرس وخرج عليهم بنو غانية بناحية قابس ولم يزل يجيء منهم جلب على ثغور الموحيدين وشن الغارات على بسائط افريقية والمغرب الأوسط وتكرر دخوله اليها عنوة مرة بعد أخرى الى أن احتمل سكاهها وخلاجوها وغفار سمها لما تناهى عشرون من المائة السابعة والارض لله هـ والذي يوحى من التاريخ انها خربت مرارا وعمرت ولعل ما ذكره ابن خلدون هو خرابها الأخير الذي لم تعمر بعده (هذا) وبعد أن تبادلتها أيدى الشيعة وغيرهم ممن سعى في الارض فسادا اضمحلت آثار العدل منها وتغيرت معالمها وساد فيها الجهل وسارت في التقهقر والادبار على نسق ما كانت عليه أيام بني رستم من التقدم في العلوم والعمران وقد بلغ الجهل بأهلها في آخر أمرها مبلغا يكاد يكذب به سامعه ومن ذلك ما ذكره المؤرخ القزويني حيث قال ويحكى أنه رفعت الى قاضيه (يعني أصحاب تيهت) جنابة فما وجدها في كتاب الله فجمع الفقهاء والمشائخ (صورة) فقالوا بأجمعهم الرأي للقاضي فقال القاضي اني ارى أن أضرب المصحف بعضه ببعض ثم افتحه فما خرج عملنا به فقالوا (الى الصواب) أفعل ففعل فخرج (قوله تعالى سنسمه على الخرطوم) فجدع (قطع) أنفه هـ .

وقد تضاربت أقوال المؤرخين وتباينت في تقدير مدة عمرانها بامامة بني رستم كما اختلفوا في مدة كل امام منهم وقد قدمنا الراجح من ذلك فقال بعضهم 130 وبعضهم 150 سنة وعلى هذا القول جرى والذي حفظه الله في قصيدته التي رثى بها استاذة عمه الشيخ سعيدا الباروني نزيل جزيرة جربة وعلامها الوحيد في عصره رحمه الله حيث قال

وَأَيْنَ الْأَنْمَةِ الْكِرَامَ جَمِيعُهُم بَنُو رَسْتَمِ كَأَسِ الْمَنَايَا تَجَرَعُوا
لَقَدْ أَسَّسُوا (تِيهْت) بِالْمَغْرِبِ وَارْتَقُوا مَدَارِجَ عِزِّ الْمَلِكِ فِيهَا وَأَبْعُوا
وَدَامُوا بِهَا خَمْسِينَ عَامًا وَمِائَةً يَحْفَهُمُ مَنْ كَانَ بِالْعُضْبِ يَقْطَعُ
فَبَدَّدَهُمْ رَيْبُ الْمُنُونِ وَأَصْبَحَتْ مَنَازِلُهُمْ قَفَرًا بِهَا الرِّيحُ زَعَزَعُ

وأنماها بعضهم الى 160 سنة وهو صاحب المكتبة الصقلية المطبوعة بمطبعة ليبسيك الافرنجية 140

(قال) وزال ملك بني الأغلب وبني مدرار الذين منهم اليسع وكان لهم ثلاثون ومائة سنة منفردين بسجل ماسة وزال ملك بني رستم من (تاهرت) ولهم ستون ومائة سنة وملك المهدي (الشيعة) جميع ذلك اهـ والذي يؤخذ مما رجحناه فيما سبق من مدة كل امام انها لم تتجاوز **140** سنة ولعل من قال بأكثر من هذا يرى ان امامة عبد الرحمن رحمه الله مؤسس (تيهرت) كانت قبل **160** من الهجرة وهو غير بعيد ان اعتبرناها من يوم وفاة ابي الخطاب وخروجه هو من القيروان كما قدم والله اعلم بالحقيقة .

(رثاء مدينة تيهرت لما خربت)

تقدم ماهو كاف في بيان بعض ما كان فيها من العلماء والأدباء والشعراء ولا نشك في انهم رثوها بقصائد كثيرة وبكل أسف لم نثر على شيء منها كلما بحثنا الا بعض ابيات ذكرها العلامة المراكشي وهي تسيل الدمع وتكلم الروح وتحرك الاحزان وتدل على ما كان لقائلها من القدرة على اختيار العبارات المؤثرة بمعانيها امهيجة المثيرة للحنين الى معاهد الأولين وآثار المتقدمين (قال) ومما قيل حن قضى الله بخرابها وانتقل اهله وأربابها عنها .

خليلي عوجا بالرسوم وسلمما	على طلل أقوى واصبح أغبرا
ألما على رسم (تتهرت) دائر	عفته الغواصي الرائحات فأقفرا
كأن لم تكن (تتهرت) دار لمعشر	فدمرها المقدور فيمن تدمرا
قال وقال بعض شعراء (تتهرت من قصيدة أولها)	

فراغ الهوى شغل ومحيا الهوى قتل	ويوم الهوى حول وبعض الهوى كل
وجود الهوى بخل ورسا الهوى عدا	وقرب الهوى بعد وسبق الهوى مطل
سقى الله (تتهرت) المنا و(سويقة)	بساكنها غيثا يطيب به الخل
كأن لم يكن والدار جامعة لنا	ولم يجتمع وصل لنا لا ولا أهل
فلما تمادى العيش وانشقت العصا	تداعت اهاضيب النوى وهي تنهل
سلام على من لم تطلق يوم بيننا	سلاما ولكن فارقت وبها ثكل
وماهي آماق تفيض دموعها	ولكنها الارواح تجري وتنسل
قال وتيهرت القديمة هذه هي التي خربها الخير بن محمد بن خزر الزناني	

(سياحتي في المغرب وزيارتي تيهرت)

كنت ارتحلت من مصر بعد أن جاورت في الازهر العامر نحو ثلاث سنين الى المغرب الوسط سنة **1313** فقصدت جبال بني مصعب من أعمال الجزائر لطلب العلم من عالم الاسلام امام الائمة الاعلام استاذي الشيخ محمد ابن يوسف الميزابي صاحب الصيت البعيد والذكر الحميد الذي عرفت الدول حق قدره فرصعت صدره بالنياشين المعتبرة بدون ان يسألها أو يتصدى لها وناهيك من رجل حاز ذلك على بعد مكانه وقلة الوسيلة من أمير المؤمنين وسلطان المسلمين المعظم عبد الحميد بن عبد المجيد خان العثماني صاحب مملكة القسطنطينية العظمى ومن السلطان المعظم ملك دولة النجبار ومن الدولة الفرنسية الكبرى فأقامت عنده ملازما مجلسه الفاخر نحو ثلاث سنين أيضا أظهر رضي الله عنه في أثنائها من الاعتناء بشأني والاجتهاد في ارشادي مالا أقدر قيمته ببيان فجازاه الله ¹⁴¹

عني بما هو أهله وأسكنه بعد عمر طويل غرف الجنان كما لاقيت من الاخوان الكمل والأصدقاء الافاضل أهل المروءة والأدب الكامل ممن عرفتهم وعرفوني هنالك كل حفاوة وكرام وتبجيل واحترام حتى كدت أهجر بلادي وأتخذ بلادهم وطنا لي ولا عيب فيهم غير ان ضيوفهم عاب بنسيان الأجابة والأهل.

ولما كنت أسمعهم كثيرا من أستاذي هذا على تيهرت وعمرانها وبني رستم وعدلهم اعتبارا بمن مضى وتزودا من بركات من وطؤا ثراها وعمرها بذكر الله سهلها ورباهها فاستأذنت الامام في السفر وبعد ماطلة وتسويق طويل أنعم بالاذن وشيعني مسافة أخجل من بيانها لعلو مقامه وصغر مقامي وان علم بها الخاص والعام ولقيني بمالا أتحمّل حمله مما لم يجد به لغيري وزودني من دعائه الصالح وتوجهاته القلبية مالم ازل استمد منه الرشد والتوفيق ولا أضام معه باذن الله ما دمت حيا فقصدت الجزائر ومنها عطفت الى (تيارت) وهي تيهرت القديمة يصحبني من الأصدقاء عدد لا أنسى ذكرهم ولا أقدر فضلهم على متن وابور السكة الحديدية فاخترق بنا جبالا وقطع أودية وهو يزأر كالأسد كلما دخل غارا أو تجاوز قنطرة وكأنه يدرك ببصيرة نفاذة ويبصر بأبصار وقادة أو يهتدي بالدليل فيقتحم المغاوز بالليل الى أن وصلنا (تيارت) ونزلنا عند صديق لنا من أفاضل تجار بني ميزاب فأكرم نزلنا ثم سار معنا على ظهر البابور الى تيهرت فترلناها واذا هي لم يبق منها الا آثار ورسوم وأنقاض متراكمة يجمعها الفلاحون ليحرقوها أماكنها وبقي من سورها شيء قليل في ناحية يدل على منعته وقوته وزرنا الغار الموجود فيها بالقرب من الشجرتين اللتين يقال انهما من وقت عمرانها المشهور عن الغار انه معبد لبعض زهاد ذلك الوقت ويعترف له الاعراب المجاورون لها ببعض كرامات منها ما أخبرني به بعضهم من أن نصرانيا كان في السنين القريبة يرعى خنزيرا له ويأوي اليه في بعض الاوقات للمبيت أو المقيط فيه ولما سمع بنو ميزاب التجار (بتيارت) أو غيرها فمروا عن ذلك مرارا وحذروه فلم ينته ثم أصبح في بعض الايام وهو فيه أعمى وخزيره هباء بجنبه فاعتبر وندم حيث لا ينفعه الندم ومن عادة بني ميزاب زيارتها كل سنة مرارا والتصدق فيها وقراءة القرآن فكان يبعث اليهم يسألهم أن يقبلوا منه صدقته مع صدقاتهم رجاء أن يرد الله عليه بصره فلا يقبلون منه فأتى مرة بنفسه وذبح وتصدق وذهب وقد سألت عنه لما سمعت الحكاية لجمع به وآخذ منه حقيقتها مشافهة فلم يتيسر ذلك لموانع أهمها استعجالي والعلماء الأفرنج الفرنسيون وغيرهم حقيقة علم بأحوال هذه المدينة وأخبارها وما كانت عليه من العمران فهم يقصدونها في سياحتهم وقد وجدنا هناك فرنساويا فلاحا لا يعرف من العربية الا يسيرا ولما رأنا بفم الغار جاءنا فقال بكلام لا يفهم الا بالقوة ان لبني ميزاب هاهنا في الزمن الأول خمسة ملوك اقوياء وأشار باصابع يده ومن وسطها الآن ترم السكة الحديدية وطريق الكروسة الى (تيارت) وغيرها وبالقرب من العين المسماة الى الآن بعين السلطان بنيت الخطة وعلى العين شرع الفرنسيون في العمارة ولا يمضي زمن حتى يقال عاد الى تيهرت شبها القديم ونزلها تجار الاباضية اربابا القدماء وغيرهم من بني ميزاب وما ذلك على الله بعزير وفي جانب منها هنشير عظيم ذو انقاض كثيرة يعرف الآن بدار السلطان ولعله بقية من دار الامارة الاولى والله اعلم.

وبعد أن قرأنا ما تيسر من كلام الله العظيم وتصدقنا على الحاضرين بما استصحناه معنا لأجل ذلك من (تيارت) انفردت الى أعلى جهة منها أكيف هيناتها وارمي بنظري الى ارجائها وأنا أردد قول الشاعر القائل

كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر

الى أن لاح لي قطعة السور الباقية منه فانتقلت اليها فاذا بها زاوية من زواياه محكمة البناء متينة

الأساس كأنها بقية برج فاسترحت في ظلها بجنب عود من تين أو خروع عتيق فيما أظن برهة من الزمن أجول بفكري
في أخبارها وتاريخها وببصري في آثارها حتى ادركتني رقة لانت لها الطبيعة الجامدة والقريحة الكاسدة فجادت بما لم
يكن من عادتها قبل ذلك أن تجود به واستحضرت ما لم أكن ممن ينظم من الشعر عقودها ويدرك منه سننه وفروضه هذه القصيدة التي لم
أغير منها مما قلته اذ ذاك شيئا سيرا في منهج الصدق الا ما كان من قولي (واستعبدوا البر والبحرا) فانه قد ابدلته
الآن بقولي (واستسهلوا الخ) كما ستراه لما في لفظ استعبدوا من مجاوزة حد المبالغة المنهي عنها فخذها ايها القارئ
على ما فيها (وان بالبدر كلفا)

قفا نبك اطلالا تقلص ظله	ونندب آثار الذين بقوا ذكرا
بني رستم من قام بالعدل ملكهم	فأمست بهم تيهرت كالروضة الزهرا
تحف بها الانهار والزهر باسم	بروض بساتين هي الجنة الخضرا
أقاموا منار الدين دهرًا وشيدوا	معالمه واستسهلوا البر والبحرا
فكم نظموا جيشا وكم نشروا عدلا	وكم هندوا سيفًا وكم ضربوا تبرا
وكم من حصون احكموا ومعاقل	وكم مسجد أحيوا وكم عمروا قطرا
وظل لواء النصر يخفق فوقهم	وتيهرت دار العلم والدولة الكبرى
فكم من أمير تحت ظل ابن رستم	تقلد فيها السيف واكتسب الشكرا
وكم من امام كان في الدين حجة	وكم في ساسات الملوك ترى بدرا
فأمست خلاء تذرّف الدمع حولها	عيون بما قرت وسادت دهرًا
كذا الدهر خوان فيضحك تارة	وايكي مرارا صاغ من حلوه المر
ايادار كم عمرت والسعد مقبل	عليك وكم بالعلم سادت بك الغبرا
عمرت وعمرت البلاد سويعة	من الدهر كانت من نوادره الغرا
يشد اليك الرحل من كل وجهة	بك العيش رغد طيب وبك الاخرى
فهل فيك من يدري وقوف متيم	يكفف دمعا نادبا مربع الذكرا
يئن انينا يجرح القلب والكلى	يفتت أكبادا ولما يطق صبرا
سلام سلام من قلوب كنيبة	تسائل اطلالا ولم تكتسب خبرا
على معهد الاسلام والدين والهدى	وربع ملوك كان ملكهم صدرا
الا ايها الخل المرافق قف وقل	حيال ديار طالما جبرت كسرا
سقى الله (تیهرت) بوابل رحمة	يمجدد ذكراها ويحي لها فخرا
وآه وهل يحي التأوه ميتا	ومن ذا يرى عمرانها مرة أخرى
بعيد بعيد لكن الله ربنا	قدیر علی أن المغیب لا یدری

ثم تحولت الى أصحابي وعدنا الى الجزائر ومنها وليت وجهي نحو وطني العزيز (جبل نفوسة الشامخ العامر) فكانت
لهذه الزيارة بعد ذلك رنة أطبقت آفاق تلك الجهات وبني عليها وعلى ما عطف عليها من الوسائل¹⁴³

حدث أضحك وابكى وأمات وأحى واهان وأكرم وأذل وأعز وابتعد وقرب وأسخط وارضى (وكان وكان وكان) مما لو سطر لملأ بطون الدفاتر وضائق دونه صفحات الطروس وما هو وایم الله الا اوهام وافكار كأضغاث أحلام وحيل ومراصد يتوصل بها الى خبيث المقاصد ثم كانت عاقبته السلامة بواسطة من تحلوا بالفضل والكرامة من أرباب الهمم العلية والمروءة والانسانية فتجرع كل من لم يبلغ مرامه من الواشين كؤس سم الحسرة والندامة وتسربل بسربال المذمة والملامة اذ أيد الله العدل والانصاف وبدد الظلم والاعتساف بتوفيق سيد سلاطين المسلمين وحامي حمى الحرمين الشريفين سلطاننا أمير المؤمنين (عبد الحميد خان الثاني إلى الانعام بعفو شاهاني خصوصي تحليت بحليته الفاخرة وتناسيت ما كان في الحين وعطفت إلى تلاوة قوله تعالى وهو اصدق القائلين: ﴿ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴾ {69} وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ {70} وقوله إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ {30} أَلَّا تَعْلَمُوا عَلَيَّ وَأُتُونِي مُسْلِمِينَ {31} وهي اية يزجر بها المعزومون المردة من الجن والشياطين والحمد لله رب العالمين

﴿تنبيه﴾

حيث أن اغلب تحرير هذا الكتاب كان مجازيا لطبعه بمعنى إن ما احرره اليوم يطبع غدا مثالا حصل فيه تساهل من حيث اللغة والاعراب والرسم وربما اطلع على شي منذلك بعد فوات طبعه فأتأسف اذ لا يمكنني تصليحه . ومن نظر إلى قولي في صحيفة 12 عن قمرت « بعد إن مضى عليها مالا يبعد عن الف سنة وهي خراب » الى ما ذكرته اخيراً ممن وليها بعد بني رستم يصدق ما قلته فاني كنت عند تحرير الاول اعتقد انها لم تعمر بعد بني رستم قط ثم اطلعت على الاخير بعد ذلك . ولم أغبر مما نقلته من كلام المؤرخين شيئا غير لظ الخوارج الذي يقرنونه أحيانا بلفظ الاباضية أو يعبرون به عنهم طعناً فيهم فأني اسقطته وأرجو من أرباب الاطلاع إن يصلحوا الفساد ما أمكن بدون اعتراض فاني مقر بالعجز والتقصير والكمال الله الذي خلق النقص والكمال.

واصلح الفساد بالتأمل
وان بديهة فلا تبدل
اذ قيل كم مزيفا صحيحا
لاجل كون فهمه قبيحا

والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله الطاهرين ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم .

الاعانة الثانية من المشاركة اليه

- واقعة نفوسة مع المعتزلة
دهاء هذا الامام مع ملك الصفورية
استدعاء المعتزلة فارس نفوسة للضيافة بقصد الغدر به
خطبة ابن رئيس الصفورية لبننت الامام وتزوجه بها
حرب اخرى كبيره للامام
95 حملها منه وما نشأ عن ذلك
133 تزوج الامام من قبيلة لواتة
98 وفاة الامام
137 عزم الامام على الحج
100 (خلافة الامام عبد الوهاب)
140 منع نفوسة الامام من الحج
102 خروج ابن فندين عن الطاعة
143 حكاية ابي عبيدة معه
103 مكيدة لقتل الامام
144 محاصرة الامام طرابلس
ارسال المسلمين الرسل للمشرق
146 محاصرة عسكر الامام لقابس
صورة جواب المشاركة
147 رجوع الامام الى تيهرت
ارتحال شعيب من مصر إلى
000 وولاية السمع على الجبل
تيهت طمعا في الامامة
148 وفاة السمع وفتنه ابنه خلف
109 حرب ابن فندين مع الامام
149 جواب الامام الى نفوسة
112 رجوع الرسل من المشرق في شأن خلف
والغدر بميمون بن الامام
152 ولاية ايوب بن العباس على الجبل
115 حرب ابن ميمون مع القاتلين لوالده

- 000 ولاية ابي عبيدة على الجبل
- 155 حكاية ابن يانس التابع لخلف
- 116 حرب الواصلية مع الامام
- 157 صورة جواب الى امام عمان
- 118 طلب الامام من نفوسة جيشا
- 159 تصحيح قول
- 160 رسالة ابي عبيدة مسلم للامام
- 214 النصيحة العامة من الامام
- 163 وفاة الامام وعدد اولاده ومدته
- 219 عمال الامام
- 164 عمال هذا الامام
- 000 ولاية ابان على نفوسة
- 166 (خلافة الامام افلح
- 220 وفاة الامام ومدته واولاده
- 167 محاربة ابي عبيدة لخلف
- وذهاب ابي اليقظان الى الحج
- 168 محاربة ثانية له ووفاته
- 222 خلافة الامام ابي بكر
- 174 ولاية العباس على الجبل
- 223 مصاهرتة لابن عرفه
- 181 كلام ابن الصغير على سيرة الامام
- 224 رجوع ابي اليقظان من بغداد
- 182 دهاء هذا الامام
- 226 مذاكرة الامام مع رجاله في شأن ابن عرفه
- 184 احوال الامام مع الملوك
- رسالة الامام الى بعض عماله
- 227 قتل ابن عرفه
- 188 رسالة اخرى له
- 230 قيام اهل المدينة للأخذ بثاره
- 190 قصيدته في فضل العلم
- 232 تجنب نفوسة وابي اليقظان

195	انتحال فرج النفوسي الخروج
000	حربهما مع أهل المدينة
199	رسالة الامام الى رعيته
236	خلافة الامام ابي اليقظان
201	رسالته الى المسلمين كافة
237	طلب الامام جيشا من نفوسة
204	رسالة الى نفات
240	رسالة الامام الى العمال والرعية
206	هروب نفات الى المشرق
243	مناظرة الاباضية مع المعتزلة
	ونسخه ديوان جابر من بغداد
000	حكاية ابي عبيدة مع الامام
210	امتحان الشراة لهذا الامام
245	تعلق نفوسة بهذا الامام
000	ولاية افلح بن العباس على نفوسة
275	دخول الامام المدينة
247	حكاية قاضي تيهرت
277	اخبار ابي منصور مع ابن خلف
151	ولاية ابي منصور على نفوسة
280	ولاية افلح بنفوسة ووقعة (مانو)
255	محاربته مع ابن صاحب مصر
284	واقعة لابن الاغلب مع نفوسة
258	جواب ابي منصور اليه
286	ارباب المذاهب بتيهرت
000	حكاية سجن الامام ببغداد
287	خطب الجمعة في ذلك العهد
260	خبره مع اخي السلطان
289	خطبة التحكيم
261	عقد الخلافة لأخي السلطان
291	قتل الامام وعدد مدته
262	طلبه من الامام الاقامة ببغداد

- 292 ولاية اليقظان وقتله وانقراض ملك بني رستم من تيهرت
- 263 غريبة
- 264 وفاة الامام وعدد اولاده ومدته
- 293 خبر يعقوب بن أفلح
- 265 خلافة الامام ابي حاتم
- 293 من ولي تيهرت بعد بني رستم
- 266 نفي الامام لبعض المفسدين
- 300 ما قيل من الشعر في رثاء تيهرت
- 269 خروج الامام من المدينة عند خرابها
- 270 محاصرة الامام للمدينة
- 301 زيارة جامع الكتاب الى اطلال
- 271 مبايعة أهل المدينة لعم الامام تيهرت وقصيدته واسارة
- 272 حرب الامام مع عمه مانشأ عنها
- 273 عقد صلح بين الامام وعمه
- 307 (تنبيه)
- 274 الاجماع على الامام
- (تم بعونه تعالى بمطبعة الازهار البارونية)